

البشير سلامة



عائشة

رواية

1982

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

رسوم القصة والغطاء للفنان الزبير التركي

البشير بن سلامة

عائشة

رواية

1982

إِلَى رُوحٍ وَإِلَهِى

مَدخل

«عائشة» هي رواية قائمة الذات أشخاصها يتحركون في الحياة والموت، في السقم والإقامة، في الشقاء والسعادة، في اللذة والألم ضمن رباعية عنوانها «العابرون».

هم «عابرون» حياة لا هم لهم إلا عيشها يرحلون عنها ولم يتركوا شيئاً بخلف. ذكرهم ويترمز إلى مآثرهم. لذلك أرادت تسجيل لقطات من عبورهم لهذه «الدنيا» وهو تسجيح من الخيال والواقع. أنت أدري هل هي دنياهم أم دنيا المخيلة؟

ستكون رباعية «العابرون» حاجة بالاشخاص ولكيئها مستقطب أربعة منهم: عائشة وعلي وعادل والناصر.

أشخاصُ الروايةِ وَوَقَّاعُهَا مِنْ حَبْلِكَ الْخَيْسَالِ وَكُلُّ شَيْءٍ
بِأَشْخَاصٍ وَأَقْعِيئِينَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ مَحْضِ الصُّدْفَةِ طَالَمَا أَنَّ
النَّفْسَ الْبَشَرِيَّةَ فِي تَعَدُّدِهَا وَتَنَوُّعِهَا مَعْدِنٌ فَرْدٌ وَطِينَةٌ وَاحِدَةٌ

بَابُ الْعَرْشِ

حَلَّ « عَلِيَّ » بِقَرِيْبَتِهِ لِيُزَوِّرَ أَهْلُهُ بَعْدَ غِيَابِ طَوِيلٍ . وَمَا أَنْ دَخَلَ مَنْزِلَ الْعَائِلَةِ
 حَتَّى عَلِمَ بِأَنْ « عَائِشَةَ » رَفِيقَةَ صِبَاهُ قَدْ لَبِثَتْ دَاعِي رِبِّهَا فِي الصُّبْحِ الْبَاكِرِ
 مُتَخَلِّصَةً مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي ذَاقَتْ مِنْهُ أَلْوَانًا رَغَمَ قُرْبِهَا مِنْ سَيْنِي الشَّبَابِ .
 لَمْ يَكُنْ يَتَصَوَّرُ أَنَّ « عَائِشَةَ » الْحِمْرَاحَةَ ، الْمُقْبِلَةَ عَلَى الْحَيَاةِ أَمَلًا ، وَذَكَاءَ ،
 وَفِطْنَةً سَتَلْعَبُ بِهَا عَوَاصِفُ الدَّهْرِ بِمِثْلِ هَذِهِ السَّرْعَةِ وَبِهَذَا الْعَنَفِ السُّدْمِ .
 وَضَعَ يَدَهُ الَّتِي عَلَى مَكَانِ الْقَلْبِ مِنْهُ لِيَلْطَفَ مِنْ دَقَائِهِ الْمُسْرِعَةِ وَلِكَيْتَهُ
 أَحْسَ بِوَخْزَاتِ كَأَنِّهَا وَخْزَاتُ إِبْرَةٍ تُضْرِبُ سُوَيْدَاءَ قَلْبِهِ . فَهَضَمَ بَيْنِي عَلَى مُوْضِعِ
 الْأَلَمِ وَأَسْكَنَتْهُ هَامِيسًا :

- كَانَ أُخْرَى بِالْذَمِّ أَنْ يَتَنَاقَرَ مُتَجَرِّمًا مَعَهُ هَذَا الْأَلَمُ لِيَتَلَأَثَى ، وَلَكِنْ الْأَلَمُ عِنْدَمَا
 يُدْفَنُ فِي الْقَلْبِ بِهَذِهِ الصُّورَةِ هُوَ كَالْحَمِيَّتِ يُوضَعُ فِي الْقَبْرِ فَتَتَأَكَلُهُ الدِّيدَانُ ،
 وَتَذْهَبُ بِكَيَانِهِ ، فَيَصِيرُ هَبَاءً . الْأَلَمُ السَّاكِنُ بِالْحَيِّ كَالدُّودَةِ الْإِكْلَةِ لِلْحَمِيَّتِ بِكُلِّهَا
 مُتَلَفٌ لِصَاحِبِهِ . وَأَيُّ حَيٍّ لَا تَتَمَلَّكُ نَفْسُهُ عَاطِفَةُ الْأَلَمِ وَتَأْسَرُهُ ، وَتَرْجُو كَيَانَهُ
 رَجًا ، كَاللَّدْوِ ثَمَامًا تَقِيضُ الْأَلَمِ وَعَكْسِيهِ .

لَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ اللَّذَّةَ وَالْأَلَمَ هُمَا اللَّذَانِ أُسْرَا كُلُّ مَنْ عَرَفَهُمْ حَوْلَهُ فِي صِغَرِهِ
 وَشَبَابِهِ . وَقُلْتُ أَنْ وَجَدَ لِلْعَقْلِ مَكَانًا كَبِيرًا عِنْدَهُمْ . فَكَمْ هَبَّتْ رِيَّاحُ الْأَلَمِ وَرِيَّاحُ
 اللَّذَّةِ عَلَى مَرْكَبِ الْحَيَاةِ أَلْهَتَهُزْ فَوْقَ لُجَجِ الْعَوَاطِفِ الْمُتَنَاجِجَةِ ، وَلَمْ يَحِذْ شَرِيعًا وَاحِدًا
 قَاطِرًا عَلَى الْإِسْتِحْكَامِ وَكَبْحِ الْجِهَانِ بِالْعَقْلِ وَسُلْطَانِهِ .

تَوَجَّهَ رَاسًا إِلَى « الْمَقْعَدِ » قُرْبَ مَنْزِلِهَا فَوَجَدَ أَهْلَهَا : زَوْجَهَا الثَّانِي وَأَبَاهَا وَإِخْوَتَهَا فَعَرَّاهُمْ جَمِيعًا ، وَبَقِيَ هُنَاكَ يَنْتَظِرُ خُرُوجَ الْجَنَازَةِ .

بَدَأَ الْمَطْرُ بِنَزْلٍ وَزَادًا ، خَفِيفًا ، مُتَقَطِّعًا ، وَهَبَتْ رِيحٌ بَارِدَةٌ ، وَصَلَتْهُ لَفَاحَتُهَا فَضَرَبَتْ خَدَّهُ ، وَتَسَرَّبتْ إِلَى سَاقَيْهِ ، فَأَفَاقَ مِنْ شِبْهِ غَيْبُوتِهِ غَرِقَ فِيهَا وَاسْتَعْرَضَ اثْنَاءَهَا فِي شَرِيطِ سَرِيعٍ أَطْوَارَ حَيَاتِهِ « عَائِشَةُ » وَأَثَرَ عَدَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْجَالِسِينَ عَلَى الْكَرَاسِيِّ فِي الْإِسْرَاعِ بِهَا إِلَى حَيْثُ هِيَ الْآنَ : أَبُوهَا « الطَّاهِرُ » وَأَخُوهَا « النَّاصِرُ » وَزَوْجُهَا الثَّانِي « الْمُكَنِّزُ » وَابْنُ أَخِيهِ « الْأُزْهَرُ » .

وَرَجَعَتْ إِلَيْهِ شِبْهُ الْغَيْبُوتِ مِنْ جَدِيدٍ . وَاحْتَفَى لَذْبِهِ ، وَكَأَنَّهُ بِسِحْرِ سَاحِرٍ ، كُلُّ الْجَالِسِينَ فِي « الْمَقْعَدِ » وَانْتَصَبَ أَمَامَهُ « خَالِدٌ » زَوْجُ « عَائِشَةَ » الْأَوَّلِ وَالضَّابِطُ الصَّغِيرُ فِي الْجَيْشِ الْفَرَنْسِيِّ ، يَقَامَتِهِ الطَّوِيلَةُ ، وَبُدْلَتُهُ الْمَسْكِرِيَّةُ الْأَلْيَقَةُ ، وَبِدْيُو « لَائِقَةُ » يَهْوِي بِهَا عَلَى « سَالِمِ » رَبِيبِ « عَائِشَةَ » وَهُوَ فِي زِيٍّ جُنْدِيٍّ بَسِيطٍ . وَتَلَا حَقَّتِ الضَّرَبَاتُ مَدُونَةً فِي أُذُنِ « عَلِيٍّ » وَتَعَالَى صُرَاخُ « سَالِمِ » وَلَكِنَّ « عَلِيَّ » فَكَّرَ عَيْنَيْهِ وَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ الصُّرَاخَ آتٍ مِنْ دَارِ الْمَيِّتِ وَأَنَّ الضَّرَبَاتِ صَادِرَةٌ عَنِ النَّعْشِ الَّذِي كَانَ يُحَاوِلُ الْقَوْمُ إِذْخَالَهُ مِنَ الْبَابِ وَبِصَرَاعِهِ يَتَلَدَّدَانِ فِي الطَّاعَةِ وَيَصْكُلَانِ بِقُوَّةِ الْجِدَارِ .

وظَهَرَ لَهُ ، عِنْدَ ذَلِكَ ، مَرَّةً أُخْرَى ، الْجَالِسُونَ عَلَى الْكَرَاسِيِّ وَهُمْ وَاجِمُونَ وَلَيْسَ مِنْ حَرَكَةٍ بِهِمْ إِلَّا تَشَاطُ الدُّبَابِ ، يَتَسَاقَطُ عَلَى الرُّؤُوسِ ، وَالْأَكْتَافِ ، وَالْأَثُوفِ ، وَالْأَعْيُنِ كَأَنَّهُ فِي عُرْسٍ ، وَالْأَيْدِي تَطْرُدُهُ فِي وَقَارٍ ، وَهَيْئَتُهُ مُنَاسِبَةٌ لِلْمَقَامِ . إِلَّا « الطَّاهِرُ » فَقَدْ أَفْلَقَتْهُ ذُبَابَةٌ ، وَأَبَتْ إِلَّا أَنْ تَزُورَ تَارَةً مُنْخَرِيهِ وَطَوْرًا مَقَامِي عَيْنَيْهِ ؛ وَكَأَنَهَا تَتَجَسَّسُ عَلَيْهِ ، وَتُرِيدُ أَنْ تَعْرِفَ مَدَى حُزْنِهِ مِنْ دَمْعِهِ وَخُطَاوِهِ . وَكَأَنَّهُ فُطِنَ إِلَى خُرْعَتِهَا فَتَرَصَّدَهَا وَحَرَكَ يَدَهُ بِسُرْعَةٍ وَتَلَقَّاهَا بَعِيدًا بَعْدًا قَلِيلًا عَنْ عَيْنَيْهِ وَقَبَضَ عَلَيْهَا قَبْضَةً هَالِكَةً . وَنَادَى عِنْدَ ذَلِكَ الْمُنَادِي إِلَى الْجَنَازَةِ وَتَبَعَ النَّاسُ النَّعْشَ إِلَى الْجَبَانَةِ .

وَلَكِنْ « عَلِي » لَمَحَ إِلَى جَانِبِ الْمَيِّتَةِ ، فَوْقَ النَّعْشِ ، جِسْمًا آخَرَ ، صَغِيرًا ، مَلْفُوفًا ، فِي كَفَنٍ ، فَلَمْ يَمْلِكْ نَفْسَهُ ، فَسَالَ أَحَدَ الْأَقْرَبَاءِ عَنِ السَّرِّ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهُ :

- هِيَ بِنْتُ أُخْتِهَا ، مَاتَتْ فِي نَفْسِ الْيَوْمِ ، وَبِنَفْسِ الْمَرْصِ ، بِالسُّلِّ عَقَانَا اللَّهُ وَإِنَّا كُمْ . لَقَدْ كَانَتْ تَحِبُّهَا كَثِيرًا وَتَسْتَمْنِي عَلَى اللَّهِ أَنْ تَكُونَ مَعَهَا ، وَلَبَّى اللَّهُ دُعَاءَهَا . أَمْرٌ غَرِيبٌ وَاللَّهِ .

وَسَارَ الْقَوْمُ بَيْنَ الْأَرْقَةِ وَالْأَنْهَجِ ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى الْمَقْبَرَةِ ، وَتَمَّ دَفْنُ « عَائِشَةَ » وَالطُّفْلَةِ الصَّغِيرَةِ . وَوَقَفَ الْأَهْلُ تَحْتَ شَجَرَةٍ يَتَقَبَّلُونَ تَعَاذِي النَّاسِ . وَانْتَظَرَ « عَلِي » بَعْضَ الْوَقْتِ وَنَظَرَ إِلَى الطَّاهِرِ وَإِلَيْهَا فَوَجَدَهُ مَثْنً ، وَالذُّبَابَةُ مَا تَزَالُ تَتَرَاوَعُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ . وَلَكِنَّهَا لَا تَقْدِرُ عَلَى الْمُسْكُوتِ طَوِيلًا فِي مَا يَكُونُ . فَحَرَكَةُ يَدِ الطَّاهِرِ الْمُصَافِحَةِ لِلْمُعْزِينَ لَا تَتْرُكُ لَهَا الْفُرْصَةَ لِلْأَخْذِ بِشَارِ أُخْتِهَا السَّقْتُولَةِ مُنْذُ حِينَ .

وَلَكِنْ مَنْ يَأْخُذُ بِشَارِ « عَائِشَةَ » بَعْدَ كُلِّ الَّذِي حَصَلَ لَهَا ؟
كُلُّ الَّذِي حَصَلَ لَهَا يَعْرِفُهُ « عَلِي » ، مَرَحَلَةً مَرَحَلَةً ، عِنْدَمَا قَصَّتْ عَلَيْهِ « عَائِشَةُ » قَبْلَ عَامٍ مِنْ مَوْتِهَا مِحْنَتَهَا ، وَلَكِنَّهُ يَعْرِفُ دَقَائِقَ أُخْرَى ، غَابَتْ عَنْ « عَائِشَةَ » وَلَقَّفَهَا ، مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ ، مُنْذُ أَنْ غَادَرَ « الطَّاهِرُ » الْقَرْيَةَ ، وَاسْتَقَرَّ سَنَوَاتٍ فِي الْعَاصِمَةِ ، ثُمَّ رَحَلَ عَنْهَا بِدُونِ رَجْعَةٍ .

* * *

غَادَرَ الطَّاهِرُ الْقَرْيَةَ قَبْلَ الْخَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى بِقَلِيلٍ ، مُتَبَرِّمًا بِتَلْدِيهِ ، مُتَشَوِّقًا إِلَى مَا يَقْصُهُ النَّاسُ عَنْ ثُونِ وَغِنِ الدَّرَاسَةِ فِي جَامِعِ الرِّثْوَةِ ، وَعَنِ الْقُصُورِ الْجَمِيلَةِ الْمُنْبَثَةِ حَوْلَهَا وَالْحَدَائِقِ وَالْمَقَاهِي وَالْمَلَاهِي .
الْقُصُورُ الْجَمِيلَةُ ، طَالَمَا حَدَّثَتْ عَنْهَا وَالِدُهُ ، الْعَارِفُ بِالنَّاسِ وَأُمُورِهِمْ ، وَجَلِيسُ الْعُظَمَاءِ عِنْدَمَا يَزُورُ ثُونِ .

الْعَظَمَاءُ ، كَيْفَ خَلَقَهُمُ اللَّهُ ؟ وَمِنْ آيَةِ طِينَةِ هُمْ ؟ لَا بُدَّ أَنْ اللَّهُ فَضَّلَهُمْ عَلَى عِبَادِهِ الْآخَرِينَ ، هَذِهِ السَّوَائِمِ الْعَاسِيَةِ مَعَ الْبَهَائِمِ ، وَهَذِهِ الصُّحُورِ الْجَالِسَةِ تَحْتَ الْجُذُرَانِ « الْقَوَاسِي » كَمَا كَانَ يُسَمِّيهِمْ عَمُّهُ ، الْعِمْلَاقُ الَّذِي عَمِلَ ضَاطِبًا بِعَسْكَرِ الْبَايِ . فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى قَرْيَتِهِ كَانَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ نَظْرَةَ الْاِحْتِقَارِ وَالْاِسْتِزَارِ . أَلَمْ يَشْرَبِ الْحَمْرَ يَوْمًا حَتَّى السُّكْرُ ثُمَّ مَرَّ بِهَؤُلَاءِ الْجَالِسِينَ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ وَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ أَنْ يَتَبَوَّلَ فَطَاوَعَهَا فَتَهَرَّهَ الْبَعْضُ قَائِلًا :

- النَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ . أَلَا تَسْتَنْجِي ؟

فَأَجَابَ :

- إِنْ هَؤُلَاءِ لَيْسُوا بِنَاسٍ ، إِنْهُمْ « قَوَاسِي » .

كَأَلَوْا يَهَابُونَ بَطْشَهُ وَيَتَّقُونَ شَرَّهُ . إِنَّهُ صَدِيقُ الْحُكَّامِ وَجَلِيسُهُمْ وَالْوَلِيلُ لِمَنْ يَشْكُوهُ إِلَى السُّلْطَةِ ... إِنَّهُ عَرَفَ ثُونَسَ وَرِجَالَهَا ، وَمِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ خَاصَرَتْ « الطَّاهِر » فِكْرَةَ الرَّجِيلِ . وَلِهَذَا لَا يُشَدُّ عَصَا التَّرْحَالِ إِلَيْهَا ؟ وَلَكِنْ كَيْفَ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ ؟ وَلَيْسَ لَهُ مَالٌ يَدْفَعُهُ لِرُكُوبِ الْقِطَارِ وَحَتَّى « الْكَرِيظَةِ » وَأَبُوهُ ! مَاذَا سَيَقُولُ لَهُ وَهُوَ لَا يَزَالُ فِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ مِنَ التَّعْلِيمِ الْإِبْتِدَائِيِّ .

- الرَّابِعَةُ مِنَ التَّعْلِيمِ الْإِبْتِدَائِيِّ . كَرَّرَهَا مَرَّاتٍ عَدِيدَةً ، وَتَذَكَّرَ أَنَّ عُمُرَهُ يُتَاهَرُ الْخَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً . قَالَ فِي نَفْسِهِ : مَا الْفَائِدَةُ مِنَ الْبَقَاءِ هُنَا ، وَكُلُّ الَّذِينَ غَادَرُوا الْقَرْيَةَ أَصْبَحُوا مَهَابِينَ ، حَتَّى السُّلْطَةُ تَهَابَهُمْ وَلَوْ بَالُوا أَمَامَ النَّاسِ ... وَلَوْ عَرَبُوا ... حَتَّى « الْمَسَائِجِ » يُحَاوِلُونَ تَحَاشِيَهُمْ . وَلِهَذَا يُرِيدُونَ مِنِّي أَنْ أَبْقَى هُنَا ؟ أَلِلْمِحْرَاثِ أَوْ الْمِسْحَاقِ أَوْ الْاِتِّكَاءِ عَلَى الْجُذُرَانِ ؟ سَوْفَ أُرِيحُ جَمِيعًا كَيْفَ تَفْعَلُ الرِّجَالُ ، وَسَأَعُوذُ إِلَيْهِمْ وَأَكُونُ أَكْثَرُ مِنْ عَمِّي ، أَحِبُّ مِثْلَهُ مُسَدِّسًا فِي جَيْبِي ، وَالْوَلِيلُ لَنْ تُحَدِّثَهُ نَفْسُهُ بِشُعَاكَسْتِي .

- لَوْ كَانَ لِي مُسَدِّسٌ لَفَضَّيْتُ بِهِ عَلَى ذَلِكَ الْمُدِيرِ « الرُّومِي » الَّذِي يُضْنِعُ لَنَا

وَقَفْنَا وَيَقْضِي غَالِبَ الْيَوْمِ فِي مَكْتَبِ الْبَرِيدِ يُسِرُّهُ « كَقَابِضٍ ». وَلَكِنْ لَا أُرِيدُ أَنْ أَدْخُلَ مِثْلَ ابْنِ عَمِّي إِلَى ثُونِسَ وَأَنَا فِي الْأَغْلَالِ ، لَقَدْ تَسَنَّى عَلَى اللَّهِ أَنْ يَرَى الْعَاصِمَةَ وَلَوْ فِي الْقَبُودِ فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لِدُعَائِهِ . وَيَا لَيْتَهُ تَسَنَّى شَيْئًا آخَرَ ، « فَبَابُ الْعَرْشِ » كَانَ لَهُ مَفْتُوحًا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ . يَا لَسَخَافَةِ عَقْلِ ابْنِ عَمِّي .
أَمَّا أَنَا...

* * *

وَضَعَ « الطَّاهِرُ » خُطَّةً مُحْكَمَةً تُفَصِّصُ مِنَ الْمَدْرَسَةِ ، وَتُوفِّرُ لَهُ الْمَالَ لِلْسُّفَرِ إِلَى ثُونِسَ . وَاخْتَارَ الْيَوْمَ الَّذِي يَتَعَدَّى فِيهِ الْمُدِيرُ مَعَ صَدِيقِهِ ، وَيُكْثِرُ مِنْ شَرْبِ السَّخْمَرِ إِلَى دَرَجَةِ الثَّوْمِ فِي الْقِسْمِ فَيَصِيرُ فِي أَعْيُنِ التَّلَامِيذِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ وَأَمَقَّتِهِمْ .

قَالَ « الطَّاهِرُ » لِإِلْدَائِهِ :

- أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ هَذَا الْمُدِيرَ يَضِيعُ عَلَيْنَا وَقَفْنَا وَيَأْتِينَا إِلَى الْقِسْمِ وَهُوَ سَكْرَانٌ . أَلَيْسَ هَذَا إِعْتِدَاءً صَارِخًا عَلَيْنَا ؟

- نَعَمْ ... هُوَ إِخْتِفَارٌ لَنَا .

- فَلِمَ أَذًا لَا تَشْكُوهُ إِلَى رَئِيسِهِ ... إِنَّ لَهُ رَئِيسًا ؟

- نَشْكُوهُ .

- وَكَيْفَ ؟

- نَكْتُبُ رِسَالَةً وَنَبْعَثُهَا إِلَى مُدِيرِ التَّعْلِيمِ . وَاخْتَارَ التَّلَامِيذُ مِنْ بَيْنِهِمْ مَنْ هُوَ أَقْدَرُ عَلَى الْكِتَابَةِ بِالرَّئِيسِيَّةِ وَبَعَثُوا بِالرَّسَالَةِ مِنَ الْغَدِ . وَبَقِيَ « الطَّاهِرُ » يَنْتَظِرُ رَدَّ الْفِعْلِ .

إِنْتَظَرَ أَسْبُوعًا بِكَامِلِهِ ، أَمَكَنَّ لَهُ ، أَثْنَاءَهُ ، تَنْفِيذَ الْجَانِبِ الْآخَرِ مِنْ خُطْبَتِهِ وَهُوَ جَمَعَ الْمَالَ . كَانَ مِنَ الْيَسِيرِ عَلَيْهِ أَنْ يَلْتَحِقَ بَعْدَ الدَّرْسِ « بِالْحَدَاثَةِ » فِي

غَابَةِ الرِّثُونِ ، وَأَنْ يَلْتَقِطَ مَا يَخْلُقُونَهُ ، أَوْ يَجُودُونَ بِهِ عَلَيْهِ مُقَابِلَ إِعَاتِيهِ لَهُمْ .
 وَيَجْمَعُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ مَا يَرْبُو عَنْ السَّيِّئِ فَرْتُكًا . كَانَ يَتَلَمَّسُهَا فِي جَيْبٍ « كَذَرُونِي »
 فِي صُرْفٍ مُحْكَمَةِ الرُّنْطِ ، بَيْنَ دَرَسِ الْحِسَابِ وَالْقِرَاءَةِ . وَكَمْ كَانَ يَلْذُّ لَهُ دَرَسُ
 الْحِسَابِ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ ، وَلَكِنْ حِسَابًا آخَرَ لَمْ يَقْرَأْهُ . فَبَيَّتَمَا هُوَ مُتَسَخِّلٌ بِجَسَدِ
 « الصَّوَارِدِ » إِذْ بِبَابِ الْقِسْمِ يَفْتَحُ وَيَدْخُلُ مِنْهُ رَجُلٌ مَدِيدُ الْقَامَةِ يَلْبَسُ لِبَاسًا
 أَوْرُوبِيًّا ، وَعَلَى رَأْسِهِ قُبَّةٌ ، مَا أَنْ صَافَحَ الْمُدِيرَ حَتَّى وَضَعَهَا عَلَى الْمَكْتَبِ هِيَ وَغَفْظَةٌ
 أُنِيقَةٌ وَأَخْرَجَ مِنْهَا وَرَقَةً وَأَخَذَ يَسْرُدُ أَسْمَاءَ :

- « الطَّاهِر » كَذَا ... عَلِي كَذَا ... السَّخ ... كُلُّ الْأَسْمَاءِ الْمُنْضِيَةِ فِي
 الْعَرَبِيَّةِ . وَخَرَجَ أَصْحَابُ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ مِنَ الْقِسْمِ بِأَمْرِ مِنَ الْمُتَّفَقِدِ فِي
 لَهْجَةٍ ، صَارِمَةٍ وَلَكِنْ قَلْبَ « الطَّاهِر » كَانَ يَطِيرُ قَرَحًا لِأَنَّ سَاعَةَ الْإِعْتِقَالِ
 بِالنَّسَبَةِ إِلَيْهِ تَدْنُو بِسُرْعَةٍ فَائِقَةٍ .

وَبَدَأَ الْاسْتِنْطَاقَ ، غَيْفًا ، مِلْحَاحًا ، مُوجِّهًا إِلَى إِذَائَةِ الثَّلَاثِينَ أَكْثَرَ مِنْهُ إِلَى
 الْبَحْثِ عَنِ الْحَقِيقَةِ . وَأَيُّ حَقِيقَةٍ تَرْجَى مِنْ وَرَاءِ هَؤُلَاءِ الْعَرَبِ الْكَذَّابِينَ الْأَفَّاكِينَ
 فِي نَظَرِ أَسْيَادِ الْبِلَادِ « وَالْحَلَمِينَ » هَا .
 قَالَ « الطَّاهِر » فِي نَفْسِهِ :

- لَوْ تَنَكَّشْتُ الْحَقِيقَةَ لَفَسَدَتِ الْحُطَّةُ وَلَكِنْ أَيْنَ الْإِنْصَافُ عِنْدَ هَؤُلَاءِ ؟ إِنْ
 ظَلَمْتُهُمْ مَعْرُوفٌ وَإِنِّي أَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَبْقُوا فِي ضَلَالِهِمْ وَإِلَّا كَيْفَ الْعَمَلُ
 لِلخُرُوجِ مِنَ الْوَرُطَةِ ؟
 صَاحَ الْمُتَّفَقِدُ فِي « الطَّاهِر » قَائِلًا :

- كَيْفَ تَتَجَرَّأُ وَتَتَّهَمُ مُدِيرَكَ بِالتَّقَاعُسِ وَالْحَالُ أَنَّ الرِّسَالَةَ مَكْتُوبَةٌ بِلُغَةٍ فَرَسِيَّةٍ
 صَحِيحَةٍ . لَوْلَا خِزْمُ الْمُدِيرِ لَمَّا وَصَلْتُمْ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ مِنَ الشَّعْبِيرِ وَبَقِيْتُمْ
 أُمِّيِينَ ، لَا تَعْرِفُونَ إِلَّا « الْهَهَبَةَ » فِي الْكُتَابِ وَمَخَوِ الْأَلْوَابِ فِي الْأَوْسَاحِ ،

وَسَمَ بَعْضِيكُمْ لِفَسَاءِ بَعْضٍ فَوْقَ الْحُصْرِ الْمَلِيَّةِ بِالْبَرَاغِيثِ . أَنْتُمْ لَا تَعْتَرِفُونَ
بِالْجَمِيلِ وَتَنْتَكِرُونَ لِرِسَالَةِ قَرْنَا التَّمَدُّنِيَّةِ . إِنَّكُمْ سَتُطْرَدُونَ .

قَالَ « الطَّاهِر » فِي نَفْسِهِ :

- الْآنَ بَلَغْتُ الْمَقْصُودَ .

وَأَرَدَفَ الْمُتَنَفِّذُ :

- وَلَكِنَّكُمْ سَتُسْجَنُونَ حَتَّى يَكُونَ لَكُمْ السَّجْنُ دَرْسًا فِي حَيَاتِكُمْ فَلَا تُفَكِّرُوا

أَبَدًا فِي الْعِصْيَانِ ، إِنَّ قَرْنًا قَوِيَّةً ...

قَالَ « الطَّاهِر » يَلْهَجَةً حَادَّةً :

- وَلَكِنْ مَاذَا فَعَلْنَا حَتَّى نُسْجَنَ ؟

- وَقَاحَةً . سَتَرَى مَاذَا فَعَلْتَ .

وَعَطَّرَتْ بِبَالِ « الطَّاهِر » صُورَةَ ابْنِ عَمِّهِ ، وَهُوَ يَدْخُلُ ثُونِسَ فِي الْأَغْلَالِ وَقَالَ

فِي نَفْسِهِ :

نَعَمْ كُلُّنَا سَحَقَاءُ ، ضَعْفَاءُ ... نَعَمْ خُلِقْنَا لِتَكُونَ كَذَلِكَ . « الرُّومِي » خَلَقَهُ اللَّهُ

لِيَكُونَ سَيِّدًا وَأَهْلُ ثُونِسَ جَعَلَهُمُ اللَّهُ عَظَمَاءَ أَمَا نَحْنُ فَإِنَّا خُلِقْنَا عِنْدَمَا أُغْلِقَ

« بَابُ الْعَرْشِ » كَمَا تَقُولُ جَدِّي .

وَسَيِّقَ الْجَمَاعَةَ إِلَى الْبُرْجِ وَيَقُوا فِي سَاحَتِهِ يَوْمًا وَلَيْلَةً ثُمَّ أَهْلِي سَيِّلَهُمْ .

* * *

لَمْ يَنْقُ « لِلطَّاهِرِ » إِلَّا أَنْ يَنْقَضَ حُطَّتُهُ وَأَنْ يُعْلِمَ أُمَّهُ بِأَنَّهُ يَسْجُبُ عَلَيْهِ أَنْ يَذْهَبَ

إِلَى ثُونِسَ لِيُشَارِكَ فِي إِمْتِحَانٍ يُنْجِيهِ عِنْدَ الشَّجَاحِ مِنْ « التُّزُولِ » بِالْعَسْكَرِ .

وَالْتُّزُولُ بِالْعَسْكَرِ هُوَ أَعْظَمُ مَا يُصِيبُ أُمًّا فِي وَلَدِهَا . لَيْسَتْ الْأُمّهَاتُ الثُونِسِيَّاتُ

جَمِيعُهُنَّ يُصَبْنَ بِوَدَى الْكَارِثَةِ فِي أَوْلَادِهِنَّ لِأَنَّ كُلَّ مُتَحَصِّلٍ عَلَى الشَّهَادَةِ

الْإِبْتِدَائِيَّةِ هُوَ مُعْفَى مِنَ الْجُنْدِيَّةِ وَكُلُّ الشَّبَابِ الْمَوْلُودِينَ فِي خَمْسٍ مِائَةٍ أَوْ سِتِّ

مِائَةٍ « الْإِيَالَةِ الثُونِسِيَّةِ » لَا يُدْعَوْنَ إِلَى الْعَسْكَرِ : ثُونِسُ الْغَاصِمَةُ ، وَسُوسَةُ ،

وَالْقَيْرُ وَانْ ، وَصَفَاقْسُ ، وَالْمُسْتَنْيرُ .

وَحَوْفُ « الطَّاهِرِ » الْأَكْبَرُ هُوَ أَنْ يَفْطَنَ إِلَى ذَلِكَ وَالِدُهُ لِأَنَّهُ يَعْرِفُ أَنْ لَا نَصِيبَ لِهَذَا الْأَمِيحَانِ مِنَ الصَّحَّةِ وَلَكِنْ نَصِيبٌ حَبْلَتِهِ مِنَ الشَّجَاحِ كَبِيرٌ لِأَنَّ وَالِدَهُ كَبِيرُ التَّرَحُّالِ ، لَا يَسْتَقِرُّ بِالْبَلَدَةِ وَخَاصَّةً فِي مَوَاسِمِ الرُّيْتُونِ .

أَذَارُ مِزْلَاجِ الْبَابِ الصَّغِيرِ فِي الرُّتَاجِ وَدَفْعُ أَلْبَابٍ فَالْتَفَتْ لَهُ فِي صَوْتِ يُشْبِهُ حَوَارِ ثَوْبٍ . نَعْوَةُ « الطَّاهِرِ » بِذَلِكَ وَتَعْوَةُ أَهْلِ الدَّارِ وَاسْتَطَابُوا هَذَا الصَّوْتِ الْمُتَّبِعَةَ الْمُعْرُوضَ لِلطَّرْقِ . وَدَخَلَ فَتَلَقَّاهُ نَهَيْقُ الْحِمَارِ الْمَرْبُوطِ فِي رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْبُهِوِ . فَلَعَنَ الشَّيْطَانُ وَنَهَرَ الْحِمَارَ وَطَطَّرَ مِنَ الْمَرْوَفِ . وَاتَّجَهَ نَحْوَ وَسْطِ الدَّارِ غَيْرِ الْمُبْلَطِ .

وَلَكِنْ أُمُّهُ تَلَقَّتْهُ بِالتَّرَحَابِ وَالزُّغَرْدَةِ بَعْدَ أَنْ عَلِمَتْ بِإِطْلَاقِ سَرَاحِهِ مِنَ السَّجْنِ وَنَسِيَ نَهَيْقُ الْحِمَارِ وَقَبْلَ وَالِدَتِهِ وَعَاقَبَهَا طَوِيلًا .

لَعَلَّهُ الْخَوْفُ مِنَ الْفِرَاقِ وَتَوَقَّى اللَّحْظَةَ الَّتِي سَيَعَاوِرُ فِيهَا بَلَدَتَهُ . وَلَكِنَّهُ لَطَامَا وَجَدَ الدَّهَاءَ عِنْدَ أُمِّهِ وَظَفَرَ بِالطَّمَائِنَةِ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ الَّذِي يُحْبِي لَهُ الْوَيَلَاتِ . كُلُّ شَيْءٍ لَا يَبْعَثُ عَلَى الْارْتِيَاحِ : الْحَيَاةُ فِي الْقَرْيَةِ ، وَالْمَصَائِبُ الْحَافَةُ بِهَا ، وَالْحِكَايَاتُ الْمُخْزِنَةُ الْمُتَلَفِّفَةُ مِنْ أَفْوَاهِ النَّاسِ . كُلُّ هَذَا يُصَوِّرُ لَهُ الْمُسْتَقْبَلَ حَالِكًا كَهَذِهِ الدَّجَاجَةِ السُّودَاءِ الَّتِي تَجْهَدُ فِي أَنْ يَصِلَ مِقْفَارَهَا إِلَى مَا فِي « الْعَجَانِي » مِنْ عَجِينٍ أَعْدَ « لِحْمِي » السُّخَّرِي فِي « الطَّابُوتَةِ » . إِنَّهَا تَبْدُو لَهُ وَكَأَنَّهَا الْغُرَابُ فِي هُجُومِهِ عَلَى الْجِسْمِ الَّذِي فَارَقَتْهُ الرُّوحُ يَنْهَشُهُ نَهْشًا وَيُحِيلُهُ عَظْمًا . لَكَأَنَّهُ الْقَبْرُ يَحْتَضِنُ أَلْسِنَتَ فَيْتَسِيهِ بِأَكْلِ لَحْمِهِ وَيَمِيعُ عَذَابُ الدُّنْيَا وَالْآلَمُ الْجُرُوحِ الَّتِي أَفْخَنْتُ الْجَسَدَ (٩) .

رَأَى الدَّجَاجَةَ السُّودَاءَ مِنْ فَوْقِ كَتِفِ أُمِّهِ ، وَهُوَ يُعَانِقُهَا ، وَأَطَالَ عِنَاقَهَا وَأَحْسَّ بِأَنَّهَا تَبْكِي ، فَوَاجَهَهَا بِالْمُؤَاسَاةِ وَمَسَحَ أَدْمُعَهَا وَقَالَ :

- لَا تُبْكِي يَا أُمِّي ، فَإِنَّ ابْنَكَ مُسْتَعِيدٌ لِيَخُوضَ الْحَيَاةَ شَجَاعًا مِقْدَامًا كَجَدِّهِ
تَسَامًا .

- وَلَكِنَّ الْحَيَاةَ صَعِبَتْ ، وَالْأَخْطَارُ تَعَدَّدَتْ ، وَأَنَا أَخَافُ عَلَيْكَ مِنْ « الرُّومِيِّ »
وَمِنْ « التُّرُوكِ فِي الْعَسْكَرِ » . « الرُّومِيُّ » لَا يَرْحَمُكَ يَا وَلَدِي . يَقُولُونَ إِنَّ فَرَسَنَا
تُجْنَدُ أَوْلَادَ النَّاسِ مِنْ « الثَّوَانِسَةِ » لِتُدْفَعَهُمْ إِلَى الْحَرْبِ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ
لِيُخَصِّدَهُمُ الْمَوْتُ حَصْدًا .

- لَا تَخَافِي يَا أُمِّي فَإِنَّا سَأَذْهَبُ إِلَى ثُونِسَ لِأَجْرِي إِمْتِحَانًا يَقِينِي مِنَ الدُّخُولِ
إِلَى الْجُنْدِيَّةِ .

- إِلَى ثُونِسَ ؟

- نَعَمْ .

- وَمِنْ أَيْنَ نَحْنُ التَّذَكُّرُ ؟

- أَنَا ذَهَبْتُ الْأَمْرَ .

- وَأَبُوكَ ؟

- سَأَرْجِعُ مِنْ ثُونِسَ قَبْلَ مَجِيئِهِ وَهُوَ لَا يَسْأَلُ عَنِّي فِي الْعَاقَةِ . أُسْبُوعٌ وَاحِدٌ
فَقَطْ .

- يَا لَيْتَكُمْ أَهْيَا الْأَوْلَادُ تَبْقَوْنَ صِغَارًا نَحْتَضِيكُمْ نَحْنُ الْأُمَهَاتُ كَالدَّجَاجَةِ
تَحْتَضِيهِ فِرَاحَهَا . وَلَكِنْ مَا لَنَا حِيلَةٌ .

وَأَحَدَتْ أُمُّهُ تَبْكِي وَرَجَعَتْ إِلَى مُعَانِقِهِ بِشِدَّةٍ حَتَّى آلَهُ « الْخَلَالُ » الَّذِي يَشْدُو
« مَلِيحَتَهَا » عَلَى صَدْرِهَا فَتَأَلَّمَ بِلُطْفٍ وَفَهِمَتْ أُمُّهُ ذَلِكَ فَأَطْلَقَتْ سَبِيلَهُ وَأَمْسَكَتْ
بِيَدَيْهِ وَقَرَّبَتْهُ إِلَيْهَا وَأَخَذَتْ تُقَبِّلُهُ بِأَكْيَةِ مِنْ جَدِيدٍ .

لَمْ يَعْذُ « الطَّاهِرُ » يَشْعُرُ بِمَا كَانَ يَشْعُرُ بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ : تَصْنِيمًا عَلَى مُعَاذَرَةٍ
الْقَرِيَةِ وَالْإِنْقَاءِ بِنَفْسِهِ فِي مُعَامَرَةٍ لَا يَعْرِفُ مَالَهُ فِيهَا . فَهَذِهِ أُمُّهُ تُشَدُّهُ إِلَيْهَا ، أَيْ

إِلَى الْفَرِيَّةِ ، وَتُزْعِرُ عَزْمَهُ ، وَتُتْرَكُهُ مُرْتَأً بَيْنَ الْبَقَاءِ وَالرَّجِيلِ . إِنَّهُ يُحِبُّ أُمَّهُ حُبًّا شَدِيدًا وَيَعْمَلُ جَاهِدًا لِلتَّرْوِيحِ عَنْهَا ، وَتَفْرِجُ كُرْبَتَهَا مِنَ الْعَنَتِ الَّتِي يُصِيبُهَا مِنْ دَارِ « الْجَمَاعَةِ » وَتُعْقِدُ الْحَيَاةَ فِيهَا ، وَمِنْ قَسْوَةِ وَالِدِهِ وَغِلْظَتِهِ وَجَبَرُوتِهِ .

وَلَكِنْ مَاذَا يُفِيدُ بَقَاؤُهُ ؟ وَهُوَ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى تَحْوِيلِ مَجْرَى الْأُمُورِ وَإِصْلَاحِ مَا يُصِيبُ أُمَّهُ مِنْ جَوْرِ الْعَائِلَةِ . إِنَّ غَايَةَ مَا يَسْتَطِيعُهُ هُوَ أَنْ يَخَفَّفَ مِنَ الْكَابُوسِ الْجَائِمِ عَلَيْهَا ، وَيُسَرِّيَ عَنْهَا وَيُضْحِكَهَا بِلَطَائِفِهِ الَّتِي يَلْتَقِطُهَا مِنْ هُنَا وَهُنَا ، وَيُثَقِّنَ الْقَوْلَ فِيهَا حَتَّى يَشْعُرَ أَنَّ لَهُ قُدْرَةً عَجِيبَةً عَلَى حَذِّقِ فَنَ الْحِكَايَةِ وَتَثْمِينِهِ .

إِنَّهُ لَا عَالَةَ سَيَعْرُمُ مِنَ النَّظَرِ إِلَى أُمِّهِ وَمِنْ مُنْعَةِ تَوْشِيحِ الْأَخْبَارِ ، وَسَتُمْنَعُ عَلَيْهِ أُمُّهُ بِالْفِرَاقِ . وَالْبُعْدُ وَتَفْقِدُ ذَلِكَ الْخَتَانَ الْغَامِرَ لِقَلْبِهَا عِنْدَ رُؤْيَتِهِ وَالِاسْتِمَاعِ إِلَى حَدِيثِهِ . عَزْلَةٌ وَاحِدَةٌ سَتَنْشَطِرُ كُنُطَتَيْنِ تَتْبَاعِدَانِ وَتَتْبَاعِدَانِ إِلَى حِينٍ أَوْ إِلَى الْأَبَدِ ، فَيَكْتُبُ لَهَا إِمَّا الْإِثْنَامَ مِنْ جَوِيدٍ أَوْ الْفِرَاقَ الدَّائِمَ .

فَلْيَكُنْ إِذَنْ الْإِلْشِيطَارُ . وَصَمَّ عَلَى ذَلِكَ تَصْنِيمًا . وَلَكِنْ قَلْبُهُ بَقِيَ صَامِدًا وَاحْسٌ بِوَقُوتِهِ فِي صَلَابَةِ الْخَبَرِ . وَقَرَّرَ الرَّجِيلَ مَهْمَا كَلَّفَهُ ذَلِكَ مِنْ أَخْطَارِ .

* * *

الْفِطَارُ سَيُفْلِعُ عَلَى السَّاعَةِ الْعَاشِرَةِ صَبَاحًا . وَعَلَى « الطَّاهِرِ » أَنْ يَقْطَعَ مَسَافَةَ اثْنَيْ عَشَرَ كِيلُومِيتْرًا رَاجِعًا . اِلْتَقَى مَعَ ابْنِ عَمِّهِ « عَبْدِ اللَّهِ » فِي الْمَكَانِ الْمُقَرَّرِ قَبْلًا . وَسَارَا مَعًا فِي أَجْوَ السَّحَابَةِ ، وَالشَّمْسُ مَا تَزَالُ نَائِمَةً وَرَاءَ الرِّيَّاتَيْنِ الْمُصْطَلِفَةِ ، الْخَضِرَاءِ ، الدَّاكِنَةِ . وَالْجَوْ فِيهِ نَوْعٌ مِنَ التَّدَى الْعَطِرِ الْمُنْبَعِثِ مِنَ الْحَسَائِشِ . وَكَأَنَّهُ اسْتَعَدَّ لِاسْتِقْبَالِ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ ، وَأَسْرَعَ لِلِازْتِمَاءِ مِنْ لُيُوتِهِ اللَّيْلِ قَبْلَ أَنْ تُبَدِّدَهَا الْحَرَارَةُ .

لَا نَامَةَ فِي الطَّرِيقِ اللَّهُمَّ إِلَّا نُبَاحُ الْكِلَابِ الْبُعِيدَةِ . كِلَابُ الطَّرِيقِ أَعَدَّ لَهَا
 « الطَّاهِرُ » عَصَا غَلِيظَةً وَضَعَهَا عَلَى كَتِفِهِ وَعَلَّقَ فِي طَرَفِهَا قُفَّتَهُ الدَّخِيفَةَ
 الْوُزْنِ : فِيهَا بُرُئْسُ وَفَمِيصٌ وَسِرِّوَالٌ وَجِذَاءٌ وَخُبْرَةٌ « طَابُوتُهُ » وَ « حُكَّةٌ » مِنْ
 الزَّيْتُونِ وَ « بَسِيسَةٌ » أَمَا جَبْتُهُ مِنْ أَلَكْتَانِ الْإِيضِ فَقَدْ لَبَسَهَا بَيْتَهَا وَضَعَ نَحْتَ
 إِبْطِهِ « بَلَعْتُهُ » وَسَارَ حَافِي الْقَدَمَيْنِ .

مَشِيَ مَسَافَةً طَوِيلَةً وَلَمْ يَنْهَسْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا بِكَلِمَةٍ . وَلَكِنْ قَلْبُهُمَا كَانَا فِي
 حَدِيثٍ مُسْتَرْسَلٍ :

- لَوْلَا يَا « طَاهِرُ » لَمَا أَقْدَمْتُ عَلَى الْهُرُوبِ مِنْ حَيَاةِ الذَّلِّ وَالْعُبُودِيَّةِ الَّتِي
 أَحْبَبْتُهَا . إِنَّ عَيْشِي مُفْتَرِنٌ بِالْبُغْلِ وَ « الْكَرْبَةِ » وَلَكِنْ الْبُغْلُ وَ « الْكَرْبَةُ »
 يَجِدَانِ مَكَانًا فِي مَنْزِلِ أَغْهَامِي أَمَا أَنَا أَلَيْتِيْمٌ فَمَكَانِي فِي الْمَقَهَى أَبَيْتُ فِيهِ
 وَأَسْكُنُ وَفِي النَّهَارِ يَنْتَحَصِرُ عَالَمِي فِي الطَّرِيقِ وَغَابَةِ الزَّيْتُونِ وَجَمْعُ « الْحَدَامَةِ » .
 - لَسْتُ أَذْرِي كَيْفَ صَبَرْتُ يَا « عَبْدَ اللَّهِ » عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ . وَالحَالُ أَنْ أُخْلِكَ
 تَسْكُنُ بِتُونِسَ وَطَالَمَا دَعَاكَ زَوْجُهَا لِلْعَمَلِ بِجَانِبِهِ . وَلَكِنَّكَ حَمُولٌ يَا « عَبْدَ اللَّهِ »
 وَتَتَعَلَّلُ دَائِمًا بِأَنَّهُ لَيْسَ لَكَ مَالٌ لِلسَّفَرِ . إِنَّكَ دَائِمًا تَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يَنْفَعُكَ دَفْعًا .
 وَقَدْ وَجَدْتُ لَكَ الْحُلَّ بِبَيْعِ « حَرَامِكَ » وَهُوَ غِطَاؤُكَ الْوَجِيدُ فِي أَشْدَادِ الْبَرَدِ ، وَأَثْنَاءَ
 النَّوْمِ أَوْ الْيَقَظَةِ .

- سَيَفْطَنُ أَغْهَامِي بِهَرَبِي عِنْدَمَا يَرَوْنَ الْبُغْلَ مَرْبُوطًا فِي « الزَّرْبِيَّةِ » وَبِجَانِبِهِ
 « الْكَرْبَةُ » . سَيَقْلِبُونَ الدُّنْيَا بَحْثًا عَنِّي . وَضَحِكَ « عَبْدَ اللَّهِ » مُتَّصِرًا الْحَالَةَ
 الَّتِي سَيَكُونُ عَلَيْهَا أَغْهَامُهُ عِنْدَمَا لَا يَنْظُرُونَ بِهِ . كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ سَيَلْبِسُهُ
 الشَّيْطَانُ وَتَظْهَرُ سَبْحَتُهُ مُضْحِكَةً : هَذَا كَالْقِرْدِ الْمُكْشَرِّ عَنْ أَثْيَابِهِ وَذَلِكَ كَوَجُوهِ
 الْقِطْ أَلْمُتَحَفِّزِ لِلزُّبُوبِ وَالثَّالِثُ كَالْكَلْبِ النَّاسِجِ الْمُسْتَعِيدِ لِلْعَضِّ .

وَأَقَاتَ « الطَّاهِرُ » مِنْ تَهْوِيَمَتِهِ بِضَحْكَةٍ « عَبْدَ اللَّهِ » وَبَسَمَةِ الشَّمْسِ
 الْمُطِيلَةِ مِنْ أَعْلَى الرُّبُوعِ الَّتِي وَصَلَاهَا فِي ذَلِكَ الْخَبَرِ وَقَالَ :

- مَا بَالُكَ تَضْحَكُ ؟ كَأَنَّكَ ذَاهِبٌ إِلَى الْجَنَّةِ أَوْ كَأَنَّكَ أَلَمَيْتَ الَّذِي سَمِعَ بِالْجَنَّةِ
فَضَرَطَ فِي الثَّغْرِ كَمَا يَقُولُ وَالِدِي .

- تَذَكَّرْتُ أَعْمَامِي .

- لَوْ بَكَيتَ عَلَيْهِمْ لَكَانَ أَفْضَلَ .

وَوَرَّاءَتْ لَهَا مِنْ بَعِيدٍ مَحْطَةُ الْقِطَارِ وَلَكِنْ لَنْ يَصِلَا إِلَيْهَا إِلَّا بَعْدَ أَكْثَرِ مِنْ
نِصْفِ سَاعَةٍ .

قَالَ « الطَّاهِرُ » :

- يَا لَتَعْسٍ حَظُّنَا ! لَقَدْ جِئْنَا يَا « عَبْدَ اللَّهِ » فِي زَمَنِ اخْتَلَّتْ فِيهِ الْأُمُورُ
وَأَصْبَحَ الْكِبَارُ عَاجِزِينَ عَنْ تَرْبِيَّتِنَا ، مُتَهَرِّبِينَ مِنَ الْمَسْئُولِيَّةِ . لَسْتُ أَذْرِي مَا
الَّذِي شَغَلَهُمْ عَنَّا . هُمْ ذَاتِيًا فِي ثِقَلٍ لِلْبَحْثِ عَمَّا يُبْسِرُ لَهُمْ أَمْرُهُمْ . كَأَنَّ الدُّنْيَا
تَغَيَّرَتْ . لَقَدْ مَضَى ذَلِكَ الزَّمَانُ الَّذِي حَدَّثَنِي عَنْهُ جَدِّي وَالِدِي .

- الْإِثْنَانِيَّةُ يَا « طَاهِرُ » . لَوْ كَانَ أَبِي حَيًّا لَمَّا وَجَدْتَنِي فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ .
أَعْمَامِي لَا يَرِاقِبُونَ اللَّهَ فِيْ . كَانَ النَّاسُ يَرُدُّعُهُمُ الدِّينُ وَيَخَافُونَ الشُّيُوعَ
وَيُقَدِّرُونَهُمْ وَيَسْتَفْتُونَهُمْ أَمَّا الْآنَ فَإِنَّهُمْ تَرَكُوهُمْ جَانِبًا يَسْمَعُونَهُمْ وَلَا يَأْتِجِرُونَ
بِأَوَامِرِهِمْ .

وَمُضِيًّا فِي مِثْلِ هَذَا الْحَدِيثِ يَبْكِيَانِ زَمَانَهُمَا الْخَائِبَ وَيَتَوَجَّسَّانِ خِيفَةً مِنْ
الْمُعَامَرَةِ الَّتِي يَقُومَانِ بِهَا وَلَيْسَ لَهَا مِنْ مُعَيَّنٍ .

وَصَلَا إِلَى الْمَحْطَةِ وَدَفَعَا ثَمَنَ التَّذَكُّرَتَيْنِ . سِتَّةٌ وَثَلَاثُونَ فَرَلَكَا : قَدْرٌ كَبِيرٌ .
وَلَكِنَّهُمَا لَمْ يَتَرَدَّدا . وَاخْطَطَّا مِنْ يَدِ الْعَوْنِ التَّذَكُّرَتَيْنِ فِي لَهْفَةٍ وَقَفَرًا فِي الْعَرَبِيَّةِ
الْمُخْصَصَةِ لِلرُّكَّابِ . وَبَقِيَا يَنْتَظِرَانِ ، وَالْجَوْ قَدْ مَلَأَ دُخَانًا وَصَرَاحًا يَنْبَغِيَانِ مِنَ
الْقَاطِرَةِ ...

إِنَّهُمَا عَلَى أَحْرَمِ الْجَمْرِ لَا يَنْبَسَانِ بِكَلِمَةٍ وَيَكْتَفِيَانِ بِالنَّظَرِ إِلَى الرُّكَّابِ وَإِلَى
كَرَامِي الْعَرَبَةِ وَحَرَكَةِ النَّاسِ ، وَأَعْوَانِ الشَّرَكَةِ عَلَى الرِّصْفِ .

وَفِي نَظَرِهِ عَابِرٌ إِلَى بَابِ الْعَرَبَةِ لَمَحَ « عَبْدُ اللَّهِ » عَمَهُ مُنْتَصِبًا كَأَنَّهُ عَفْرِيْتُ
خَرَجَ مِنْ تَحْتِ الْقَاطِرَةِ فَصُيِقَ وَلَمْ يَتَرَدَّدْ عَمَهُ فِي أَخْذِ الشَّابِثِينَ مِنْ تَلَابِيهِمَا
وَالْتَزُولِ بِهِمَا إِلَى الرَّصِيفِ مُهْدَدًا مُزِيدًا مُزِيدًا بَعْدَ أَنْ رَمَى مِنَ الثَّانِفَةِ
الْقُفَّتِينَ .

وَلَمْ يَسْعُهُمَا إِلَّا الْامْتِثَالُ ، لِأَنَّهُ هَذَهُمَا بِالشَّرْطَةِ . وَافْتَلَكُ مِنْهُمَا
التَّذَكُّرَيْنِ وَبَاعَهُمَا ثُمَّ ارْتَكَبَهُمَا « كُرُوسَةٌ » وَوَضَعَ بَقِيَّةَ الْمَبْلَغِ ، فِي جَيْبِهِ
عِقَابًا لَّهُمَا .

وَسَارَتْ « الْكُرُوسَةُ » بِسُرْعَةٍ . وَتَذَكَّرَ « الطَّاهِرُ » أَنَّهُ نَسِيَ عَصَاهُ فِي الْقَطَارِ
وَلَمْ يَعْرِفْ لِمَاذَا تَذَكَّرَهَا فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ وَلَكِنَّهُ تَبَيَّنَ أَنَّ رَأْسَ عَمِهِ « عَبْدُ اللَّهِ »
الْجَالِسِ أَمَامَهُ وَالْمُتَحَرِّكِ عَلَى إِيقَاعَاتِ سَيْرِ الْحَقِيلِ جَدِيرٌ بِضَرْبَاتِ مِنْ عَصَاهُ .
وَقَالَ فِي نَفْسِهِ :

- مَا أَقْدَرَهُمْ عَلَى الشَّرِّ ، وَإِذَا بَيَّتَ النَّاسَ . وَمَا أَسْرَعَهُمْ فِي التَّنْفِيذِ ، وَأَعَزَّهُمْ
بِتَحَرُّكَاتِ الْبَشَرِ . لَوْ كُنَّا فِي حَظٍّ لَتَوَاتَوْا فِي مَعْرِفَةِ مَكَانِنَا وَلَمَّا أَتَقَدَّوْنَا . إِنْ وَاحِدًا
مِنْ سُكَّانِ الْبَلَدِ لَمْ يَتَحَرَّكْ عِنْدَمَا سَجَّئَا يَوْمًا وَلَيْلَةً .

ثُمَّ نَظَرَ إِلَى « عَبْدِ اللَّهِ » وَقَالَ فِي نَفْسِهِ :

- طَالِعُهُ نَحْسٌ هَذَا الْمَسْكِينُ ، لَوْ لَمْ أَخْذُهُ مَعِيَ لَكُنْتُ الْآنَ فِي طَرِيقِي إِلَى
تُونِسَ . لَقَدْ رَفَقْتُ بِهِ وَخَسِيتُ حِسَابًا أَصْبَحَ خَاطِئًا . كُنْتُ أَقُولُ فِي نَفْسِي إِنَّهُ
يُبِيدُنِي عِنْدَمَا نَصِلُ إِلَى تُونِسَ لِأَنَّهُ سَيَجِدُ أُمَّتَهُ تَفْتَحُ لَهُ الْبَابَ وَذَرَاعَيْهَا

وَلَيْسَ مِنَ الْمَغْفُولِ أَنْ يَتَخَلَّى عَنِّي «عَبْدُ اللَّهِ» أَمَا الْآنَ فَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ وَخَلِييَ وَإِنِّي مُصَمَّمٌ عَلَى ذَلِكَ . وَلَكِنْ لَيْسَ فِي الْمُسْتَطَاعِ أَنْ أَرْكَبَ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ الْقِطَارَ بَلْ نَصِييِي هُوَ «الْكَرْيَطَةُ» .
وَوَصَلَا الْقَرْيَةَ وَأَخَذَا نَصِييَهُمَا مِنَ التَّوْبِيخِ وَالتَّانِيْبِ وَشَدَّدَتِ الْحِرَاسَةُ عَلَى «عَبْدِ اللَّهِ» .

* * *

بَحَثَ «الطَّاهِرُ» عَنِ «الْكَرْيَطَةِ» الْمُسْتَجِهَةَ إِلَى ثُونَسَ فِي اللَّيْلَةِ الْقَادِمَةِ . فَعَرَفَ صَاحِبَهَا وَأَعْطَاهُ سِتَّةَ فَرْلِكَاتٍ وَهُوَ مِقْدَارُ أَجْرِيهِ وَتَمَنَّى الْأَكْلَاتِ ، وَاسْتَحْلَفَهُ أَنْ لَا يُبَيِّعَ أَمْرَ سَفَرِهِ حَتَّى لَا يُفْسِدَ عَلَيْهِ أَهْلُهُ حُطَّتُهُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ . وَاتَّفَقَ مَعَ «الْكِرَارِطِي» عَلَى أَنْ يَنْتَظِرَهُ فِي مَدْخَلِ الْبَلَدَةِ عَلَى السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ صَبَاحًا . وَاتَّفَقَ مَعَ «عَبْدِ اللَّهِ» عَلَى أَنْ يُعْلِمَ أَهْلَهُ مِنَ الْقَدِّ ، فَوَعَدَهُ بِذَلِكَ وَالتَّائِسُ سَاكِنٌ بِعَيْنَيْهِ لِبَقَائِهِ فِي الْقَرْيَةِ لِأَنَّهُ أُعْجِزٌ مِنْ أَنْ يَتَجَرَّأَ عَلَى تَهْدِي أَهْلَائِهِ . إِلَهُ يَنْتَظِرُ مَنْ يَدْفَعُهُ إِلَى ذَلِكَ . وَلَكِنْ «الطَّاهِرُ» يَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ يَقْتَضِي مِنْهُ أَيَّامًا وَهُوَ لَيْسَ مُسْتَعِدًّا ، فِي هَذِهِ السَّاعَةِ ، إِلَى أَنْ يُؤَخَّرَ مَوْعِدَ رَحِيلِهِ مِنْ أَجْلِ «عَبْدِ اللَّهِ» وَلَكِنَّهُ أَسْرَهَا فِي نَفْسِهِ وَأَصْرًا عَلَى إِنْقَادِ رَفِيقِهِ ، بِحُطَّةٍ يُدْبِرُهَا مِنْ ثُونَسَ .
قَالَ مُودَعًا :

لَا عَلَيْكَ يَا «عَبْدُ اللَّهِ» ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ مُفْرَجُ الْكُرُوبِ .
كَانَ أَلْوَقْتُ إِلَى الْغُرُوبِ . وَالشَّمْسُ تُسْرِعُ إِلَى الْإِخْفَاءِ وَرَأَى الْأَكْمَاتِ الْمُخْضَرَّةَ ، حُمْرَاءَ كَوَاجِحَتِي فَتَاتَ جَمِيلَةً ، غَلَبَهَا الْحَجَلُ ، مُدَوَّرَةٌ ، تَحْفُ بِهَا سَمَاءُ مِنَ السُّحُبِ الصَّفْرَاءِ ، كَقِطْعَةٍ نَفْدِيَّةٍ رُمِيَ بِهَا عَلَى أَرْضٍ أُنْحِثَتْ حَرْنًا وَغَرْقًا .
الشَّمْسُ تَوَدَّعَ الْقَرْيَةَ فِي حَجَلٍ وَاحْتِشَامٍ ، مُعْلِنَةً قُدُومَ غَدٍ شَدِيدِ الْحَرَارَةِ .
وَالنَّاسُ يُسْرِعُونَ ، مُتَعَيْنِينَ ، إِلَى مَنَازِلِهِمْ بِدَوَابِّهِمْ ، وَمَاشِيَتِهِمْ ، وَخَارِيَتِهِمْ ،

وَالْآيَاتِ الْفَلَاحِيَّةِ ، وَتَحَاصِيلِ عَمَلِهِمُ الْيَوْمِيِّ ، مُتَهَيِّئِينَ ، مُسْتَعِدِّينَ لِحُفُوضِ غِيَارِ الْقَدْرِ . فَكَانَ الشَّمْسُ وَالنَّاسُ فِي سَبَاقٍ ، هَذِهِ إِلَى خِذْرِهَا وَأُولَئِكَ إِلَى دُورِهِمْ ، وَهِيَ إِلَى الطَّلُوعِ مِنْ جَبِيدٍ ، مُشْرِقَةً حَارَّةً ، وَهُمْ إِلَى الْخُرُوجِ فِي الْفَجْرِ ، شَيْطِينٍ ، مُقْبِلِينَ عَلَى الْجُهْدِ ، وَالْإِجْهَادِ ، وَالصَّبَابِ الْعَرَقِ .

إِلَّا « الطَّاهِرِ » فَقَدْ وَدَّعَ شَمْسَ الْقَرِيَةِ ، مِنْ دُونِ أَمَلٍ فِي رُؤْيِيهَا مِنَ الْقَدْرِ . إِنَّهُ سَيَعْرِفُ شَمْسًا أُخْرَى ، وَلَا يَذْهَبُ كَيْفَ سَتَكُونُ مُعَامَلَتُهَا لَهُ ، شَمْسًا لَمْ يَنْعَوِّهَا ، وَلَمْ يَأْلَفْ سُلُوكَهَا مَعَهُ . وَالسَّاءُ هَذِهِ الصُّحُوكُ الْمُسْرِقَةُ ، الدَّائِمَةُ الصَّنَاءِ هَلْ سَتَكُونُ سَاءً ثُونَسَ مِثْلَهَا ؟ إِنَّهُ يَشْعُرُ وَكَأَنَهَا تَحْتَظِيئُهُ ، ذَائِقَةً مُنْذُ أَنْ عَرَفَهَا وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ فِيهَا . إِنَّ الدَّقَّةَ الَّتِي يَجِدُهَا عِنْدَمَا تَحْتَظِيئُهُ أَمُهُ هُوَ نَفْسُهُ الَّتِي شَعَرَ بِهَا تَحْتَ سَاءِ الْقَرِيَةِ فِي الصُّحُورِ وَفِي اشْتِدَادِ الْفَجْرِ ، فِي الصَّيْفِ ، وَفِي الشِّتَاءِ . مَنْ سَيَحْتَظِيئُهُ إِذَنْ عِنْدَمَا يَكُونُ فِي ثُونَسَ ؟

وَصَلَ أَمَامَ بَابِ الْمَنْزِلِ ، فَدَقَّقَهُ ، فَصَاتَ ذَلِكَ الصَّوْتُ الْمَأْلُوفَ وَهَبَ الْجَوَارَ فَلَعَنَهُ مِثْلَ الْعَادَةِ وَلَسَعَ . وَالِدَتُهُ تَشِيظُهُ عَلَى غَيْرِ عَادَتِهَا فِي مِثْلِ تِلْكَ السَّاعَةِ . فَتَوَقَّفَ ، وَوَجَّهَ نَظْرَهُ إِلَى الْغُرْفَةِ فَلَمَحَ « بَلَقَةً » أَبِيهِ أَمَامَ الْبَابِ . قَالَ فِي نَفْسِهِ :
- أَبْعَرُهُ تَذُلُّ عَلَى الْبَعِيرِ كَمَا يَقُولُ وَالِدِي . وَأَيُّ بَعِيرٍ هَذَا الَّذِي سَيُفْسِدُ عَلَيَّ خُطَّتِي .

دَخَلَ الْغُرْفَةَ ، فَوَجَدَ وَالِدَهُ جَالِسًا يَنْتَظِرُ طَعَامَ الْعِشَاءِ . فَانْحَنَى عَلَيْهِ ، وَقَبَّلَهُ فِي شُجُوعٍ ، وَاشْتَمَى رَاجِمًا عَلَى أَعْقَابِهِ يُرِيدُ الْإِفْلَاتَ مِنْ سَلَاطَةِ لِسَانِ أَبِيهِ . وَلَكِنَّهُ أَوْقَفَهُ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ :

- أَهْنِ أَنْتَ يَا « بِي » السَّبَابِ .

- إِيَّاهُ هُنَا .

- أَهْلُكَ شَمَمَتْ صُنَانُ إِيَّاطِكَ فَاصْبَحْتَ تَدْخُلُ السُّجُنَ وَتَرْتَكُنِي إِلَى الْهَرُوبِ .

وَذَهِلَتْ وَالِدَتُهُ حِينَئَذٍ بِالطَّعَامِ ، وَقَدْ فَاحَتْ رَائِحَةُ اللَّحْمِ مِنْهُ . فَتَنَشَّقُهَا فِي لَهْفَةٍ وَتَنَشَّقُهَا وَالِدُهُ وَقَالَ :

- عَلَى كُلِّ قَائِنِ الْوَقْتِ لَيْسَ لِلْكَلامِ . فَلَا كَلَامَ عَلَى طَعَامٍ . سَاعِرِفْ كَيْفَ أَرَبَّيْكَ . إِذْهَبِ الْآنَ . وَخَرَجَ الطَّاهِرُ وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ وَالِدَهُ سَيَخْرُجُ إِلَى « الْحَوَانِيتِ » وَسَيَنْتَهِمُكَ فِي الْحَدِيثِ وَإِطَالَةِ لِسَانِهِ عَلَى أَصْدِقَائِهِ وَقَصِّ الثَّوَادِرِ وَالْأَحْبَارِ وَلَعِبِ الْوَرَقِ .

وَعَسَسَ اللَّيْلُ ، وَتَسَدَّدَ الطَّاهِرُ عَلَى فِرَاشِهِ فِي الْغُرْفَةِ الْمُقَابِلَةِ . وَلَكِنْ النُّومُ لَمْ يَدْخُلْ جَفْنَيْهِ ، وَهُوَ فِي هَوَاجِسِهِ وَخَوْفِهِ مِنْ فَسَادِ خُطْبَتِهِ . حَتَّى جَاءَتْ السَّاعَةُ الْوَاحِدَةُ وَذَقَتْ هَذِهِ السَّحَرَةَ بِصَوْتِ الْبَابِ يُفْتَحُ وَلَهُ صَلِيلٌ مُزَعِجٌ فِي اللَّيْلِ ، وَلَكِنْ الْحِمَارُ لَمْ يَنْهَقْ ، فَعَرَفَ « الطَّاهِرُ » بِذَلِكَ أَنَّ وَالِدَهُ هُوَ الدَّاخِلُ لِأَنَّ الْحِمَارَ يَجْثَى سَيْدَهُ وَيَخَافُ صَوْتَهُ الْمُسْجَلَجِلَ ، وَضَرْبَاتِ عَصَاهُ ، فَيَسْكُتُ عِلَامَةً الْاحْتِرَامِ وَالتَّبْجِيلِ . وَإِنَّ وَالِدَهُ هُوَ الْأَمِيرُ وَالثَّاهِي وَلَا مَرَدَّ لِأَحْكَامِهِ فِي السَّنَوِلِ ، وَطَاعَتُهُ وَاجِبَةٌ وَنَافِلَةٌ عَلَى الْكُلِّ ؛ بَشَرًا وَحَيَوَانًا وَمَتَاعًا كَسَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ أَوْ أَكْثَرَ .

وَجَاءَتْ السَّاعَةُ الثَّالِثَةُ بَعْدَ الْبُطْطَارِ طَوِيلٍ . فَقَامَ وَلَيْسَ جُبَّتُهُ ، وَأَخَذَ الْفَقَّةَ ، وَلَسَعَ عَلَى ضَوْءِ الْقَمَرِ عَصَا وَالِدِهِ ، وَقَدْ اسْتَدَّهَا فِي رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الزُّرْبِيَّةِ . وَعَصَا وَالِدِهِ لَيْسَتْ كَالْعَصِي . إِذْ لَهَا ثَلَاثَةُ فُرُوعٍ صَغِيرَةٍ فِي أَسْفَلِهَا تَزِيدُ عَنْ السَّارِبِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ صَالِحَةٌ لِإِطْطَافِ الشَّيْءِ الْهَنْبِيِّ مِنْ « الطَّوَابِي » وَمُسْتَعْمَلَةٌ كَقَرَامِيلِ حِمَارِ الْوَالِدِ وَلَهَا غَضْرُ ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ ، لِأَنَّ هَذِهِ الدَّابَّةَ لَا تَحْتَاجُ إِلَى لُغَةِ الْحَمِيرِ مِنْ « إِر » وَغَيْرِهَا مِنَ الْكَلَامِ الَّذِي أَخْتَى عَلَيْهِ الدَّهْرُ وَأَصْبَحَ عِلَامَةً مِنْ عِلَامَاتِ الْقُرُونِ الْوُسْطَى بَلْ إِنَّ حِمَارَ الْوَالِدِ دَخَلَ عَصْرَ الْأَلَمِ مِنَ الْبَابِ الْكَبِيرِ وَاسْتَفْتَى عَنْ الْكَلَامِ الْمُجِلَّ بِالْكَرَامَةِ فَكَلَّمَهَا كَأَنَّهُ الْفَصَا مَرْكُوزَةً عَلَى الْأَرْضِ بَيْنَ أَرْجُلِ الْحِمَارِ أَعْتَبَرَهَا صَاحِبَتَنَا ، الْحِمَارُ طَبْعًا ،

فَرَامِلٌ وَإِذَا هِيَ رُفِعَتْ إِلَى مُسْتَوَى الْأُذُنِ الْيُمْنَى ، فَذَلِكَ عَلَامَةُ السَّيْرِ ، وَهِيَ نَفْسُهَا
الْمُقَوَّدُ فَإِذَا دَغْدَغَتِ الرَّقَبَةَ مِنَ الْجِهَةِ الْيُمْنَى فَلَا تَعْطَافُ عَلَى الْيَسَارِ وَالْعَكْسُ
بِالْعَكْسِ .

وَفِي هَذِهِ السَّعَةِ فَإِنَّ لَهَا مَارَبًا آخَرَ . فَقَدْ اسْتَعَانَ بِهَا « الطَّاهِر » عَلَى الْقَفْرِ فَوْقَ
الْجِدَارِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَفْضَحَ أَمْرُهُ الْبَابُ . وَلَمَّا أَنْ ابْتَلَعَهُ الطَّرِيقُ ، تَنَفَّسَ « الطَّاهِر »
الصَّعْدَاءَ وَأَيَّقَنَ أَنَّ « بَابَ الْعَرْشِ » فُتِحَ لَهُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَذَلِكَ عَلَى اتِّجَاهٍ وَاحِدٍ هُوَ
اتِّجَاهُ ثُونَسَ .

* * *

بَعْدَ السَّاعَةِ أَوْ يَضَعُ السَّاعَةَ كَانَ « الطَّاهِر » فِي أَعْلَى « الْكَرِيْطَةِ » فَوْقَ
صُنْدُوقَيْنِ مَمْلُؤَيْنِ بَيْضًا يَتَمَازِلُ يَمْتَهُ وَشِمَالًا عَلَى إِقْبَاعِ « الْكَرِيْطَةِ » :
طَقْ ... طَطَقْ .. طَقْ ...

هُوَ فِي أَعْلَى « الْكَرِيْطَةِ » لِأَنَّ عُلُوَّ الصُّنْدُوقَيْنِ يُنَازِلُ السَّيْرَ وَالنَّصْفَ وَهُوَ
مُنْبَطِحٌ وَوَجْهُهُ إِلَى خَشَبِ الصُّنْدُوقَيْنِ ، قَدْ شَدَّ بِحَبْلٍ فِي مُسْتَوَى الْكَتِفَيْنِ ،
وَبَحْبَلٍ آخَرٍ مِنْ مَوْحَرَّتِهِ ، خَوْفًا عَلَيْهِ مِنَ السَّقُوطِ أَثْنَاءَ النَّوْمِ ، خَاصَّةً وَأَنَّ السَّرْحَةَ
تَدُومُ ثَمَانِيَّ سَاعَاتٍ ، مُتَوَالِيَةً ، مِنَ الرَّابِعَةِ لَيْلًا إِلَى مُتَنَصِّفِ النَّهَارِ . ثُمَّ تَكُونُ
فَتْرَةُ الْاسْتِرَاحَةِ وَتَدُومُ أَرْبَعَ سَاعَاتٍ فِيهَا يَرْتَاحُ الْمَرِافِقُونَ « لِلْكَرِيْطَةِ » وَيَأْكُلُونَ
مَرَقَةً « الْبَطَّاطَا » وَذَانِهَا هِيَ الرَّابِجَةُ فِي الْفَنَاقِ ، وَفِيهَا أَيْضًا يَقْدُمُونَ لِلْبُعَالِ
عَلْفَهَا ، وَيَسْقَوْنَهَا النَّهَاءَ ، وَيُرِيحُونَهَا فَتْرَةً مِنَ الزَّمَنِ ، ثُمَّ يَسْتَأْنِفُونَ السَّيْرَ مِنَ
الرَّابِعَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ إِلَى مُتَنَصِّفِ اللَّيْلِ .

وَدَامَتِ الرَّحْلَةُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، وَ« الطَّاهِر » يَفْكُ رِبَاطَهُ فِي كُلِّ مَرَحَلَةٍ مِثْلَ بَغْلٍ
« الْكَرِيْطَةِ » وَيُعَادُ شَدُّهُ عِنْدَ إِنْطِلَاقِ الْقَافِلَةِ . وَالْقَافِلَةُ تُعَدُّ بَيْنَ ثَمَانِي
« كَرَارِطٍ » أَوْ عَشْرِ تَسِيرُ مُجْتَمِعَةً خَوْفًا مِنْ قُطَاعِ الطَّرِيقِ .

لَمْ يَذَرُ كَيْفَ مَضَتْ هَذِهِ الْأَيَّامُ الثَّلَاثَةُ بِلَيْلِيهَا ، وَهُوَ مَشْدُودٌ إِلَى الصَّنَادِيقِ .
 كَمَا شَدَّ الْبُذْلُ إِلَى « الْكَرِيظَةِ » وَلَكِنْ الْبُغْلُ يُجْهِدُ نَفْسَهُ ، وَيُسْرِعُ فِي السَّيْرِ أَمَّا هُوَ
 فَسَاكِنُ الْحَرَكَةِ ، مُحْكَمٌ عَلَيْهِ أَنْ يَبْقَى مَشْلُولَ الْأَعْضَاءِ ، مُحْدَرَهَا ، وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا أَنْ
 يَنْظُرَ بِعَيْنَيْهِ ، وَيَسْمَعَ بِأُذُنَيْهِ وَيَشْمُ بِأَنْفِهِ . لَمْ يَكُنْ قَبْلُ لِيَشْعُرَ بِقِيَمَةِ هَذِهِ الْحَوَاسِ
 أَوْ هُوَ لَمْ يَعْ وَجُودَهَا الْوَعْيُ الصَّحِيحُ . كَانَ كُنْثَلَةً حَيَّةً مُتَمَتِّعَةً بِالصَّحَّةِ ، عَاشَتْ
 فِي مِثْلِ غَفْوَةِ الطَّيْبَةِ لَا تَعْرِفُ التَّفْصِيلَ وَالْأَجْزَاءَ ، بَلْ كَانَ جُمْلَةً تَتَحَرَّكُ ، وَتَحْيَا
 بِكُلِّيَّتِهَا ، مُتَّصِبَةً أَنْصِبَانًا ، إِذَا فَرِحَتْ أَوْ غَضِبَتْ فَيَكُلُّ الْحَوَاسُ ، وَالْكَيَانَ أَجْمَعُ .
 وَإِذَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ فَسَيْلٌ جَارِفٌ لَا يَعْرِفُ التَّوَقُّفَ أَوْ الْاعْتِدَالَ ، وَإِذَا خَافَتْ أَوْ
 تَشَجَّعَتْ فَلَا تَقْيَاذُ إِلَى الْفَنَاءِ بِالْجُبْنِ الْقَاتِلِ أَوْ التَّهَوُّرِ الْمُهْلِكِ .

أَمَّا الْآنَ فَهُوَ عَيْنٌ فَقَطْ وَخَاصَّةٌ إِذَا سَكَنَ اللَّيْلُ وَتَوَحَّلَ الْمُسَافِرُونَ فِي
 الْبَرَارِي ، وَاقْطَعَ هُبُوبُ الرِّيحِ . وَحَتَّى طَفَقَاتِ الْكَرَارِطِ الْمُدَوِيَّةُ صَمَتْ عَنْهَا
 أَذُنُهُ لِزَوَائِبِهَا وَتَغَطَّلَتْ خَاسَةُ الشَّمِّ عِنْدَهُ لِاقْطَاعِ كُلِّ رِيحٍ وَرَاحَةٍ . هُوَ عَيْنٌ
 تَمْسَحُ الطَّرِيقَ وَجَوَابُهُ خَوْفٌ هُجُومِ قَاطِعِي السَّبِيلِ وَهُوَ عَيْنٌ تُعْكَسُ فِيهَا أَشْعَةُ
 الْقَمَرِ أَوْ فَوَائِسُ بَعْضِ السَّيَّارَاتِ الْقَلِيلَةِ وَالْقَلِيلَةِ جِدًّا . وَهُوَ عَيْنٌ تُغْلِقُ نَعْبًا
 مُسْتَسْلِمَةً لِلشَّوْمِ الشَّافِي .

ثُمَّ هُوَ إِذَا تَارَمَتْ الْأَحْوَالُ فِي الطَّرِيقِ يُصْبِحُ أَذْنَا فَقَطْ ، تَسْمَعُ فِي تَضَخُّمِهِ
 صَوْتًا لَا مِثِيلَ لَهُ ، صَرَاحُ « الْجَنْدَرَمَةِ » وَضَرْبُهُمُ بِالسُّوْطِ سَوَاقِ « الْكَرَارِطِ »
 وَهُمْ فِي نَوْبِهِمْ ، وَسَبُّهُمْ لَمْ سَبِّ الْمَجُوسِ بِعِبَارَاتٍ فِيهَا احْتِقَارٌ لِلْعَرَبِ وَجِسْمِهِمْ .
 وَهُوَ أَذُنٌ فَقَطْ تُثْبِتُ إِلَى غِنَاءِ بَعْضِهِمُ الَّذِي يَشُقُّ الْجَوَّ فِي نَعْمَةٍ حَزِينَةٍ ، بَاكِئَةٍ ،
 تَنْقُذُ إِلَى أَغْصَانِ الْأَسْهَاحِ وَتَسْكُنُ فِيهَا حَتَّى عِنْدَمَا يَحْتِمُ الصَّمْتُ مِنْ جَدِيدٍ . وَهُوَ
 أَذُنٌ فَقَطْ ، لَيْسَ لَهُ إِلَّا أَنْ يَطْرُقَ سَمْعُهُ صَرَاحُ السُّوْاقِ وَهُمْ يَحْرُضُونَ بِغَالِمِهِمْ عَلَى
 قَهْطِي الْعَقَبَةِ ، وَمَا أَكْثَرَ الْعَقَبَاتِ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ ، أَوْ يَتَنَادَوْنَ عِنْدَ الْخَطَرِ فِي

لَهْجَةٍ حَدَثٌ تَخَوُّفًا لِمَنْ طَمِعَ فِي أَمْوَالِهِمْ وَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِالْهَجُومِ عَلَيْهِمْ .
ثُمَّ هُوَ مَرَّةٌ أُخْرَى أَلْفٌ فَقَطْ يَتَحَسَّسُ أَجْوَاءَ الطَّبِيعَةِ ، فَيَتَأَذَّى مِنْ رَوَاحِ
السُّبُخَاتِ وَالْمُسْتَنْقَعَاتِ أَوْ يَرْتَاحُ إِلَى تَفْحَاتِ التَّبَسَّاتِينَ أَوْ شَذَى جَسَائِشِ
الطَّبِيعَةِ .

لَمْ يَعْرِفْ كَيْفَ مَضَتْ هَذِهِ الْأَيَّامُ الثَّلَاثَةُ إِلَّا عِنْدَمَا أَشْرَفَ ، مِنْ بَعِيدٍ عَلَى رَبْوَةٍ
مُخْضَرَةٍ ، تَعْلُوهَا بِنَايَةٌ بَيْضَاءُ . قَالُوا لَهُ : إِنَّهُ ضَرِيعُ سَيِّدِي « بِلَحْسَنِ الشَّاذِلِي » .
وَتَوَقَّفَتْ الْقَافِلَةُ وَأُنْزِلَ « الطَّاهِر » مِنْ « الْكَرِيظَةِ » وَعَرَفَ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَسِيرَ
عَلَى الْقَدَمَتَيْنِ لِأَنَّهُ تَمَنَّوْعُ رُكُوبٍ « الْكَرِيظَةُ » دَاخِلُ ثُونَسَ .

نَظَرَ إِلَى هَيْئَتِهِ ، فَوَجَدَ الْجُبَّةَ سَوْدَاءَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ بَيْضَاءَ ، فَأَحْسَ بِالْقَرَبِ وَأَبَى
أَنْ يَدْخُلَ ثُونَسَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ . فَاحْتَضَفَ قَفْنَهُ مِنْ عَلَى الْعَرَبَةِ وَسَارَ حُطْرَتَيْنِ وَإِذَا
بِسَائِقِ الْعَرَبَةِ يَصِيحُ بِهِ :

- إِلَى أَيْنَ ؟ إِنَّكَ لَا تَعْرِفُ الطَّرِيقَ ؟

- لَا إِلَهِي أُرِيدُ أَنْ أَبْدِلَ هَذِهِ الْأَوْسَاحَ .

- وَوَجْهُكَ هَلْ يُسَكِّنُ لَكَ أَنْ تُبْدِلَهُ ، إِنَّهُ أَصْبَحَ أَسْوَدَ مَخِيضًا ؟ الطَّرِيقُ لَا يَخْتَلِبُهَا
إِلَّا الرِّجَالُ الْقُحُولُ الصَّنَادِيدُ .

وَحَزَتْ فِي نَفْسِهِ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ وَلَمْ يَذَرْ مَا يُجِيبُ بِهِ هَذَا الْجِلْفَ الَّذِي أَصْبَحَ
قِطْعَةً مِنْ « الْكَرِيظَةِ » وَبَظْهَاهَا : صَلَابةٌ فِي السَّحْتَةِ ، وَقَسَوَةٌ فِي الْقَلْبِ ، وَسَلَاطَةٌ
فِي اللِّسَانِ كَالسُّوْطِ الَّذِي فِي يَدِهِ . بِمَاذَا يُجِيبُ وَهُوَ الَّذِي تَعَطَّلَتِ الْكَلِمَاتُ فِي فَمِهِ
طِيلَةً ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ . فَسَكَتَ عَلَى مَضَضٍ وَالتَّحَى لِحَايَةً وَرَاءَ شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ ، وَلَبَسَ
قَمِيصًا وَسِرْوَالًا وَهَرَوَلَ حَتَّى لَحِقَ بِالْقَافِلَةِ .

وَدَخَلَ « بَابَ عَلَيْهِوَه » وَارْتَاحَ إِلَى الْحَرَكَةِ الْمَوْجُودَةِ بِالشُّوَارِعِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى
« فُنْدُقِ بَابِ الْجَزِيرَةِ » الْمُحْصَصِ لِلْقَوَائِلِ الْآتِيَةِ مِنَ السَّاحِلِ .

كَانَتِ السَّاعَةُ الْوَاحِدَةُ بَعْدَ الظُّهْرِ أَحْسَنَ فِيهَا بِالْجُوعِ يَأْكُلُ أَشْنَاءَهُ ، وَيَالْخَدِرَ
يَسْكُنُ مَفَاصِلَهُ . فَهُوَ فِي حَاجَةٍ إِلَى أَنْ يُرْكَضَ أَسْنَانُهُ وَرِجْلَيْهِ . فَسَأَلَ عَنْ مَدْرَسَةِ
« سَيِّدِي الْعَجَبِيِّ » بِنَهْجِ « الرُّكَاجِ » حَيْثُ يَسْكُنُ ابْنُ عَمِّهِ الشَّيْخُ « حَسَنُ »
فَوَجَدَ صُدُقَةً مِنَ الْمُسَافِرِينَ مَنْ هُوَ فِي حَاجَةٍ إِلَى قَرِيبِهِ . فَتَرَأَفًا وَفِي الطَّرِيقِ
أَكَلَ صَحْفَةً « شَمِئَكَةً » بِأَرْبَعَةٍ « صَوْرِدِي » هُوَ وَرَفِيقُهُ .

دَخَلَ الْمَدْرَسَةَ وَانْجَحَّهَا إِلَى غُرْفَةِ الشَّيْخِ « حَسَنُ » وَدَفَعَ الْبَابَ فَوَجَدَ الْمَكَانَ
خَالِيًا ، سَاكِئًا إِلَّا مِنْ حَرَكَةِ آتِيَةٍ مِنَ السُّقْفِ . وَنَظَرًا ، فَوَجَدَ الشَّيْخَ حَسَنَ عَلَى
« سِدِّي » عَالِيَةٍ يَنْظُرُ فِي بَعْضِ الْأَوْرَاقِ الصُّفْرَاءِ عَلَى نُورِ ضَمِيلٍ آتٍ مِنْ كُوَّةٍ
وَرَاءَهُ .

- خُذَا مَكَائِكُمَا ، عَلَى سَلَامَتِكُمَا ، كَيْفَ حَالُ الْبَلَدِ .
- بِخَيْرٍ .

قَالَ مُرَافِقُ « الطَّاهِرِ » :

- هَذِهِ رِسَالَةٌ مِنْ أَجِيكَ ، فِيهَا بَعْضُ الْمَوْثُوتِ ، وَإِنِّي أَبْقِيكَ بِخَيْرٍ لِأَنَّ لِي
بَعْضَ الْمَهَارِبِ .

وَتَأَوَّلَ الرِّسَالَةَ « الطَّاهِرُ » لِيُسَلِّمَهَا إِلَى الشَّيْخِ « حَسَنُ » الَّذِي لَمْ يَتَحَرَّكَ مِنْ
مَكَانِهِ وَخَرَجَ مُسَلِّمًا .

كَانَ عَلَى يَنْظَرٍ إِلَى الْغُرْفَةِ وَيُسَائِلُ نَفْسَهُ كَيْفَ أَمَكُنَ لِابْنِ عَمِّهِ الصُّعُودَ إِلَى
هَذِهِ « السُّلَّةِ » وَلَيْسَ فِي الْمَكَانِ سُلْمٌ وَلَا مَا يُشَبِّهُهُ .
وَقَالَ فِي نَفْسِهِ :

- صَحِيحٌ ، إِنَّ ابْنَ عَمِّي فِي هَذَا وَضَالَةٍ جِسْمِهِ شَبِيهِ بِالْقُرْدِ ، وَهُوَ فِي الْبَلَدِ قَادِرٌ
عَلَى أَنْ يَنْفِزَ فَوْقَ « طَابِيَةِ هِنْدِي » عَالِيَةٍ .

وَمَا أَنْ خَطَرَتْ بِبَالِهِ هَذِهِ الْخَاطِرَةُ حَتَّى وَجَدَ الشَّيْخَ « حَسَنُ » بِجَانِبِهِ يُسَلِّمُ

عَلَيْهِ . لَمْ يَعْرِفْ كَيْفَ امْكَنْ لَهُ أَنْ يَقْفِزَ إِلَى الْأَرْضِ مُسْتَعِينًا بِمُتَكَا « الْبَنكِ » .
قَالَ الشَّيْخُ « حَسَن » :

- عَلَى سَلَامَتِكَ يَا ابْنَ عَمِّي ، إِنِّي هُنَا مَا تَشَاءُ ، الْغُرْفَةُ لِلْأَوْلَادِ « الْبِلَادِ » مَا
امْكَنْ لَهَا أَنْ تَضُمَّ مِنَ الْأَشْخَاصِ . أَمَا « السَّنَةُ » فَهِيَ لِي . وَدَبَّرَ رَأْسُكَ كَيْفَ
تَحْدُ مَكَانًا هُنَا . وَنَظَرَ إِلَى ابْنِ عَمِّهِ فَوَجَدَهُ لَا يَسَا عَمَامَةً بَيْضَاءَ ، عَلَامَةً
التَّحْصِيلِ فِي جَامِعِ الرُّثُوثَةِ وَعَلَى عَيْنَيْهِ نَظَارَاتُ طَوْقَهَا مِنْ سِلْكٍ رَقِيقٍ جَدًّا
وَلَمْ يَذَرِ لِمَاذَا دَفَعَهُ إِلَى الضَّحْكِ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ .
لَبَسَ الشَّيْخُ « حَسَن » جُبَّتَهُ وَبَلَغَتْهُ وَقَالَ لِلطَّاهِرِ :

- إِنِّي هُنَا إِنِّي سَأَذْهَبُ إِلَى قَضَاءِ بَعْضِ الشُّؤُونِ وَسَأَجِي بَعْدَ سَاعَةٍ .
لَمْ يَمَّاكَ « الطَّاهِرُ » مِنْ أَنْ يُبْدِيَ فِي سِرِّهِ اسْتِغْرَابَهُ لِمَا وَجَدَهُ فِي ابْنِ عَمِّهِ مِنْ
تَصْنَعٍ فِي الْحَرَكَاتِ وَالْكَلَامِ وَالْهَيْئَةِ بَعْدَ غَيْبَةِ طَوِيلَةٍ عَنِ الْقَرْيَةِ .
لَمْ يَعُدْ يَقِفُ الشَّيْخُ « حَسَن » وَفَقَّةً طَبِيعِيَّةً مِثْلَ جَمِيعِ النَّاسِ ، لِأَنَّهُ بَقِيَ
سَنَوَاتٍ وَسَنَوَاتٍ يَعْتَرِفُ مِنْ عِلْمِ الْمَشَائِخِ الذَّائِعِي الصَّبِ ، فَرَأْسُهُ الْخَامِلُ
لِعَنَانَةٍ لَفَتْ دَائِمًا عَلَى عَجَلٍ ، لَمْ يَعُدْ ، بِمَا اخْتَوَى عَلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَةِ الْأَوَائِلِ وَالْآخِرِ ،
قَادِرًا عَلَى الْاسْتِوَاءِ بَيْنَ كِتْفَيْهِ بَلْ يَمِيلُ بِهِ شَيْئًا مَا نَحْوَ الْيَسَارِ ، فَيَسْجُهُ ذَقْنُهُ إِلَى
الْيَمِينِ وَتَرْتَفِعُ كِتْفُهُ الْيُمْنَى وَتَرْتَفِي يَدُهُ الْيُسْرَى لِتَلْتَقِيَ عَلَى حُطٍّ وَاجِدٍ مَعَ الْأَصْبَعِ
الْكَبِيرَةِ لِجِلْهِ الْيُسْرَى . فَكَانَ مَرَكَزَ ثِقَلِ الْأَرْضِ تَحْوُلَ عِنْدَهُ ، إِلَى ثِقَلِ أُخْرَى
لَقَدْ آتَى عَلَى نَفْسِهِ أَلَا يُجَابَةُ بِرَأْيٍ إِلَّا رَفَضَهُ أَوَّلًا وَآخِرًا ، لِأَنَّهُ كُلُّ مَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
مَقْلُوبٌ فَقَلْبُهُ الْمَقْلُوبُ هُوَ الصَّوَابُ . وَلِهَذَا فَهَيْئَتُهُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ تَسْفِيهَا لِلْسَّنَةِ
الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي رَضِيَ بِهَا النَّاسُ جَمِيعًا .

أَمَا إِذَا تَكَلَّمَ فَلَا تَنْحَسْ عَنْ شَيْءٍ بِهِ لِأَنَّهُ ارْتَضَى أَنْ يَأْخُذَ مِنَ الدَّيْكِ
« سَرْدَكْتَهُ » وَمَدَّ عُنُقَهُ وَهَزَّ جَنَاحَيْهِ . وَلَا يَذْهَبَنَّ بِكَ الظَّنُّ أَنَّهُ سَيُغَيِّرُ مِنْ هَيْئَتِهِ

وَيَرْجِعَ إِلَى مَرْكَزِ الثَّقَلِ الْعَادِيِّ بَلْ هُوَ سَيَتَحَرَّكُ بِحَسَبِ الْخُطُوطِ الْمَرْسُومَةِ لَهُ ،
فَيُؤَدِّنُ مَا شَاءَ لَهُ أَنْ يُؤَدِّنَ ، وَيَسْمُدُ « عُنْكَوْشَهُ » فِي الْأَتْحَاجِ الْمُعِينِ ، وَيَهْرُ كَيْفِيهِ
بِحَسَبِ إِبْقَاعَاتِ الْكَلَامِ الْمُتَحَذِّقِ ، الْمُتَفَيِّقِ . وَعِنْدَمَا يَنْتَهِي فَإِنَّهُ لَا
يَسْعَكَ إِلَّا أَنْ تَفْتِنَعَ بِرَأْيِهِ لِأَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا اهْتَزَّتْ لِحُجُجِهِ ، وَأَوَّلِيهِ ، فَمَا بِالْكَ لَا
تَهْتَزُّ وَلَا تَرْضَى ، وَجَوْلَةٌ أُخْرَى مِنْهُ كَفِيلَةٌ بِأَنْ تُبْعَثَ الدُّوَارُ فِي رَأْسِكَ وَتَذْفَعَكَ إِلَى
الْإِسْتِسْلَامِ وَإِلْقَاءِ السَّلَاحِ .

* * *

لَا شَيْءَ يَسْتَحِقُّ الذِّكْرَ فِي حَيَاتِهِ « الطَّاهِر » مُدَّةُ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ قَضَاهَا يَتَنَزَّلُ
رِحَابِ جَامِعِ الزِّيُوتَةِ ، يَتَنَقَّلُ مِنْ حَلَقَةٍ إِلَى حَلَقَةٍ يَتَعَرَّفُ إِلَى دَقَائِقِ التَّعْلِيمِ
وَلَوَائِدِ الْمَشَاطِيرِ وَالثَّلَامِيلِ ، وَلَكِنَّ الْحَيَاةَ فِي غُرْفَةِ الشَّيْخِ « حَسَن » ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ فِي
وَكَالَةِ « الثَّوْبَةِ بِالسَّكَّاجِينَ » فِيهَا مَا صَرَفَ « الطَّاهِر » إِلَى الْعُرُوفِ عَنْ هَذِهِ
التَّجْرِبَةِ الَّتِي اعْتَقَدَ أَنَّهَا لَا تُثْمِرُ شَيْئًا .

هِيَ لَمْ تُثْمِرْ شَيْئًا لَا مَحَالَةَ ، وَلَكِنَّهُ لَأَقَى فِيهَا مِنَ الذَّلِّ ، وَالسَّهَابَةِ ، وَضَيْقِ
الْعَيْشِ مَا جَعَلَهُ يُفَكِّرُ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً فِي الرُّجُوعِ إِلَى قَرْيَتِهِ ، وَلَكِنَّ حَوْفَهُ مِنْ
ضَحِكِ النَّاسِ هُنَاكَ أَبْعَدَ عَنْهُ هَذِهِ الْفِكْرَةَ . وَبَلَّغَتْ بِهِ الدَّلَّةُ أَنَّهُ وَقَفَ ذَاتَ مَرَّةٍ
بِبَابِ الْبَحْرِ يَنْظُرُ إِلَى الرِّجَاءِ عِنْدَ الْأُورُبِّيِّينَ وَإِذَا بِهِ يُحْسِبُ بِبَلَدٍ عَلَى سَاقِهِ ، فَالْتَفَتَ
فَوَجَدَ كَلْبًا لِمَرْأَةٍ أُرُوبِيَّةٍ يَتَبَوَّلُ عَلَيْهِ فَنَهَرَهُ عَلَى تَبَرَّاتِ ضَحِكَاتِ الْمَرْأَةِ السَّخِيرةِ ،
وَاسْتَاءَ لِذَلِكَ كَثِيرًا وَحَكَى الْحَادِثَةَ إِلَى الشَّيْخِ « حَسَن » فَقَالَ لَهُ : أَبْشِرْ ، فَإِنَّكَ
مُفْلِحٌ عَلَى خَيْرٍ كَثِيرٍ وَمَا بَعْدَ هَذِهِ الْمَذَلَّةِ مِنْ مَذَلَّةٍ . إِشْتَدَّتْ أُرْمَةُ تَنْفَرِجِي .

فَقَرَّرَ وَحْدَهُ وَيُدُونُ آيَةَ اسْتِشَارَةٍ ، مِثْلَمَا دَابَّ عَلَى ذَلِكَ مُنْذُ سَنَوَاتٍ أَنْ يَشُقَّ
دَرْبَ الْحَيَاةِ ، وَيَكْمِيبَ قُوَّتُهُ بِصُورَةٍ أُخْرَى وَلَا يَبْقَى عَالَةً عَلَى أُمِّهِ بِمَا تُرْسِلُهُ إِلَيْهِ
مِنْ مَوَاقِعَ وَصَبَابَةِ مَالِهِ .



الشيخ

أبي محمد

شِرْكَةُ « التَّارَمَاي » تَقْبَلُ مَنْ فِي سِتِّهِ وَبِسُهُولَةٍ وَلَكِنْ بِشَرْطِ دَفْعِ الثَّمَنِ أَيْ
الرَّشْوَةِ . وَهَذَا نَصَحَهُ بِهِ أَحَدُ أَصْدِقَائِهِ ، وَعَرَفَهُ بِالْمُسْمَى يُوسُفَ ، كَاتِبَ السِّتْفَقْدِ
الْفِرْثِيِّ . وَالثَّمَنُ لَيْسَ بِأَيْضًا : ثَلَاثَةُ « سَرَاك » صِغَارٍ وَرُبْعُ مِائَةِ مِنَ الْبَيْضِ .
وَلَكِنْ مِنْ أَيْنَ لَهُ أَنْ يَأْتِيَ بِخُمْسَةِ فَرَلِكَاتٍ ؟ أَخَذَ يَسْتَعْرِضُ فِي ذِهْنِهِ أَقْرَبَاءَهُ
وَأَصْدِقَاءَهُ الْقَادِرِينَ عَلَى إِعَارَتِهِ هَذَا الْمُبْلَغِ . وَاهْتَدَى إِلَى ابْنِ عَمٍّ آخَرَ لَهُ يُدْعَى
« مُحَمَّد » يَغْمَلُ بِالْبَرِيدِ . فَذَهَبَ تَوًّا إِلَيْهِ ، وَشَرَحَ لَهُ الْمَوْضُوعَ فَقَالَ لَهُ :

- أَمْهَلْنِي ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَفِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ إِيْتِنِي إِلَى هُنَا سَتَجِدُ الْمُبْلَغَ .

- بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ يَا ابْنَ عَمِّي وَكَثُرَ مِنْ أَمْثَالِكَ .

فَنَظَرَ إِلَيْهِ « مُحَمَّد » نَظْرَةً اسْتَعْرَبَهَا « الطَّاهِر » وَلَمْ يَفْهَمْ مَعْنَاهَا .

وَفِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ كَانَ وَالِدُ « الطَّاهِر » فِي الصُّبْحِ الْبَاكِرِ يَطْرُقُ غُرْفَةَ ابْنِهِ ،
وَيَصْبِيحُ بِهِ أَنْ افْتَحَ . فَقَامَ « الطَّاهِر » مِنْ فِرَاشِهِ هَلِجَ الْفُؤَادِ وَكَأَنَّهُ فِي حُلُمٍ وَفَتَحَ
الْبَابَ فَوَجَدَ أَبَاهُ بِقَامَتِهِ الطَّوِيلَةِ ، مُنْتَصِبًا أَمَامَهُ وَصَوْتُهُ يَجْلُجِلُ قَانِلًا :

- ثَرِيدُ أَنْ تَدْخُلَ مَدْرَسَةَ الْفَسَادِ ، مَا شَاءَ اللَّهُ ، يَا تَبَارَكَ اللَّهُ ، شِرْكَةُ التَّارَمَايِ
وَأَعْوَانُهَا . لَمْ يَبْقَ لَكَ إِلَّا أَنْ تُكْرَعَ مِنْ عَلَيْهِمْ .

- وَمَنْ أَعْلَمَكَ بِهَذَا ؟

قَالَ ذَلِكَ « الطَّاهِر » فِي وَجَلٍ كَبِيرٍ .

- مَنْ أَعْلَمَنِي ابْنُ عَمِّكَ « مُحَمَّد » ، أَرْسَلَ إِلَيَّ بَرْقِيَّةً يَسْتَشِيرُنِي فِي ذَلِكَ ، ابْنُ
عَمِّكَ يَسْتَشِيرُنِي وَأَنْتَ تَفْعَلُ مَا ثَرِيدُ . مِنْ الْآنَ فَصَاعِدًا لَا أَسْمَحُ لَكَ بِأَنْ تَتَحَرَّكَ
يَدُوكَ إِذْنِي ، تَرَكْتُكَ فِي السَّعَةِ الْأُولَى لِإِثْمِي قُلْتُ فِي نَفْسِي : يَرِيدُ أَنْ يُوَاصِلَ
تَعْلَمُهُ ، لَا بَأْسَ . أَمَّا الْآنَ فَقَدْ قَاضَى الْكَأْسُ . ابْنُ فِي الْوَكَالَةِ فِي هَذَا الْيَوْمِ ، لَا
تُقَارِفُهَا سَاتِيكَ بَعْدَ حِينٍ .

وَحَرَجَ يَلْقُفُ « حَرَامَهُ » (أَيْ عِبَائَتَهُ) وَيُسَوِّي « زَمَالَةً » شَاشِيَّتِهِ وَيَتَعَشَّرُ فِي
بَلْعَتِهِ .

لَمْ تَمْنُضْ بِضَعُ سَاعَاتٍ حَتَّى رَجَعَ وَالِدُ « الطَّاهِرِ » وَيَدِينُهُ صُرَّةً فَتَحَهَا وَأَخْرَجَ مِنْهَا جَبَّةً زُرْقَاءَ ، وَقَمِيصًا بِرَقَبَةٍ قَصِيرَةٍ وَ « سَدْرِيَّةً » وَ « فُرْمَلَةً » كَثَانًا وَبَلْغَمَةً وَشَاشِيَّةً وَزِمَالَةً (عِمَامَةً) وَأَمَرَ ابْنَهُ بِإِيَّاسِهَا حَالًا رِيْشًا يَشْرَبُ قَهْوَةً بِالْمَقْهَى الْمُجَاوِرِ وَقَالَ لَهُ وَهُوَ مُتَّجِهٌ إِلَى الْبَابِ :

- كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَمْسُدَكَ بِتِلْكَ الْعَصَا . وَنَظَرَ إِلَى عَصَاهُ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْهُ « الطَّاهِرُ » مِنْذُ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ عِنْدَمَا غَادَرَ الْقَرْيَةَ وَقَدْ اخْتَفِظَ بِهَا لَيْسَ يَذَرِي لِمَاذَا ؟ .

وَجَدَ « الطَّاهِرُ » نَفْسَهُ أَمَامَ هَذِهِ الشَّيَابِ الْجَدِيدَةِ ، وَالْمَدَمَشِ لِسَحَاءٍ وَالِإِدِي ، وَلَا حَظَّ أَنْ السَّرَّ وَالْغَيْرُ مُوجِدٌ وَلَكِنَّهُ تَذَكَّرَ أَنَّ أَهْلَ بَلَدَتِهِ لَمْ يَعْرِفُوا بَعْدَ السَّرَاوِيلِ ، وَقَرَّرَ أَنْ يَلْبَسَ بَنْطَلُونَهُ وَيَطْوِيَهُ إِلَى فَوْقٍ فَلَا يَظْهَرُ مِنْ تَحْتِ الْجُبَّةِ .

وَسَرَّ لِامْتِحَانَةِ بَهْدِ الْهِنْدَامِ الْجَدِيدِ ، عِنْدَمَا سَوَّى فِي آخِرِ الْأَمْرِ الشَّاشِيَّةَ بِمَعَ الْعِمَامَةِ ، وَلَكِنَّهُ بَقِيَ مَشْغُولَ الْبَالِ بِقَصْدِ الْإِدِي ، مِنْ كُلِّ هَذَا السَّخَاءِ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْهُ مِنْهُ مِنْ قَبْلُ .

غَيْرَ أَنَّ وَالِدَهُ لَمْ يُسْهِلْهُ كَثِيرًا ، فَقَدْ نَادَاهُ مِنْ بَعِيدٍ فَمَا كَانَ مِنْ « الطَّاهِرِ » إِلَّا أَنْ أَغْلَقَ بَابَ غُرْفَتِهِ وَسَارَعَ إِلَى الْبَابِ الْخَارِجِيِّ مِنْ « الْوَكَالَةِ » فَوَجَدَ أَبَاهُ مَعَ ثَقَرَيْنِ يَعْرِفُهُمَا مِنْ قَدِيمٍ فَحَيَّاهُمَا وَبَادَرَهُ وَالِدُهُ قَائِلًا :

- الْآنَ سَتَذْهَبُ إِلَى « بَارْدُو » لِتَتَقَدَّى عِنْدَ الْقَرِيكِ (جِرَال) مُصْطَلَفِي وَهُوَ صَدِيقٌ لِي يُرِيدُ أَنْ يَعْرِفَكَ وَيَتَحَاوَرَ مَعَكَ وَيَتَبَيَّنَ دَرَجَةَ عِلْمِكَ .

قَالَ الطَّاهِرُ فِي نَفْسِهِ :

- هُوَ امْتِحَانٌ أَمْ عَدَاءٌ ؟ .

وَلَكِنَّهُ بَاسَرَّ وَالِدَهُ قَائِلًا :

- دَرَجَةُ عِلْمِي ظَاهِرَةٌ عَلَى وَجْهِِي وَبَيِّنَةٌ مِنْ ثِيَابِي وَعِمَامَتِي .

وَكَانَ ثَفَافَةً مِنَ الْغُرُورِ أَلَمْتُ بِالطَّاهِرِ ، وَقَارَنَ بَيْنَ لِبَاسِهِ هُوَ وَلِبَاسِ وَالِدِهِ ،
وَرَفِيقِيهِ ، هُوَ بِجَبَّتِي وَكُلُّ مَا يَتَأَثَّرُ مَعَهَا مِنْ تَوَاجِعِ وَالِدِهِ بِقِيَصِيهِ (سُوْرَةُ
مُدُوْرَةُ) بِذُوْنِ يَاقَةِ وَالْمُسْتَرْسِلِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ « وَبِحَرَامِيهِ » (عِبَادَتِيهِ) وَبَلَفَّتِيهِ ،
وَشَاشِيَتِيهِ « السَّرْمَلَةِ » بِعَامَةِ « تَبْرُوْرِي » (قَهَاشُ مُحِبِّ) وَهُوَ لِبَاسُ الْعَامَةِ .

وَصَلَّأَ إِلَى « بَابِ سُوَيْقَةِ » وَهِيَ تَعِجُ بِالنَّاسِ وَبَطَحَاطُهَا تَسُوجُ بِالْعَرَبَاتِ
(الْكَرَارِسِ) وَبِالْبَرَاوِطِيَةِ الَّذِينَ يَتَفَنُّوْنَ فِي وَصْفِ سِلَاحِهِمْ مِنْ بَطَاطَا وَطَهَاطِمِ ،
وَرُمَانٍ ، وَدَفْلَةٍ وَمَادِلِيْنَةٍ وَقَسْطَلٍ وَمَسُوْرٍ وَ « الشَّيْثَانَةِ » يَهْدُوْنَ وَيَبْرُحُوْنَ
وَالْتَرَامُوَايَ يَكْزُ بِصَوْتِهِ الْمَالُوفِ ، وَالنَّاسُ يَتَسَاقَطُوْنَ عَلَيْهِ كَالذُّبَابِ الْخَافِلِ قُرْبَ
عَرَاجِيْنِ « الدَّفْلَةِ » الْمُسَلَّقَةِ فِي وَاجِهَاتِ ذَكَائِيْنِ الْغِلَالِ ، أَوْ الْأَصِقِ بِطَوَاقٍ
اللَّحْمِ السَّرْمَلَةِ لِحَوَائِثِ الْجَزَارِيْنِ .

إِنْدَفَعَ الْجَمَاعَةُ نَحْرَ « التَّرَامُوَايَ » الذَّاهِبِ إِلَى « بَارْدُو » وَصَعِدُوا إِلَيْهِ بِصُعُوْبَةٍ ،
وَحَاقُوا إِيجَادَ مَكَانٍ لِلْجُلُوسِ فَلَمْ يَقْدِرُوا ، وَلَمَعَ وَالِدُ « الطَّاهِرِ » فِي أَفْصَى الْعَرَبَةِ
مَقْعَدًا ، فَاتَّجَهَ إِلَيْهِ يَدْفَعُ النَّاسَ دَفْعًا . وَصَلَ أَخِيرًا إِلَى الْمَكَانِ الشَّاهِرِ الْمُخْصَصِ
لِلزَّائِكِيْنِ . وَلَكِنْ إِمْرَأَةٌ بِدِيْنَةٍ ، مُلْتَحِفَةٌ أَخَذَتْ مِنْهُ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ الْمِسَاحَةِ . قَالَ
هَآ وَالدُّ « الطَّاهِرِ » :

- إِنْسَحِي لِي مَكَانًا أَتِيْهَا السَّرَّاءُ .

- إَجْلِسِي وَلَا عَلَيْكَ .

- أَحْسِبِيْنِي عُصْفُوْرًا حَتَّى أَجْلِسَ فِي هَذَا الشَّجَرِ مِنَ الْكُرْسِيِّ .

- يَا سَلَامَةً فِيْهِ ! رَجُلٌ يُسْتَفُّ بَيْتًا وَمَعْصَرَةً وَيَحْسِبُ نَفْسَهُ عُصْفُوْرًا وَهُوَ

مَلْفُوْفٌ فِي « حَرَامِيهِ » كَأَنَّهُ « سَرَّافَةٌ » (سَلْمٌ طَوِيلٌ) .

- أَمَّا أَنْتِ يَا أَتِيْهَا السَّرَّاءُ الرَّثِيْقَةُ الْقَوَامِ ، « التَّخْفُوْنةُ » الَّتِي تُوَضَّعُ عَلَى

الْكَفِّ فَتَطِيْرُ . لَمَسِي نَفْسَكَ شَيْئًا مَا ، وَاقْتَصِدِي فِي الشَّجَرِ يَرْحَمُكَ اللَّهُ ،

فَالْتَرَامُوَايَ لَيْسَ سَقِيْفَةً دَارِكًا .

وَبَدَأَ الضَّحِكُ فِي الْعَرَبَةِ وَالْأَمْصَاتِ إِلَى هَذَا الْخَوَارِ الَّذِي أَظْهَرَ فِيهِ وَالِدُ
« الطَّاهِرِ » بَرَاعَةً كَبِيرَةً وَمِثْلًا إِلَى التُّكْنَةِ ، وَحِذْقًا فِي تَثْوِيقِ الْكَلَامِ بِلَهَجَةِ
« الْبَلَدِيَّةِ » مَعَ مُبَالَغَةٍ فِيهَا .

وَأَخِيرًا أَفْهَمَ السَّمَرَةَ فَسَكَتَتْ ثُمَّ قَامَتْ لِتَنْزِلَ فِي مَحْطَةٍ . وَبَقِيَ الرُّكَّابُ يَنْظُرُ
بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ « وَالْخَلَّاصُ » يَسُرُّ بَيْتَهُمْ طَالِيًا ثَمَنَ التَّذَاكُرِ . وَ « الطَّاهِرُ »
يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَيَقُولُ فِيهِ نَفْسِهِ :

- يَا ذَا الْكَرِّ عَلَيَّ وَالْيَدِي الْعَمَلِ مِثْلَ هَذَا الشَّابِّ فِي هَذِهِ الشَّرِئَةِ ؟ قَالَ : إِنَّهَا
مَدْرَسَةُ الْفَسَادِ . أَيْظُنُّ أَنْبِي سَأَسْأَلُ بِسُهُولَةٍ إِلَى مُعَاشَرَةِ الطَّائِفِينَ ؟ أَلَمْ يَعْرِفْ أَنَّ
« عَبْدَ اللَّهِ » ابْنُ عَمِّي يَعِيشُ الْآنَ وَسَطَ « الشَّيْخَاتِ » ؟ وَدَعَانِي مَرَّاتٍ عَدِيدَةً
وَلَكِنِّي أَلْكَزْتُ عَلَى كَفْيِي أَنْ آتِي إِلَى ثُونَسٍ وَأَسْأَلُ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ . لَقَدْ
بَذَلْتُ جُهْدًا كَبِيرًا مَعَ أَخِيهِ لِتَأْتِي بِهِ إِلَى ثُونَسٍ وَخَرَجَ مِنْ ذَلِكَ الْجَحِيمِ الَّذِي دَفِعَ
إِلَيْهِ دَفْعًا . وَوَجَدَ مِنَ الْيَسِيرِ عَلَيْهِ أَنْ يَعْمَلَ فِي مَقْهَى صِهْرِهِ ، وَأَنْ يَقْضِيَ
لَيَالِيَهُ فِي الْحَفَلَاتِ ، وَالْمُتَلَهِّيَاتِ وَيَسْأَلُ إِلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ ، حَيَاةَ الدُّعَاةِ وَالْفَنِّ
وَالْعَزَامِ وَقَرَعَ كَأَسَاتِ الْمُدَامِ . يَا سُبْحَانَ اللَّهِ ! بَعْدَ الْبُغْلِ وَ « الْكَرْبَةِ »
وَحَدَامَةِ الرُّيْتُونِ وَلِبَاسِ « الْكَذْرُونِ » يَنْقَلِبُ « عَبْدَ اللَّهِ » شَخْصًا آخَرَ يَنْعَمُ
بِجَاهِلِ الرَّاغِبَاتِ ، وَالْمُعْتَبَاتِ ، وَالْمُمْتَلَاتِ ، وَيَنْصَهَرُ فِي عَالَمِ الْمَسْرَحِ
وَالْفِنَاءِ . غَرِيبُ أَمْرِ هَذِهِ الدُّنْيَا كُلُّهَا اسْتَدَتْ بِالْإِنْسَانِ ، وَأَذَاقَتْهُ مَرَارَةَ الْغَيْشِ ،
وَسَقَتْهُ مِنَ الدَّلَّةِ وَالْمَهَابَةِ أَلْوَانًا وَأَلْوَانًا ، وَصَبَّرَ عَلَى ذَلِكَ ، وَقَدَّرَ عَلَى الصُّمُودِ إِلَّا
وَأَتَشَكَّلَتْهُ فِي آخِرِ الْأَمْرِ وَبَدَلَتْ عُسْرَهُ يُسْرًا . الشَّرْطُ الْوَجِيدُ هُوَ الصُّمُودُ ، وَالذَّوَامُ ،
وَالْوُقُوفُ فِي وَجْهِ الْكَوَارِثِ مِنْ دُونَ التَّرْدِي فِي هَوَاهَا وَالْإِسْتِسْلَامَ لَهَا كَهَذِهِ الْحَنَاتِ
الْهَائِلَةِ عَلَى مَرِّ الدَّهْرِ .

وَمَرَّ « التَّرَامُوَيْ » بِالْحَنَاتِ الْقَرِيبَةِ مِنْ « بَابِ سَعْدُون » وَوَقَفَ فِي مُسْتَوَاهَا ،

وَصَعِدَ مَرَاqِبُ الشَّرِكَةِ وَهُوَ فَرَسِيٌّ، وَبَدَأَ فِي طَلَبِ التَّذَاكُرِ، وَهُوَ شَامِعٌ بِأَلْفِهِ كَأَنَّهُ قَائِدٌ حَمَلَةٌ مِنْ حَمَلَاتِ الاسْتِخَارِ.

لَمْ يُعِرْهُ اهْتِمَامًا كَثِيرًا لِأَنَّ التَّذَاكُرَ عِنْدَ وَالِدِهِ . وَاسْتَطَابَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مَثْبَهُ التَّرَامَوَائِ :

- تَيْنٌ ... تَيْنَ بْنَ تَيْنٍ ... تَيْنٌ .

فَقَامَ وَاقْتَرَبَ مِنَ السَّائِقِ ، فَوَجَدَهُ يَضْرِبُ بِطَرْفِ قَنَمِهِ مِسْهَارًا ، رَأْسُهُ كَبِيرٌ ، فَبَحِثْتُ ذَلِكَ الصَّوْتُ الَّذِي اسْتَطَابَهُ ، وَبُحْرَكُ بِخَفَقِ حَدِيدَةٍ ، تَزِيدُ وَتُخْفِضُ فِي السَّرْعَةِ ثُمَّ هُوَ إِذَا أَرَادَ تَوْقِيفَ « التَّرَامَوَائِ » أَخَذَ يُدِيرُ فِي حَرَكَةِ سَرِيعَةٍ مِقْبَضًا وَكَأَنُ أَمَامَهُ رَحَى ، يَزْجِي بِهَا حَبًّا . فَتَسْمَعُ لِلْعَجَلَاتِ أَرْيَا ، فَيَتَبَاطَأُ سَيْرُ « التَّرَامَوَائِ » ثُمَّ يَشْتَدُّ ضَغْطُ الرَّحَى فَيَقِفُ « التَّرَامُ » .

قَالَ « الطَّاهِرُ » فِي نَفْسِهِ :

- مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى هَذَا ؟ إِنِّهَا لُغْبَةٌ وَاللَّهِ . لَوْ تَرَكُونِي ، لَكُنْتُ الْيَوْمَ أَحَدَ الرَّجُلَيْنِ : الْخَلَّاصَ أَوْ السَّائِقَ ، لَكِنْ سَامَعَ اللَّهُ وَالِدِي . إِنَّهُ دَائِمًا يَجْهَرِي وَرَاءَ عَظْمَاءِ ثَوْبٍ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَنْلُ مِنْ خُلْطَتِهِ شَيْئًا وَلَوْ حَتَّى مَظَاهِرَ الْعَظَمَةِ .
وَأَحْسُ بِأَنَّ فِي زَوَايَا نَفْسِهِ بَقَايَا مِنَ الطُّفُولَةِ ، جَمَلَتُهُ يَسْتَسْطِيبُ رُكُوبَ « التَّرَامُ » وَيَتَلَهَّى بِصَوْتِ الْمَثْبُوبِ وَبِحَرَكَاتِ السَّائِقِ . وَوَدَّ لَوْ أَنَّهُ يُجَرِّبُ حَفَلَهُ ، غَيْرَ أَنَّ صَوْتًا صَاخَ :

- أَخْبِرْ حَفَلَةً ... « تَرْمِيئُوسُ » ... بَارِذُو ...

نَزَلَ الْجَمَاعَةُ فِي حَفَلَةٍ « بَارِذُو » أَمَامَ مَقْعَى صَغِيرٍ . قَالَ وَالِدُ « الطَّاهِرِ » :

- بَعْدَ رُبْعِ سَاعَةٍ نَصِلُ إِلَى مَنْزِلِ الْقَرِيكِ مُصْطَفَى ...

وَسَارَ الْقَوْمُ بِضَعَةِ أَمْتَارٍ ثُمَّ عَرَّجُوا نَحْوَ الْيَمِينِ . وَتَلَّوْا بَقَايَا بَابِ قَدِيمٍ . قَالَ

« أَبِي مُحَمَّدٌ » وَالِدُ « الطَّاهِرِ » :

- هَذَا بَابُ « بَارْدُو » الَّذِي كَانَتْ تُعَلَّقُ عَلَيْهِ الرُّؤُوسُ . ثُمَّ سَارُوا قَلِيلًا وَقَالَ لَهُمْ :

- هَذَا قَصْرُ بَارْدُو يَأْتِيهِ الْبَائِي فِي الْأَعْيَادِ . وَهَذَا هُوَ الْمَسْجِدُ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ (مُتَبَعًا إِلَى الْمَسْجِدِ الْمُقَابِلِ) وَهَذِهِ دَارُ الْعَجَائِبِ فِيهَا أَجْهَارُ الْأَوَّلِينَ .

وَلَمَّا فَاتُوا قَلِيلًا الْمَسْجِدَ مُتَّجِهِينَ نَحْوَ « قَصْرِ السَّعِيدِ » وَجَدُوا ثُكَّةً أَمَامَهَا جُنْدِيٌّ يَحْرُسُهَا فَقَالَ « أَبْنَى مُحَمَّد » :

- هَذِهِ قِشْلَةٌ « الطُّهْبَجَةِ » ثُكَّةٌ الْمَدْفَعِيَّةِ حَيْثُ كَانَ عَمَلُكَ يَا « طَاهِر » يُدْرِبُ الْعَسْكَرَ . وَهَذَا الْمَكَانُ الْمُقَابِلُ الَّذِي فِيهِ يَبْرُ وَحَدِيقَةٌ صَغِيرَةٌ مَسْكُونٌ مِنَ الْجِنِّ . عِنْدَمَا زُرْتُ عَمَلُكَ عَامَ سِتَّةَ وَاتِّنْظَرْتُهُ ، لَبَّاءُ هُنَا ، خَرَجَ لِي مَيْتٌ بِأَكْفَانِهِ يَسْمِي عَلَى رِجْلَيْهِ ، وَأَخَذَ يَطْوُلُ حَتَّى ارْتَفَعَ إِلَى مُسْتَوَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ . وَلَوْلَا رِبَاطَةٌ جَاءَنِي ، وَتَسْجَاعَتَنِي لَكُنْتُ أَصَابُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ بِسَسُ مِنَ الْجُنُونِ . وَلَكِنْ بِنِي مُتَعَوِّدٌ هَذِهِ الْأُمُورَ فِي « جَنَابِي » بِالْبَلَدِ مَعَ الْغَوْلَةِ « حَلِيمَةَ » وَلِهَذَا فَإِنِّي لَا أَخْشَى شَيْئًا مِنَ الْجِنِّ . وَلَعَلَّ « حَلِيمَةَ » هِيَ الَّتِي تَحْمِينِي مِنْ إِخْوَانِهَا .

وَعَرَفَ « الطَّاهِرُ » أَنَّ وَالِدَهُ لَا يَتَوَقَّفُ أَبَدًا ، إِلَّا ، بِجَهْدٍ جَهْدٍ ، عِنْدَمَا يَدْخُلُ هَذَا الْبَحْرَ وَلَكِنَّهُ يَسْتَطِيعُ حِكَايَاتِهِ ، لِأَنَّهَا مِنْ تَسْجِ الْخَيَالِ ، وَفِيهَا خُبْرَةٌ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا وَالِدُهُ . وَمَا أَنْ عَرَجُوا نَحْوَ طَرِيقِ « مَاطِر » وَسَارُوا حُطُوطًا حَتَّى أَشَارَ لَهُمْ بِإِصْبَعِهِ إِلَى قَصْرِ كَبِيرٍ وَقَالَ :

- هَذَا قَصْرُ السَّعِيدِ - هُوَ قَصْرُ الشُّؤْمِ ... هُنَا أُمُضِيَتْ مُعَاهَدَةُ الْحَيَاتَةِ مِنْ طَرَفِ الصَّادِقِ بَائِي وَالْآنَ أَصْبَحَ خَالِيًا إِلَّا مِنْ بَعْضِ الْحُرَاسِ أَوْ الْمُكَلَّفِينَ بِخِدْمَةِ « السَّائِيَةِ » ... لَمْ يَبْقَ لَنَا إِلَّا مَسِيرَةُ عَشْرِ دَقَائِقَ لِتَصِلَ إِلَى قَصْرِ « الْفَرِيكَ مُصْطَفَى »

* * *

وَقَفَّتِ الْجَمَاعَةُ أَمَامَ بَنَائِيَّةٍ ظَهَرَتْ « لِلطَّاهِرِ » عَظِيمَةً شَاعِجَةً فِي السَّمَاءِ ، لَهَا بَابٌ كَبِيرٌ جَدًّا وَأَمَامَهُ « كُرُوسَةٌ » وَبِجَانِبِ ذَلِكَ الْبَابِ بَابٌ أَصْغَرُ مِنْهُ قَالَ « أُبَيُّ مُحَمَّدٌ » :

- هَذَا لَيْسَ هُوَ الْمَدْخَلُ الرَّئِيسِيُّ ... الْمَدْخَلُ الرَّئِيسِيُّ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ ، وَيَجِبُ أَنْ نُسَرِّمِنَ « السَّنَائِيَّةِ » ... نَعُوذُ الْجَمِيعُ الدُّخُولَ مِنْ هُنَا وَهُوَ أَيْسَرُ .. إِلَّا فِي الْمُنَاسَبَاتِ الْكَبِيرَةِ ، فَالدُّخُولُ مِنْ بَابِ الْقَعَصْرِ .

وَذَلَفَ الْجَمَاعَةُ نَحْوَ الْبَابِ الصَّغِيرِ ، وَصَعِدُوا ثَلَاثَ دَرَجَاتٍ ، فَوَجَدُوا عُزْقَةً عَنِ الْيَمِينِ فِيهَا حَارِسٌ مَغْرِبِيُّ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ وَمَتَّى أَمَامَهُمْ خُطُوتٌ ثُمَّ صَعِدَ مَدْرَجًا عَنِ الْيَسَارِ ، فَتَبِعُوهُ وَوَصَلُوا بِسُرْعَةٍ إِلَى بَهْرٍ بِهِ نَافِذَةٌ تَفْتَحُ عَلَى الطَّرِيقِ الَّتِي أَتَوْا مِنْهَا . هُنَاكَ اسْتَقْبَلَهُمُ « الْفَرِيكَ مُصْطَفَى » بِالتَّرْحَابِ :

- عَلَى سَلَامِيكُمْ ، زَارَتْنَا الْبَرَكَةُ .

- اللَّهُ يُسَلِّمُكُمْ ... هَذَا أُبَيُّ « الطَّاهِرِ » وَهَذَانِ صَدِيقَانِ لِي أَرَادَا مَعْرِفَتَكَ وَمَعْرِفَةَ أَكُلِّ « الْهَلْدِيَّةِ » .

ضَحِكَ « الْفَرِيكَ مُصْطَفَى » ضِحْكَةً تَذُلُّ عَلَى طَبِيعَتِهِ وَسُمُو أَحْلَاقِهِ ، وَهُوَ رَجُلٌ ، مَدِيدُ الْقَامَةِ ، بَهِيُّ الطَّلَعَةِ ، مُدَوِّرُ الْوَجْهِ ، تَظْهَرُ عَلَيْهِ شَبَابُ الْمُرُومَةِ وَالْكَرَمِ وَالثَّبَلِ ، يَلْبَسُ « شَانِيَّةً » ذَاتَ « كُبَيْتَةٍ » طَوِيلَةٍ ، وَجُبَّةً وَ « بَذْعِيَّةً » وَ « كُنْتَرَةً » فِي رِجْلَيْهِ وَيَدَيْهِ « بَاكِيتَةً » مَجْلَبَّةً بِالْفِضَّةِ .

- تَفَضَّلُوا ... تَفَضَّلُوا .

وَأَشَارَ « الْفَرِيكَ مُصْطَفَى » إِلَى بَابٍ عَنِ الْيَمِينِ ، بَيْنَا لَحَ « الطَّاهِرِ » قُبَاتُهُ نَمْرًا وَاسِعًا يُبْلَغُ إِلَيْهِ بَعْدَ صُعُودِ أَرْبَعِ دَرَجَاتٍ ، فِيهِ حَرَكَةٌ شَيْطَانِيَّةٌ ، وَوُجُوهُ نِسَائِيَّةٌ تَظْهَرُ وَتُخْتَفِي لِرُؤْيَا الْقَادِمِينَ .

دَخَلَ الْقَوْمُ الْبَابَ ، وَعَرَفُوا أَنَّ هَذَا هُوَ « مَقْعَدُ » الْفَرِيكَ فِيهِ بَعْضُ الْغُرَبِ ،

وَقِيهِ تَظْهَرُ عَلَى الْيَسَارِ مَكْتَبَةٌ جَلِيلَةٌ ، بَابُهَا مَفْتُوحٌ ، وَأَمَامَهُمْ ثَائِدَةٌ كَبِيرَةٌ تُشْرِفُ عَلَى « السَّائِيَةِ » بِجَانِبَيْهَا الْمُتَسِعَةِ الْمَلَأَتِ مَاءً .

قَالَ الْفَرِيكُ ، وَقَدْ خَطَا خُطُوبَاتٍ نَحْوَ مَرَّ فَسِيحِ الْأَرْجَاءِ فِي رُكْنٍ مِنْ مَطْبَعٍ مَهْجُورٍ :

« أَنْظَرُوا إِلَى هَذِهِ الْجَانِبِيَةِ ... إِنَّ لَهَا عُمُودًا لَا تَكْفُ عَنْ الْجَرَيَانِ . هِيَ بُيْنَتٌ عَلَى مَطْبَعٍ فُسْقِيَةِ الْأَغَابَةِ وَمِنْ الْعَصِيرِ جَدًّا تُفْرِغُهَا وَتَنْظِفُهَا ... وَلِهَذَا فَهِيَ تَظْهَرُ وَسِخَةً بِهَذَا الْحَزِّ وَلَكِنِّي حَلَلْتُ مَاءَهَا وَوَجَدْتُهُ صَالِحًا لِلشَّرَابِ وَمَعَ ذَلِكَ فَتَحْنُ لَا تَشْرَبُ مَاءَهَا .

قَالَ وَالِدُ « الطَّاهِرِ » :

« لَا عَلَيْكَ ... وَاللَّهُ لَوْ شَرِبْتُ مَاءَ الْقَدِيرِ الْآنَ لَنَالَهُ مِنِّي مَا يَسُوهُهُ وَلَا عَقْلٌ عَلَيْهِ يَخْتَارُ فِيهَا الْأَطْيَاءُ . أَمَّا هَذَانِ « الْعَصْرُوطَانِ » فَإِنَّ السَّاءَ الصَّافِي يُضِرُّ بِهِمَا . فَضَحِكَ الْفَرِيكُ حَتَّى دَمَعَتْ عَيْنَاهُ ، وَفَهِمَ « الطَّاهِرُ » أَنَّ وَالِدَهُ حَافِظٌ فِي إِدْخَالِ السَّرَحِ عَلَى هَذَا السَّيِّدِ وَإِشَاعَةِ جُودِهِمِ الْإِسْرَاحِ حَتَّى بِأَسْطِ الثَّوَادِرِ .

عَالِمَانِ إِثْنَانِ التَّقِيَا فِي هَذَيْنِ الشَّخْصَيْنِ : عَالِمُ « الْبَلَدِيَّةِ » وَعَالِمُ سَاكِنِي الْأَرْيَافِ هُمَا رَكِيزَتَانِ لِثَوْنِ الْحَالِدَةِ ، إِمْتَرَجًا مِنْهُ الدُّهُورُ ، وَبَقِيَا عَلَى طَبَائِعِهِمَا تَتَلَقَّفُهُمَا أَمْوَاجُ الْأَحْدَاثِ ، وَتُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا حِينًا وَلَكِنَّهُمَا تَحْكُمُ عَلَيْهِمَا بِالثَّلَاقِي وَالثَّقَالِ وَالْإِلْمَاجِ .

« الْفَرِيكُ مُصْطَفَى » فِي رِفْتِهِ ، وَعُلُوثَقَاتِهِ ، وَسُمُومَقَامِهِ ، وَجَدُوهُ ، وَالشِّبَالِهِ بِشُرُونِ الْبِلَادِ . وَ « أَبِي مُحَمَّدٌ » فِي عَفْرِيتِهِ ، وَبَسَاطَتِهِ ، وَخُسُوفِيَّتِهِ ، وَمَعْرِفَتِهِ الدَّيْكِيَّةِ لِأَحْوَالِ النَّاسِ ، وَتَقَاتِيَةِ الشَّعْبِيَّةِ ، وَتَرْسِيهِهِ بِوَاقِعِ الْمُجْمُوعِ .

« الْفَرِيكُ مُصْطَفَى » يُمَثِّلُ الطَّبَقَةَ الْعُلْيَا مِنْ « الْبَلَدِيَّةِ » وَ « أَبِي مُحَمَّدٌ » هُوَ مِنْ تِلْكَ الْفَصِيلَةِ الْقَادِرَةِ عَلَى تَرْعُمِ الطَّبَقَاتِ الشَّعْبِيَّةِ وَالْوُقُوفِ مَوْقِفَ النَّذْلِ لِلذُّمِّ مَعَ أَمْثَالِ « الْفَرِيكِ » .

رَجَعَ الْجَمْعُ إِلَى « الْمَقْعَد » وَبُهِرَ « الطَّاهِر » بِالزَّرَابِي السَّبْثُوسَةِ وَالْكَرَّاسِي « وَالْأَبْتَاكِ » الْأَيْقَةِ ، وَالْجَيْطَانِ السُّعْطَاةِ بِالْجَلِيلِ السَّبَّاسِي الْبَنْفَسَجِي وَاللُّوْحَاتِ الْعَالِيَةِ الشَّنِّ ، فِيهَا آيَاتُ الْفَرَانِيَّةِ ، وَالْحِكْمُ الْمُدْهَبَةُ الْمَكْتُوبَةُ بِالْخَطِّ الْجَمِيلِ ، وَفِيهَا أَيْضًا الْمَنَاطِرُ الطَّبِيعِيَّةُ الْخَلَائِفَةُ وَبَعْضُهَا اخْتَوَى عَلَى رُسُومٍ زَيْنِيَّةٍ لِشَخْصِيَّاتٍ لَمْ يَعْرِفْهَا .

إِنِّجَةُ « الْفَرِيكِ مُصْطَفَى » فِي كِبَاسَةٍ وَأَدَبٍ إِلَى « الطَّاهِر » وَقَالَ لَهُ : هَذَا أَحْوَكُ « الْعَادِل » فِي الْمَكْتَبَةِ يُطَالِعُ أَتَادِيهِ لَكَ لِتَعْرِفَهُ وَيَعْرِفَكَ وَيَأْدَى :

- عَادِل ... عَادِل .

- نَعَمْ « سَيِّدِي » .

وَدَخَلَ فِي الْحَيْنِ شَابٌّ فِي عُمُرِ « الطَّاهِر » وَسِيمِ الطَّلَعَةِ مَدُورَ الرَّجْوِ ، كَأَنَّهُ قَمَرٌ لَيْلَةٌ تَمَامِي ، بِلَحِيَّةٍ شَقْرَاءَ لَا طَوِيلَةَ وَلَا قَصِيرَةَ ، فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ ، يَلْبَسُ جُبَةً مِثْلَ وَالِدِهِ وَشَاشِيَّةً عَلَى النَّمَطِ نَفْسِهِ .

- هَذَا « أَبِي مُحَمَّد » تَعْرِفُهُ وَهَذَانِ صَدِيقَانِ لَهُ مِنَ الْبَلَدِ ، وَهَذَا أَحْوَكُ « الطَّاهِر » سَتَتَفَقَّانِ وَلَا بُدَّ . فَرَجُّهُ عَلَى الْمَكْتَبَةِ ثُمَّ « السَّانِيَّة » وَالتَّحِقَّا بِنَا .

وَتَصَافَحَا ، وَوَقَعَتْ فِي نَفْسِ « الطَّاهِر » عِبَارَةٌ « سَتَتَفَقَّانِ وَلَا بُدَّ » مَوْفِعًا عَرَبِيًّا . إِنَّهُ اعْتَادَ أَنْ يُدَبِّرَ الْأُمُورَ بِنَفْسِهِ ، وَيُوضَعَ فِي ظُرُوفٍ لَا تَقْرَأُ حِسَابًا لِمَصَالِحِهِ ، فَتَشْتَبِكُ لَدَيْهِ السُّبُلُ وَيُضْطَرُّ إِلَى إِعْمَالٍ فِكْرِهِ الْكُودِيدِ ، وَمُوَاجَهَةِ حَالَاتٍ مُتَنَاقِضَةٍ تَتَجَادَلُهُ ، وَتُكَدِّرُ عَلَيْهِ نَفْسَهُ ، فَيَتَرُكُهَا تَعْمَلُ عَمَلَهَا مَا دَامَ غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى الْمُرَاجَعَةِ . أَمَا فِي هَذِهِ السَّمَةِ فَإِنَّهُ يَحِدُّ نَفْسَهُ مُحَاطًا بِعَيْنَايَةِ كَبِيرَةٍ ، مُجَهِّزًا عَلَى قَبُولِ خُطَةِ جِيكَتْ لِمَصَالِحِهِ . قَالَ فِي نَفْسِهِ :

- صَدَقَ « الشَّيْخُ حَسَن » عِنْدَمَا أَكَّدَ لِي فِي حَدِيثِهِ بِوَلِي الْكَلْبِ عَلَى سَائِي : اشْتَدَّتْ أَرْمَةُ تَنْفَرِجِي ... لَقَدْ فُتِحَ لِي « بَابُ الْعَرْشِ » وَبَدَأَتْ أَشْمُ رَائِحَةِ الْجَنَّةِ ...

ثُمَّ رَاجَعَ نَفْسَهُ وَقَالَ :

- لِمَاذَا هَذَا التَّعَجُّلُ فِي الِاسْتِشَارِ ؟ .. كَلِمَةٌ فَقَطْ قَاةٌ بِهَا « الْفَرِيكَ مُصْطَفَى »
لَعَلَّهَا تَدُلُّ عَلَى أَثْنِي وَابْنِهِ فِي نَفْسِ السَّنِ تَتَّقِي فِي الْمِيُولِ وَفِي الْحَدِيثِ ... مَا
بَالِي أَنْوَاعِلْ هَكَذَا عَلَى النَّاسِ ؟ وَأُظُنُّ أَنِّي مَحُورٌ شَوَاعِلِهِمْ وَالذَّرَّةُ الثَّمِينَةُ الَّتِي
يَتَحَتَّمُ عَلَيْهِمُ الشُّحْطِيطُ لَهَا ... مَا أَسْخَفَنِي وَأَثَقَهُ أَخْلَامِي !.. يَسْ أَلْيَوْمِ الَّذِي
خُلِقْتُ فِيهِ وَعَرَفْتُ هَذَا الْعَالَمَ الْمُمَزَّقَ ، الْمُنْتَقِضَ الَّذِي وَجَدْتُ فِيهِ فِتْنَةً نَفْسَهَا
مُعْذَمَةٌ ، فَقِيْرَةٌ وَأُخْرَى فَتَحَتْ عَيْنَيْهَا عَلَى الْخَيْرَاتِ السَّبْعِ ... وَمَا هِيَ هَذِهِ الْخَيْرَاتُ
السَّبْعُ الَّتِي تَقُولُ عَنْهَا أُمِّي ... لَمْ يَعُدْهَا أَحَدٌ أَمَامِي وَلَا أَعْرِفُ مَا هِيَ ؟ .. وَبَابُ
الْعَرْشِ هَذَا الَّذِي يَتَحَدَّثُ عَنْهُ النَّاسُ مَا هُوَ ؟

لَحَظَاتٌ مَرَّتْ عَلَى « الطَّاهِرِ » وَهُوَ يَصْعَدُ دَرَجَاتٍ ، قَلِيلَةً ، مُتَوَجِّهًا إِلَى الْمَكْتَبَةِ
وَرَاءَ « عَادِلِ » ... لَحَظَاتٌ غَرِقَ فِيهَا فِي لُجٍّ مِنَ الْأَفْكَارِ وَالْهَوَاجِسِ .
- هَذِهِ مَكْتَبَةُ أَبِي وَرِثَهَا عَنْ وَالِدِهِ وَأَمْرَاهَا بِالْكَتُبِ الْفَرَنْسِيَّةِ وَالْمَحْطُوطَاتِ ...
هِيَ مَكْتَبَةُ تَادِرْةِ الْوُجُودِ ...
- نَعَمْ هِيَ عَظِيمَةٌ ...

وَأَخَذَ يَسْمُرَانِ أَمَامَ الْخَزَائِنِ وَ « الطَّاهِرِ » يَنْظُرُ إِلَى الْكُتُبِ ، وَيُحَاوِلُ أَنْ يَقْرَأَ
عَنَاوِينَهَا وَلَكِنَّهُ مُشْغُولُ الْخَاطِرِ . لَقَدْ تَعَطَّلَتْ حَوَاسُهُ فَهُوَ يَنْظُرُ وَلَا يَنْظُرُ ، وَيَسْمَعُ
وَلَا يَسْمَعُ ، وَيَشْمُ وَلَا شَمَّ ، وَتَذْكُرُ تِلْكَ الْحَالَةَ الَّتِي وَجَدَ نَفْسَهُ فِيهَا فَوْقَ
« الْكَرْبَلَةِ » وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى ثُونِسَ .

وَلَكِنَّهُ فِي هَذِهِ الْأَمْرِ وَبَعْدَ مِحْنَتِهِ الَّتِي دَامَتْ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ ، حِرْمَانًا وَجُوعًا ،
وَبُرْؤًا وَمَهَانَةً ، وَجَدَ أَنْ حَوَاسَهُ قَدْ تَعَطَّلَتْ وَعَوَّضَتْهَا هَذِهِ الْأَخْلَامُ وَالْهَوَاجِسُ
وَالْأَفْكَارُ الَّتِي لَا تُسَبِّحُ وَلَا تُغْنِي مِنْ جُرْعٍ ... كَمَاذَ أَنْ يَكُونَ مُجْرَمًا هَبَاءً تَتَفَادَّهَا
أَفْكَارُ طَائِفَةٍ .

أَحْسَ بِنَفْسِهِ أَنَّهُ فِي حَالٍ تُشْبِهُ مَا قَرَأَهُ مِنْ حَالَاتِ الشُّعْرَاءِ أَوْ الْأَنْبِيَاءِ ... يُخْلَقُ
فِي سَمَوَاتِ الْخَلْقِ وَالْوَخِي ... وَلَكِنَّهُ مِنْ أَيْنَ لَهُ الْجَنَاحَانِ لِيَطِيرَ بِهِنَّ ؟! وَتَذَكَّرَ
عَبَّاسُ بْنُ فَرَسَانَ الْعَالِمَ الْعَرَبِيَّ الَّذِي حَاوَلَ أَنْ يَطِيرَ وَلَكِنَّهُ وَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ
وَكُسِرَتْ رِجْلَاهُ .

- يَا سَتَّارُ يَا جَبَّارُ ... آ ... لَا بَأْسَ ... لَا بَأْسَ ! صَاحَ بِهَذِهِ الْعِبَارَاتِ
« عَادِلٌ » عِنْدَمَا رَأَى « الطَّاهِرَ » يَسْقُطُ وَقَدْ انْتَزَلَ فَوْقَ رُحَامِ الْقَاعَةِ وَأَخَذَ بِيَدِهِ
وَهُوَ يَقُولُ :

- لَكُمْ قُلْتُ لَهُمْ : أَنْ يُعْطُوا هَذَا الْمَكَانَ بِرِزْيَةٍ وَلَكِنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ ذَلِكَ يُفْقِدُ
أَرْضِيَّةَ الْقَاعَةِ الثَّنَاسُقَ وَالْإِسْجَامَ مَعَ الْأَرْكَانِ الْأُخْرَى ... أَذْوَاقُ يَا سَيِّ
« الطَّاهِرَ » .

نَهَضَ « الطَّاهِرُ » يَنْفُضُ جُبَّتَهُ وَيُسَوِّي هَيْئَتَهُ وَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ :
- هَذَا الْعَامُ الَّذِي بَالَ عَلَيَّ فِيهِ الْكَلْبُ ... لَا خَيْرَ فِيهِ ... هُوَ عَامُ الْعَنَرَاتِ .
وَأَحْسَ بِقُوَّةِ تَحَلُّوهُ إِلَى الْبَابِ وَقَوْلُ لَهُ فِي الْخَاحِ وَهُوَ يَسْمَعُ صَوْتَهَا يَنْهَشُ نَفْسَهُ :
- أَنْجُ بِنَفْسِكَ يَا « طَاهِرُ » ... إِنَّكَ بَقِيتَ إِلَى الْيَوْمِ مُسْتَقِيمًا ، خَضَتْ أَجْوَاءُ
عَشَشٍ فِيهَا الْفَسَادُ وَلَمْ تَنْسَقِ إِلَيْهَا ، أَجْوَاءُ كَانَتْ بِمَهْوَلَةٍ عِنْدَكَ وَلَكِنْ الْهَابِيَّةَ لَمْ
تَلْتَفِتْكَ وَلَمْ تَتَّبِعْ شَهَوَاتِ نَفْسِكَ ، وَالْآنَ تُرِيدُ أَنْ تَلِجَ أَوْ أَرَادَ وَالِدُكَ أَنْ يُفْجِمَكَ فِي
أَجْوَاءِ الْبَذَخِ وَالزُّفَاوِ وَحَيَاةٍ عَلَيْهِ الْقَوْمُ ... إِنْ قَدَمَكَ سَتَزِلُّ بِكَ يَا « طَاهِرُ » .. أَنْجُ
بِنَفْسِكَ ... أَنْجُ بِنَفْسِكَ !!

وَتَوَجَّهَ إِلَى الْبَابِ وَ « عَادِلٌ » وَرَأَاهُ يَقُولُ لَهُ :

- يُمَكِّنُ لَنَا أَنْ نَذْهَبَ إِلَى « السَّائِيَةِ » مِنْ بَابِ آخَرَ فِي الْمَكْتَبَةِ . غَيْرَ أَنَّ
« الطَّاهِرَ » تَغَطَّى الدَّرَجَاتِ الثَّلَاثَ وَوَجَدَ نَفْسَهُ فِي الْبُهِوِّ وَكَأَنَّهُ رَامَ أَنْ يَخْرُجَ
وَيُطْلِقَ سَاقِيهِ إِلَى الرِّيحِ إِلَّا أَنَّ صَوْتًا مُجْلِجَلًا تَلَقَّعَهُ ، هُوَ صَوْتُ أَبِيهِ الْجَالِسِ فِي



الفريک

المليح

مَفْصُورَةٌ تَفْتَحُ عَلَى الْبَهْوِ وَصَاحَ بِهِ :

- يَا « طَاهِر » أَرَأَيْتَ حَيَاةَ « الْبَلْدِيَّةِ » .. ؟ هُوَ التَّعْيِيمُ الَّذِي طَالَهَا قَرَأَتُهُ فِي الْقُرْآنِ وَلَمْ تَذُقْ مِنْهُ شَيْئًا .. « الْفَرِيكَ مُصْطَفَى » فِي جَنَّةٍ ... الْجَنَّةُ الَّتِي وَعَدَ بِهَا اللَّهُ الْمُتَّقِينَ . إِنَّ اللَّهَ أَعْطَاهُ عَلَى قَدْرِ قَلْبِهِ ... وَنَحْنُ أَعْطَانَا اللَّهَ عَلَى قَدْرِ قُلُوبِنَا الْمَوْحِشَةِ الْقَاسِيَةِ ...

ضَحِكَ « الْفَرِيكَ مُصْطَفَى » حَتَّى دَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَكَادَى « الطَّاهِرُ » وَعَادِلَ وَقَالَ :

- أَتَشَاءُ أَحْوَانَ ... مِنْ هُنَا فَصَاعِدًا لَيْسَ لِي وَلَدٌ وَاحِدٌ بَلْ اِثْنَانِ ، يُعَاوِزَانِي عَلَى هَمِّ الزَّمَانِ ، فَإِنَّا لَمْ أَعُدْ أَقْبِرُ عَلَى الْوُقُوفِ عَلَى هَذَا الرُّزْقِ الَّذِي خَلَفَهُ لِي الْجَدُّوُدُ ... أَنْتَ مُوَافِقُ يَا « طَاهِر » أَنْ تَكُونَ ابْنِي ؟ وَصَمَتَ « الطَّاهِرُ » وَصَمَتَ وَالِدُهُ وَلَكِنْ صَدِيقٌ وَالِدِيو نَطَقَ وَكَأَنَّهُ أَصْبَحَ لَا يَفْقَهُ مَا يَقُولُ :

- تَكَلَّمْ يَا « صِهَامَةَ » ... لَمْ أَرِ فِي حَيَاتِي إِسْنَانًا تُعْرَضُ عَلَيْهِ الْجَنَّةُ فَيَتَرَدَّدُ ... مَا هَلْوَ « الضُّئُوءُ » يَا « أَبِي مُحَمَّد » .. ؟ وَلَدَكَ فَتَحَ بَابَ الْعَرْشِ فِي وَجْهِهِ وَهُوَ « يَتَصَهَّمُ » !

وَضَحِكَ الْجَمِيعُ وَقَالَ « الطَّاهِرُ » فِي عَمَمَةٍ لَا تُفْهَمُ مِنْهَا إِلَّا بَعْضُ الْكَلِمَاتِ :

- بَارَكَ اللَّهُ فَيْلِكَ يَا « سَيِّدِي مُصْطَفَى » ... أَنَا وَاللَّهِ لَسْتُ أَذْرِي مَا ... أَقُولُهُ .

- لَا تَقُلْ شَيْئًا أَنْتَ ابْنِي مِنَ الْآنَ فَصَاعِدًا . قَالَ « أَبِي مُحَمَّد » :

- لَا « تَحْشِشْنِي » يَا « طَاهِر » مَعَ « سَيِّدِي مُصْطَفَى » .. نَحْنُ عِشْرَةٌ مُنْذُ زَمَانٍ

قَبْلَ أَنْ تُولَدَ أَنْتَ يَقْرَنُ ... أَلَيْسَ كَذَلِكَ يَا « سَيِّدِي مُصْطَفَى » ... نَحْنُ مِنْ أَهْلِ الْكَهْفِ ... بَلْ مَعَاذَ اللَّهِ أَنَا مِنْ أَهْلِ الْكَهْفِ بِلَيْسِي هَذَا ... أَمَا أَنْتَ فَلَبَّاسُكَ عَصْرِي ... وَلَكِنْ أَلَكَلْبُ غَيْرُ مُوجُودٍ ... أَلَكَلْبُ ... لَا ... هُوَ هَذَا .

وَأَشَارَ إِلَى صَدِيقِهِ الْفَانِي الْقَائِمِ عَلَى «الْبَيْتِ» قَائِلًا :
 - بِاللهِ عَلَيْكَ . أَلَا يُشْبِهُ الْكَلْبَ ... إِنَّهُ وَفِي ... لَا مَحَالَةَ وَلَكِنْ لَوْ تَكَلَّمْ لَنَبَحَ .
 وَصَحِيحَكَ «سَيِّدِي مُصْطَفَى» فِيحِكَّةٌ عَالِيَةٌ وَكَأَدَ أَنْ يَسْفُطَ مِنْهَا وَأَجَابَ صَاحِبُ
 «أَبِي مُحَمَّدٍ» مُنْفِعِلًا :

- أَلَا تَسْتَحِ ... الشَّيْبُ وَالْعَيْبُ ... أَنَا ظَلَمْتُ نَفْسِي عِنْدَمَا أَتَيْتُ مَعَكَ .
 وَعِنْدَ ذَلِكَ جَاءَ مَنْ يُحِبُّ بِأَنْ طَعَامَ الْقَدَاءِ قَدْ حَضَرَ . وَقَفَ «سَيِّدِي مُصْطَفَى»
 وَخَرَجَ مِنَ الْبَابِ الَّذِي دَخَلَ مِنْهُ الْجَمَاعَةُ وَاتَّجَّهُوا نَحْوَ الْبَهْوِ الْوَاسِعِ وَصَعِدُوا ثَلَاثَ
 دَرَجَاتٍ فَوَجَدُوا عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الْيَسَارِ مِصْعَدًا فِي نَفْسِ الْعُلُوِّ ، قَالَ الْفَرِيكَ :
 - هَذَا مَنْزِلُ ابْنِي «عَادِلٍ» ، عَنْ الْيَسَارِ الْمَدْخَلُ الرَّئِيسِيُّ وَعَنِ الْيَمِينِ
 «السَّقْعَةُ» الَّتِي يُفْضِي إِلَى الْمَنْزِلِ أَيْضًا ...

وَقَدَّمَ خُطُوبَاتٍ فِي الْمَسَرِّ الْمَظْلَمِ شَيْئًا مَا وَقَالَ :
 - هَذَا بَابُ الْمَكْتَبَةِ عَنِ الْيَمِينِ ... وَهَذَا الْفَنَاءُ . وَتَوَسَّطَ الْجَمْعُ فَنَاءً لَهُ سَنَفٌ
 مُقَامٌ عَلَى سَوَارِ أَسْطُوَانِيَّةِ الشُّكْلِ مِنْ رُحَامٍ وَتَحِيطُ بِهِ مِنْ فَوْقٍ ثَوَائِدُ ، بِلُورُهَا
 مَرْزُوقٌ ، يَدْخُلُ مِنْهُ ثَوَرُ الشَّمْسِ بِالْوَانِ زَاهِيَةً مُخْتَلِفَةً . ثَنَعَكِسُ عَلَى الْمَجْدِرَانِ
 الْمَكْسُوءِ بِالْجَلِيلِزِ الْإِسْبَانِيِّ ، فَتَغْطِي ، وَهِيَ الْخَضْرَاءُ اللَّوْنِ ، فَلَا أَلَا مُتَبَايِنَةٌ
 الْأَلْوَانِ .

سَحَرَ هَذَا الْفَنَاءُ «الطَّاهِرُ» وَارْتَحَاحَ إِلَى هُنْدَسَتِهِ وَاشْتَرَحَ لِلْأَلْوَانِ ، وَآخَذَ يَتَأَمَّلُهُ
 فِي هَيْئَةِ الْمُسْتَوْدِقِ لِلْجَمَالِ . وَالْجَمَالُ مَوْجُودٌ فِي هَذِهِ الدَّارِ إِذْ لَمَحَهُ مِنْ بَعْضِ
 الشَّبَابِيكِ أَوِ الْأَبْوَابِ الْمُنْقَرِجَةِ .

وَدَخَلَ الْجَمَاعَةُ إِلَى الْفَرْقَةِ الْمُقَابِلَةِ لِلْمَسَرِّ . فَوَجَدُوا مَائِدَةً مَلِكِيَّةً تَحْلُبُ لَهَا نَمُ
 «أَبِي مُحَمَّدٍ» وَصَاحِبِيهِ ، وَأَعْجَبَ «الطَّاهِرُ» خَاصَّةً بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي نُظِمَتْ عَلَيْهَا
 أَصْنَافُ الطَّعَامِ . وَآخَذَ كُلُّ مَكَانِهِ وَبَعْدَ بَضْعٍ دَقَائِقَ سُمِعَتْ «لِأَبِي مُحَمَّدٍ»

كَحَكَاةٍ أَمْسَكَ صَاحِبَاهُ عَلَى إِثْرِهَا عَنِ الطَّعَامِ وَتَرَجَّاهُمَا « سَيِّدِي مُصْطَفَى »
وَحَلَفَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُوَاصِلَا الْأَكْلَ ، فَأَيَّامًا شَدِيدَ الْإِبَاءِ ، وَبَقِيَ « أُتْسِي » الطَّاهِرُ
يَأْكُلُ بِشَوْبَةٍ حَتَّى أَلَحَّ الْمُضْطَيِّفُ لِمَعْرِفَةِ سَبَبِ إِسْكَائِكُمَا فَقَالَ صَاحِبُهُمَا :
- هَذِهِ عَادَتُهُمَا إِنَّهُمَا لَا يَقْوَيَانِ عَلَى أَكْلِ الدَّسِيمِ مِنَ الطَّعَامِ فَهَوَ يُخْتَفِيهِمَا .
عِنْدَ ذَلِكَ أَلْفَجَرَ أَحَدُهُمَا قَائِلًا :

- لَا تُصَدِّقُهُ ، فَهَوَ الَّذِي أَشَارَ عَلَيْنَا بِذَلِكَ وَقَالَ لَنَا لَا تُخَشَّيْنِي أَمَامَ « الْبَلَدِيَّةِ »
وَلَا تُظْهِرَا اللَّهْفَةَ وَإِذَا كَحَكَاةٌ أَمْسَكَ عَنِ الطَّعَامِ .

وَكَانَتْ الضَّحَكَةُ الْعَالِيَّةُ لِسَيِّدِي « مُصْطَفَى » وَدَمَعَانِ عَيْنَيْهِ ، وَالْكَأُؤُ عَلَى
الْكُرْسِيِّ ، بِنَا أَوْشَكَ بِهِ أَنْ يَشْرُقَ وَاسْتَرْسَلَ الْأَكْلُ فِي الْمَرْحِ وَالضَّحِكِ ، وَ « الطَّاهِرُ »
صَامِتٌ يَنْظُرُ إِلَى كُلِّ هَذِهِ الْحَرَكَةِ وَهُوَ مُنْشَغِلٌ بِالْحَيَاةِ الَّتِي هُيَتْ لَهُ وَبِبَابِ الْعَرْشِ الَّذِي
فُتِحَ فِي وَجْهِهِ تَمَّا قَبْلَ لَهُ .

وَانْتَهَتْ الضِّيَافَةُ وَالْفَقَ « سَيِّدِي مُصْطَفَى » مَعَ الطَّاهِرِ عَلَى أَنْ يَأْتِيَهُ فِي الْقَدِ ،
وَيُبَاشِرَ عِبَلَهُ هُنَا . وَعِنْدَ الْخُرُوجِ دَخَلَ الْجَمَاعَةُ « الْمُسْتَعَدَّ » مِنْ جَدِيدٍ ، وَاتَّجَهَ
الْقَرِيكَ إِلَى عُرْقَةٍ كَبِيرَةٍ ذَاتِ قَبْرِ وَمَقَاصِرٍ وَقَالَ « لِلطَّاهِرِ » :
- هَذِهِ عُرْقَتُكَ ... أَمَا الْعُرْقَةُ الْمُسْجَاوِرَةُ فَهِيَ مَكْتَبَتُكَ ...

بَابُ "الْخُضْرَةِ"

رَجَعَ الْجَمْعُ إِلَى ثُونِسَ بَعْدَ هَذِهِ الْمُسْحَةِ فِي بَارْدُو . وَرَاحَ وَالِدُ « الطَّاهِرِ » فِي حَالِ سَبِيلِهِ ، وَدَخَلَ « الطَّاهِرِ » عُرْفَتَهُ فِي « أَلْوَكَاةِ » بَعْدَ أَنْ رَبَّأَ أَدْبَاشَهُ ، وَهِيَ نَفْسُهُ يُفَادِرُهُ هَذِهِ الثَّقَبَةُ إِلَى حَيَاةِ الْقُصُورِ .

لَمْ يَتِمَّ تِلْكَ اللَّيْلَةُ إِلَّا قَلِيلًا ، وَكَفَنَ مِنْهُ الْأَرْقُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ مِنْ قَبْلُ . وَكَانَ يَهْوُهُ هَمَزًا كُلَّمَا رَاوَدَ جَفَنِيهِ الثُّعَاسُ وَيَقُولُ : أَنْتَ يَا « طَاهِرُ » كُنْتَ لَا تَعْرِفُ مِنْ لَذَّةِ إِلَّا النَّوْمِ ، تَدْفَعُهُ فِيهِجُمُ عَلَيْكَ ، وَتَضْرِبُهُ بِسَيَّاطِ أَلْيَقْظَةِ ، فَيَتَنَمَّرُ ، وَيَكْتَسِحُكَ ، لِتَفَرِّقَ فِي الْأَحْلَامِ أَوْ النَّوْمِ الثَّقِيلِ .

الْأَرْقُ يَجُوزُكَ وَخَرَا يَا « طَاهِرُ » وَيُصَوِّرُ لَكَ الْحَيَاةَ خُضْبًا لَمْ تَكُنْ لَتَعْرِفُهُ ، وَهِيَ الْبَسِيطَةُ فِي نَظْرِكَ ، الرُّخِيسَةُ ، الضَّالَّةُ الْمُضَلَّلَةُ . وَإِذَا بِهَا تَبْدُو لَكَ بَعْدَ رِحْلَةِ بَارْدُو ، بَحْرًا طَامِيًا ، جَلًّا شَامِعًا ، هَوًى عَمِيقَةً ، بَشَرَهَا لَيْسَ كَالْبَشَرِ .

وَتَبَادَرَتْ إِلَى ذَهَبِهِ حَالَاتٌ ، كَانَ يَذْكُرُهَا أَهْلُ الْقَرْيَةِ لِبَعْضِ أَقْرَبَائِهِ أَوْ مَعَارِفِهِ . وَكَيْفَ لَمْ يَتَسَكَّنُوا مِنْ دُخُولِ الْحَيَاةِ الْجَدِيدَةِ ، وَغَرِقَ مَرَكِبُهُمْ فِي جَهْلِهِمْ وَعَدَمِ تَقْدِيرِهِمْ لِلْأُمُورِ .

ثُمَّ عَاوَدَتْهُ فِكْرُهُ طَالَمَا شَعَرَ بِهَا ، وَهِيَ قَسَاوَةُ حَيَاةِ الْحَضَرِ ، وَالْغِلَاقُ حَلَقَاتِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَاسْتِغْلَالُهُمْ لِكُلِّ قَادِمٍ فِيهِ حَيَوِيَّةُ الطَّبِيعَةِ ، وَطَفَرُوتُهَا ، وَفِيهِ عَفْوِيَّةُ حَيَاةِ الرِّيفِ وَطَلَاقَتُهَا .

وَتَذَكَّرَ ابْنُ خُلْدُونٍ ، وَتَحَلَّيْلُهُ لِلْبَدْوِ وَالْحَضَرِ ، وَقِيَامَ الدُّوَلِ وَانْتِهَارَهَا ، وَلَكِنَّهُ تَذَكَّرَ أَنَّ ثُونِسَ كُلُّهَا بِكُلِّ سُكَّانِهَا هِيَ الْيَوْمَ خَارِجَةٌ عَنِ التَّارِيخِ ، تَعِيشُ عَلَى هَامِشِيهِ ، هُمْ أَهْلِهَا أَنْ يَنْصَلُّوا عَلَى الْقَوْتِ ، وَيَطْفَرُوا بِالْبَقَاءِ . فَأَيْنَ هُمْ مِنْ بِنَاءِ الدُّوَلِ وَصَنْعِ التَّارِيخِ ؟

وَمَاذَا يَكُونُ دَوْرُهُ مَعَ أَبْنَاءِ جُلْدِيَّتِهِ مِنْ عَلَيْهِ الْقُصُورِ سِوَى تَعَلُّقِ الْغُرْبِيقِ بِالْغُرْبِيقِ ؟

وَقَصَفَ الرُّعْدُ فِي تِلْكَ الْأَوْتِ ، وَنَزَلَ السَّطَرُ .. وَكَانَ السَّهَاءُ تُقْبِتُ ثَقْبًا . وَكَانَ
الْعُرْقَةُ مَرْكَبٌ تَدَافَعَتْهُ أَلْسِيَاهُ ، ثَلَقِي بِهِ عَلَى الصُّخُورِ النَّائِتَةِ الْحَادِثِ . وَغَمَرَ
« الطَّاهِرُ » الثَّعْبُ وَتَمَّ فِي تِلْكَ الزَّعَارِعِ نَوْمَهُ ، قَفَلَتْ بَابَ نَوْمَاتِهِ الْقَدِيمَةِ ، لِيُثَلَقِيَ
بِهِ فِي عَالَمٍ آخَرَ جَدِيدٍ .

إِسْتَنْقِظَ مُبَكَّرًا ، وَجَمَعَ أَدْبَاهُ ، وَدَفَعَ كِرَاءَ الْعُرْقَةِ ، وَخَرَجَ مِنْ « الْوَكَالَةِ » فِي
ذَلِكَ الْجَوِّ السَّمُطِرِ .

لَمْ يَكُنْ لِيُحِسَّ شَأْنِيَبَ السَّطَرِ ، وَهِيَ تَنْزِلُ عَلَى بُرْشِيهِ ، وَلَمْ يَكْتَرِثْ لِلْحَفْرِ
الْمَلَأَتْهُ مَاءً وَطِينًا ، يَغْرُقُ فِيهَا جِذَاهُ ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا مُصَوَّنًا ، لِيَضْحُ السَّهَاءُ
السُّلْتَقَفَ فِي شِبْهِ مُوسِيقَى رَكِيبَةٍ وَقَعَةٍ .

وَتَوَجَّهَ إِلَى « بَابِ سُؤْيَقَةٍ » وَرَكِبَ « التَّرَامَ » وَبَقِيَ مُتَتَبِّهَا فِي كُلِّ وَقْفَةٍ ، خَشْيَةً
أَلَّا يَنْطَلِقَ إِلَى السَّحَطَةِ السَّطْلُوبَةِ . وَلَكِنَّهُ ، عِنْدَمَا قَرَّبَ مِنْ « بَارْدُو » زَادَ السَّطَرُ
فِي النَّزُولِ وَأَصْبَحَ « التَّرَامَ » يَسِيرُ فِي بَحْرِ مِيزِ السَّيَاوِ وَكَانَهُ مَرْكَبٌ يَشْقُ عِبَابَ
الْمَحِيطِ .

لَعَنَ الْيَوْمَ الَّذِي صَادَفَ دُخُولَهُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي الْعَمَلِ ، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ هُوَ الْيَوْمَ
« السَّبْرُوكُ » الَّذِي يَخَافُهُ الْكَلْدِيَّةُ وَلَا يَذْكُرُونَهُ بِأَسْمِهِ ، وَهُوَ الْيَوْمَ الَّذِي يَسْتَقْبِلُ
فِيهِ النَّبَايُ الْأَعْيَانُ ، وَتَقَدَّمَ لَهُ الْأَمِيرُ لَطَائِعِهِ السَّعِيدِ كَمَا قَالَ « الْفَرِيكَ
مُصْطَفَى » الْبَارِحَةِ . يَوْمَ الْخَمِيسِ : لَا يَذْكُرُهُ أَهْلُ ثُونِسَ بِأَسْمِهِ صَرَاحَةً لِأَنَّهُمْ لَا
يَنْطَلِقُونَ بِعَدَدِ خَمْسَةِ ، وَكُلُّ مُسْتَقَاتِهِ ، خَوْفًا مِنَ الْعَيْنِ « وَالْعَيْنُ حَقٌّ وَالطَّبِيرَةُ
بَاطِلٌ » . « الْفَرِيكَ مُصْطَفَى » سَيَذْهَبُ مُبَكَّرًا الْيَوْمَ إِلَى قَصْرِ النَّبَايِ لِحُضُورِ حَفْلِ
الطَّائِعِ . وَهَذَا فَإِنِّي لَنْ أَجِدَهُ فِي إِلْبَيْتِ وَسَلْتَقِي بِأَيِّهِ « الْعَادِلِ » .. « الْعَادِلِ » ..
كَيْفَ هُوَ ؟ ... إِنَّهُ مُتَقَفٌ مُهَذَّبٌ كَيْسٌ وَدُودٌ ... هَلْ صَحِيحٌ مَا يَقُولُهُ لِي وَاللَّيْلِ .
إِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَعْشُورِ الْكَلَامِ ، وَخَاصَّةً مِنْ الْخُصَرِ . فِيهِ اللِّسَانُ حَلَاوَةٌ وَطَلَاوَةٌ

وَلَكَيْهَا تَعْقِبُهَا الْمَرَارَةُ .. ؟ لَا إِنَّ هَذِهِ الْعَائِلَةَ مِنْ عَلَيْهِ الْقَوْمِ وَهِيَ لَا تُشْبِهُ غَيْرَهَا ...
وَسَأَتَعْلَمُ مِنْهَا الْكَبِيرَ وَالْكَبِيرَ وَأَتَمَتَّعُ بِالْعَيْشِ الدِّينِ وَالطَّعَامِ الشَّهْوِيِّ وَالْفِرَاشِ
الْمُبْسُوطِ ... وَالْمَكْتَبَةِ مَلَأَتْهُ كُتُبًا ... سَافِرًا وَسَاقُونَ مِنَ الْمَرْمُوقِينَ بَيْنَ
أَصْحَابِي ... وَلَكِنْ أَلْعَلَّ مَذَا سَيَكُونُ هَلْ هُوَ مُرْهِقٌ ؟

وَفِي ذَلِكَ أَلَوْفَتِ وَصَلَ « التَّرَامِ » إِلَى « بَارْدُو » وَنَزَلَ « الطَّاهِرِ » فِي الْبَحْرِ
الطَّلْمِي ، وَشَرَّ سِرَّيْهِ وَأَبْقَى جِذَاءَهُ لِأَنَّهُ أَخَذَ مِنَ الْمَاءِ مَا لَا يَخَافُهُ عَلَيْهِ . وَاتَّجَعَتْ
نَحْوَ قَصْرِ « الْفَرِيكِ مُصْطَفَى » مُحَاوِلًا الْإِتِّعَادَ عَنْ الْحَفِيرِ .

كَانَ الْمَطَرُ رَذَاذًا فِي ذَلِكَ أَلَوْفَتِ . وَلَكِنْ الْمَاءُ يَجْرِي كَالنَّهْرِ ، وَخَاصَّةً عِنْدَمَا
اتَّجَعَتْ نَحْوَ طَرِيقِ « مَاطِرِ » حَيْثُ قَصْرُ « الْفَرِيكِ » . كَانَ لَوْنُ هَذَا النَّهْرِ أَصْفَرَ
طَفْلِيًا ، يَجْرِي الْمِجَارَةَ ، وَأَغْصَانُ الْأَشْجَارِ فِي قُوَّةِ كِبَرِيَّةٍ ، وَيَتَلَوَّى الْبَوَائِاتُ كَانَ
« الطَّاهِرِ » يَخَافُهَا وَيَحَاوِلُهَا ، مُقْتَنِيًا أَثَرُ بَعْضِ الْهَارَةِ الْمُسْتَعْوِدِينَ عَلَى هَذَا
الْمُخْضَمِ .

وَلَمَّحَ مِنْ بَعِيدِ عَرَبَةٍ فَخَمَّةٌ تَجْرُهَا أَرْبَعَةُ حَيُولٍ ، تَتَقَدَّمُ بِطُءٍ ، وَتَحَاوِلُ أَنْ
تُبْتَعِدَ عَنِ التِّيَّارِ الدَّافِقِ نَحْوَ الْحَفِيرِ وَلَكِنَّهُ تَعَجَّبَ عِنْدَمَا رَأَاهَا قَبِيلُ بِسْرَعَةٍ ، وَتَزَلُّ
حَيُولُهَا فِي انْجِبَاوِ الْخَنْدَقِ وَتَنْتَهَاوِي فَاقِدَةً تَوَارُثَهَا ، وَالسَّائِقُ مُسَبِّكٌ بِالْقُوَّةِ ، وَهُوَ
يُحَاوِلُ إِتْهَاصَ الْحَيُولِ بِدُونِ جَدْوَى . وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَفَزَ إِلَى الْجِهَةِ الْمَعَاكِسَةِ ،
الْقَلِيلَةِ الْمَاءِ نِسْبًا ، وَفَتَحَ بَابَ الْعَرَبَةِ ، وَحَمَلَ مِنْهَا رَجُلًا طَوِيلَ الْقَامَةِ وَوَضَعَهُ
فِي الْمَاءِ قَبْلَ أَنْ تَنْجَرَّ الْعَرَبَةُ نَحْوَ الْهَارِيَّةِ مِنْ دُونِ أَنْ يَسْمَعَ شَائِسِيَّةَ الرَّجُلِ مِنْ
أَنْ تَسْقُطَ فِي الْوَحْلِ .

وَصَلَ « الطَّاهِرِ » وَبَعْضُ الْهَارَةِ إِلَى مَكَانِ الْحَادِثِ فَرَأَى إِلَى جَانِبِ السَّائِقِ
« الْفَرِيكِ مُصْطَفَى » فِي ثِيَابِهِ الْفَخْمَةِ وَثِيَابِيَّةِ اللَّامِعَةِ وَشَائِسِيَّةِ الْمَلْطُخَةِ
بِالطَّيْنِ ، وَهُوَ غَارِقٌ إِلَى رُكْبَتَيْهِ فِي هَذَا الْمَاءِ الْمَلْطُوطِ الْأَصْفَرِ اللَّزِجِ .

لَمْ يَتَصَوَّرَ «الطَّاهِر» أَنْ يَجِدَ فِي اسْتِقْبَالِهِ «الْفَرِيك» فِي هَذِهِ الْحَالَةِ
السُّزْرِيَّةِ ، وَلَمْ يَحِدْ بُدْأً مِنَ السَّلَامِ عَلَيْهِ مَعَ الاسْتِلْطَافِ ، فَمَا كَانَ مِنَ «الْفَرِيكِ
مُصْطَفَى» إِلَّا أَنْ قَالَ :

- «مُعَوَّمَةٌ» نَحْنُ نَنْتَظِرُ مِنْذُ زَمَانٍ هَذِهِ «الْمَطْوَةِ» وَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا بِهَا .
وَمَا كَانَ مِنَ «الطَّاهِر» إِلَّا أَنْ أَخَذَ بِيَدِ «الْفَرِيك» وَتَرَكَ السَّائِقَ يُعَالِجُ الْعَرَبَةَ
وَالْخُيُولَ وَانْجَبَهَا بِصُعُوبَةٍ نَحْوِ الْقَصْرِ . وَلَكِنَّهَا لَمْ يَخْطُوا خُطَوَاتٍ حَتَّى سَمِعَا
صَوْتَ غَرِيقٍ يُنَادِي :

- «غَاقٌ» ... «غَاقٌ» ... إِجْرُوا لِي ... «وَالِكُ» ... «وَالِكُ»

وَلَجَّ «الطَّاهِر» رَجُلًا فِي الْخَفِيرِ الْمَقَابِلِ ، قَدْ أَلْحَلَّتْ عِبَامَتُهُ ، وَطَفَّتْ عَلَى سَطْحِ
الْهَاءِ ، وَلَا يَظْهَرُ مِنْهُ إِلَّا الرَّأْسُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ . فَلَمْ يَتَسَّالَكَ أَنْ قَفَرَ إِلَيْهِ وَرَمَى لَهُ
بَطْرَمِ الْعِبَامَةِ وَخَرَضَهُ عَلَى مَسْكِيهَا بِقُوَّةٍ وَجَذَبَهُ جَذْبَةً أَخْرَجَتْهُ بِهَا مِنَ الْخَفِيرِ .
وَلَمَّا هَذَا النَّاسُ مِنْ رَوْعِ الْغَرِيقِ ، وَأَبْعَدُوهُ عَنِ الْهَاءِ الطَّاهِرِي عَزَقُوا فِيهِ «مُؤَدَّبٌ»
بَارِئًا . فَقَالَ «الطَّاهِر» فِي نَفْسِهِ :

- أَيُّ يَوْمٍ هَذَا غَرِقَ فِيهِ «الْعِلْمُ» وَ «الْمَجَاهِدُ»

وَصَحِيحَتِ السَّمَاءُ عِنْدَ ذَلِكَ لَمَّا أَطْلَتِ الشَّمْسُ مِنْ وَرَاءِ السُّحُبِ ، خَمَاءٌ كَالْجَمْرَةِ
الْمُتَوَقِّدَةِ . وَهَبَتِ الرِّيحُ قُوَّةً ، فَجَعِلَتِ السُّحُبَ فَهِي تَجْرِي كَالْمَرْكَبِ الْمَفْتُوحِ الشَّرَاعِ
بِالْوَانِ عَدِيدَةٍ ، بَهِيضَةٍ وَرَمَادِيَّةٍ وَسَوْدَاءَ . بَيْنَ بَيْتَيْهِ ظَهَرَ قَوْسٌ قُرْصِي زَاهِي الْأَلْوَانِ ، فَتَعَجَّبَ
«الطَّاهِر» لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ السَّمَاءَ فِي هَذَا الْمَظْهَرِ إِلَّا عِنْدَ الْغُرُوبِ . وَانْعَكَسَتْ أَشِعْمَةُ
الشَّمْسِ عَلَى الْهَاءِ الْمُتَرَامِي . وَأَعْطَتِ لِلْوَيْهِ الطُّفْلِيِّ بَرِيقَ الْفَخَّارِ عِنْدَمَا يَخْرُجُ مِنَ الْفَرَسِ
وَقَالَ فِي نَفْسِهِ :

- شَمْسُهُمْ لَيْسَتْ كَشَمْسِنَا ، وَسَمَاؤُهُمْ غَيْرُ سَمَايَتِنَا وَقَوْسُ قُرْصِهِمْ اخْتَارَ الصَّبَاحَ عَلَى
الْغُرُوبِ .

وَتَوَجَّهَ «الطَّاهِر» وَ «الْفَرِيك» عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ إِلَى الْقَصْرِ ، وَالنَّاسُ يَسْتَظِلُّونَ لَهُ . وَمَا

لَيْتَ أَنْ سَمِعَ بِذَلِكَ أَلْقَدُمُ فَهَرَّغُوا وَمَعَهُمُ الْخَيْلُ فَأَرْكَبَ أَحَدُهُمْ « الْفَرِيكَ » وَقَدَّمُوا إِلَى « الطَّاهِرِ » بِغَلَا فَرَكَبَهُ بِخِفَّةٍ . وَفَهُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَنْ حَالَهُ قَدْ تَبَدَّلَ ، وَائُهُ أَصْبَحَ خَيْرًا مِنْ أَبِيهِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ مِنَ الدَّوَابِّ إِلَّا حِمَارَهُ الْفُلْكَلُورِي .

وَدَخَلَا الْقَصْرَ وَاهْلُهُ يَتَعَجَّبُونَ كَيْفَ تَتَطَاوَلُ الطَّبِيعَةُ عَلَى « الْفَرِيكَ » وَيَتَغَيَّرُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ الرَّثِيَّةُ ؟! إِنَّ هَذَا يُشْبِي بِشَرِّ كَثِيرٍ ... وَصَادَفَ أَيْضًا بِجِيءَ « الطَّاهِرِ » ... وَفَهُمْ لَمْ كَانَ أَهْلُ الْقَصْرِ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ نَظْرَةً فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْكُرْهِ ...

قَالَ فِي نَفْسِهِ : مَتَى كُنْتُ أَجِدُ الْاِخْتِرَامَ ؟ أَنَا إِنْسَانٌ مِنَ الشَّعْبِ ، تَعَوَّدَ عَلَى الْعَيْشِ الْبَسِيطِ وَالْمَكَانَةِ الْوَضِيعَةِ . إِنَّ حَيَاتِي كَالْمَرْكَبِ يَدُونَ وَجْهَةً ، تَتَفَادَّهُ الْأَمْوَاجُ . وَفِي هَذِهِ الْمَرَّةِ دَفَعْتَنِي اللَّجْجُ إِلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ الَّتِي لَا تُشْبِي فِي عَيْشِ أَهْلِهَا مَا دَرَجْنَا عَلَيْهِ لَعَنُ كَافَّةِ التُّونِسِيِّينَ مِنْ عَيْشٍ . فَلَا تَكْتَشِفُ هَذِهِ الْجَزِيرَةُ ، وَلَاقَتْ مِنْ خَيْرَاتِهَا ، حُلُوبًا وَمَرْهًا ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ لِنَنْظُرُ فِي الْأَمْرِ .

وَأَتَتْهُ أَهْلُ الْقَصْرِ وَالْقَدُمُ « بِالْفَرِيكَ » وَ « الطَّاهِرِ » وَتَوَجَّهَتْهُمَا إِلَى خَمَامٍ يُشْبِي مَا عَرَفَهُ مِنَ الْخَمَامَاتِ فِي تُونِسَ : « بَيْتُ السُّخُونِ » وَالْمَطَاهِيرِ وَالْمَقْصُورَةِ وَغَيْرَهَا . وَفَهُمْ أَنْ الْقَصْرَ جَزِيرَةً تَحْتًا حَيَاتَهَا يَسْمَعُونَ عَنِ النَّاسِ ..

* * *

بَعْدَ أَنْ مَرَّ بِسَرَاحِلِ الْمَهَامِ الْعَرَبِيِّ مِنْ « بَيْتِ السُّخُونِ » حَيْثُ قَبِعَ مَدَّةً أَحْسَنَ فِيهَا بِالْفَاسِيَةِ تَضِيقُ ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى بَيْتِ الْبَارِدِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ « وَرَفَلِي » مَا لَيْتَ أَنْ قَامَ إِلَيْهِ وَبَسَطَهُ أَرْضًا وَبَدَأَ يَمْسُدُهُ بِلَمَسَاتِ الْعَارِفِ لِمُهْمَتِهِ . فَاسْتَلَذَّ « الطَّاهِرِ » ذَلِكَ فِي الْأَوَّلِ ، ثُمَّ بَدَأَ يَسْتَمِيعُ إِلَى عِظَامِهِ تَتِينُ تَحْتَ وَطْأَةِ كَفِّ وَجَمْعِ « الطَّيَابِ » ثَارَةً ثُمَّ قَدَمِهِ ثَارَةً أُخْرَى . وَأَصْبَحَ يَحْسُ بِأَعْضَائِهِ وَعَضَلَاتِهِ كَاللَّعْبَةِ فِي يَدِ هَذَا « الطَّيَابِ » الْهَاجِرِ وَهُوَ يَنْتَفِئُهَا يَحْتَمَةً وَيَسْرَةً ، فَسَمِعَ لِذَلِكَ طَرَقَاتٍ صَغِيرَةً ، رَفِيقَةً ، مُنْعَمَةً كَأَنَّهَا التَّرْقِيعُ عَلَى آلَةٍ وَزُنٍ .

وَقَصُورَ نَفْسَهُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ وَهُوَ فِي ذَلِكَ الْبَحَارِ الْمُتَحَوِّلِ ضَبَابًا ، قَدْ انْتَقَلَ إِلَى عَالَمٍ تَتَأَسَّرُ الْأَرْوَاحُ ، وَرَجَعَ إِلَى الطُّورِ الْبَذَائِي ، فِي قِصَّةِ أَوَّلِ مَنْ أَخَذَ الْعُودَ آلَةً لِلطَّرَبِ : وَهُوَ أَحَدُ أَبْنَاءِ آدَمَ ، عِنْدَمَا مَاتَ لَهُ ابْنُهُ ، فَعَلَّقَهُ فِي شَجَرَةٍ وَكَانُوا آنَكَ لَا يَعْرِفُونَ الْقَبْرَ ، فَتَقَطَّعَتْ أَرْوَاحُهُ حَتَّى بَقِيَ مِنْهُ فَخِذُهُ ، وَالسَّاقُ وَالْقَدَمُ وَالْأَصَابِعُ فَاعَادَ حَسْبًا قَرْقَفَهُ وَالصَّنْفَةَ

فَجَعَلَ صَنْدَرُ الْعُودِ كَالْفَخِيزِ ، وَعَثَقَهُ كَالسَّاقِ ، وَرَأَسَهُ كَالْقَدَمِ ، وَالْمَلَأُوهُي كَالْأَصَابِعِ ،
وَالْأَوْتَارَ كَالْعُرُوقِ ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ وَتَنَحَّ عَلَيْهِ فَتَنَقَّقَ الْعُودُ ...
وَتَذَكَّرَ « الطَّاهِرُ » حِينَئِذٍ شِعْرَ الْحَمْدِ وَنَبِي إِذْ قَالَ :

وَسَاطِطٍ يَلْسَانٍ لَا ضَمِيرَ لَهُ كَأَنَّهُ فَخِيزٌ نَبِطْتُ إِلَى قَدَمِ
يُبْدِي ضَمِيرَ سِوَاهُ فِي الْحَدِيثِ كَمَا يُبْدِي ضَمِيرَ سِوَاهُ مَنْطِقُ الْفَلَمِ
وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ اسْتَوَى الطَّيِّابُ ، عَلَى ظَهْرِ « الطَّاهِرِ » وَاقِفًا ، وَأَرَادَ أَنْ
يَتَّكِدَ فِي ثَلَاثِهِ بِجِسْمِ الْمُسْكِينِ . وَأَحْسُ « الطَّاهِرُ » أَنَّهُ لَمْ يَتَحَوَّلْ بَعْدُ ، مَتَاعًا
مِنَ الْأَمْتَعَةِ ، وَلَا هُوَ مِنَ الْأَمْوَاتِ فَأَشَارَ إِلَيْهِ مُتَوَسِّلًا أَنْ يَكُنْ فَرَضِي
« الطَّيِّابُ » بِذَلِكَ مُرْعَبًا وَهُوَ يَتَعَجَّبُ مِنْ هَذَا الْمُسْكِينِ الَّذِي لَمْ يَسْتَكْمِلْ لَذَّةَ
الشَّمِيدِ .

وَتَحَوَّلَ « الطَّيِّابُ » « بِكَاسِيَةِ » يَنْظُفُ جِلْدَ « الطَّاهِرِ » وَيَجْمَعُ لَهُ أَوْسَاحَهُ
لِفَائِفَ مُسْتَطِيلَةٍ ، وَيَكْدُسُهَا فِي مَكَانٍ بَارِزٍ . وَأَحْسُ « الطَّاهِرُ » بِالْمَجْلَرِ يَغْمُرُهُ
وَبِالْعَرَقِ يَتَصَبَّبُ عَلَيْهِ وَكَأَنَّهُ مَازَالَ فِي « بَيْتِ السُّخُونِ » وَمِنْ أَيْنَ لَهُ أَنْ يَعْرِفَ
أَنَّهُ وَسِعَ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ ؟ ... صَحِيحٌ . كَانَ يَذْهَبُ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرٍ إِلَى الْحَمَامِ
وَلَكِنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ أَجْرَةِ « الطَّيِّابِ » فَيَتَعَاوَنُ هُوَ وَآخِذٌ أَصْدِقَائِهِ عَلَى طَرَحِ
وَسَخِ الزَّمَانِ وَلَكِنْ مِنْ أَيْنَ لَهَا هَذِهِ الْقُدْرَةُ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الْأَوْسَاحِ .

سُبْحَانَ اللَّهِ ... كَيْفَ كَانَ يَسْتَطِيلُ « الطَّيِّابُ » تَكْدِيسَ لِفَائِفِ الْوَسَخِ ؟
فَكَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَبْقِيَهَا لِيَضَعَهَا فِي الْمَتَحَفِ وَيَكْتُبَ تَحْتَهَا مِثْلَهَا رَأَاهُ فِي « دَارِ
الْعَجَائِبِ » بِبَارَدُو ؛ عَجِيبَةٌ مِنْ عَجَائِبِ الدَّهْرِ : وَسَخٌ مُعْتَقٌ أَفْرَزُهُ بَدَنُ « الطَّاهِرِ » .
وَسُرُّ عِنْدَمَا لَمْ يَرَهُ الْفَائِفَ أَحَدٌ غَيْرُهُ وَانْزَاحَتْ عَنْ مَكَانِهَا وَقَدْ جَرَفَهَا الْمَاءُ إِلَى
الْبَالُوَةِ . فَتَنَفَّسَ الصُّعْدَاءُ وَأَحْسُ بِجِسْمِهِ يَخْفُفُ وَزُثْهُ فَكَأَنَّهُ رُكِبَتْ لَهُ جَوَانِحُ تَرْفَعُهُ
عَنِ الْأَرْضِ وَقَالَ لَهُ « الطَّيِّابُ » :

- إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَحِيحُ سَالِمٍ .

وَلَقَدْ فِي « الْبَشَاكِيرِ » وَأَحْرَجُهُ إِلَى « الْمَقْصُورَةِ » فَوَجَدَ « الْفَرِيكَ مُصْطَفَى »
يُصَلِّي فَحَاذَاهُ ، وَتَمَدَّدَ فِي رُكْنٍ مِنَ الْعُرْفَةِ وَبَقِيَ يَسْتَمْرِي شَوْهَ الرَّاحَةِ الثَّامَةِ .
أَطْلَقَ « الْفَرِيكَ مُصْطَفَى » السَّلَامَ . فَقَالَ لَهُ « الطَّاهِرُ » : « تَقْبَلِ اللَّهُ »
فَأَجَابَهُ الْفَرِيكَ : مِثِّي وَمِنْكَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ « وَأَرْدَفَ :

- يَا سَيِّ « الطَّاهِرُ » : نَحْنُ كُلُّنَا مُسْتَبْشِرُونَ بِقُدُومِكَ ... وَقَدْ أَمْطَرَنَا اللَّهُ وَالنَّعَمَ
عَلَيْنَا بِنِعْمَتِهِ . سَتَكُونُ السَّنَةُ طَيِّبَةً ، وَتَدْرُ عَلَيْنَا ضِعَاعَاتِنَا الْحَبِيرَ الْكَثِيرَ أَمَا
مَمْرُورُ بَكَ يَا « طَّاهِرُ » .

- إِنْ شَاءَ اللَّهُ سَأَكُونُ عِنْدَ حُسْنِ الظَّنِّ .

- هَذِهِ مَلَاسِيكَ سَيُعِينُكَ عَلَى لِبَاسِهَا الْعَمُ « حُسَيْنٌ » .

وَنَظَرَ « الطَّاهِرُ » إِلَى بَدَلَتِهِ مُعَلَّقَةٍ أَمَامَهُ فَتَعَجَّبَ فِي نَفْسِهِ كَيْفَ يَلْبَسُ هَذَا
اللبَّاسَ وَهُوَ الْمُتَعَوِّذُ عَلَى الْكِسْوَةِ الشَّعْبِيَّةِ الْبَسِيطَةِ .

وَتَقَدَّمَ الْعَمُ « حُسَيْنٌ » وَبَدَأَ يُتَشَفُّ لَهُ جِسْمَهُ ثُمَّ أَعْطَاهُ الْقَبِيصَ فَلَبِسَهُ وَتَنَاوَلَهُ
« قَلْبُصُونًا » يَصِلُ إِلَى الْقَدَمَيْنِ فَتَقَمِّصُهُ وَرَبَطَ كُلَّ طَرَفٍ مِنْهُ بِشَرِيطٍ قَصِيرٍ . ثُمَّ
مَرَّرَ أَمَامَهُ سِرًّا أَسْوَدَ وَكَأَنَّهُ يُصَارِعُ ثُورًا فِي حَلَبَةٍ مِنْ حَلَبَاتِ إِسْبَانِيَا فَأَخَذَهُ
مِنْهُ وَلَبِسَهُ وَأَخِيرًا تَزَيَّنَ بِسِتْرَةٍ عَصْرِيَّةٍ وَهِيَ نَوْعٌ مِنَ « الرِّيدُتْقُوتِ » وَالْبِسَةُ
شَاشِيَّةٌ « بِكَبُيْطَةٍ » طَوِيلَةٍ فَرَضَ ذَيْلُهَا عَلَى كَتِفَيْهِ الْأَيْسَرِ .

وَلَقَفَ « الطَّاهِرُ » بِهَذَا اللِّبَاسِ أَمَامَ الْحِزَابِ ، فَلَمْ يَعْرِفْ نَفْسَهُ ، وَابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً
عَرِيضَةً ، وَلَكِنْ خَوَاطِيرُهُ انْقَطَعَتْ عَنِ الشُّوَارِدِ عِنْدَمَا قَالَ لَهُ « الْفَرِيكَ
مُصْطَفَى » :

- صَعُخَ يَا « طَّاهِرُ » ، إِبْتَ إِلَى هَذَا لِأَمَلِكَ ، هَذِهِ الْبَدَلَةُ مُؤَيَّتَةٌ لَكَ ... مَا شَاءَ
اللَّهُ مَا شَاءَ اللَّهُ ..



طاهر

وَقَبِلَ « الْفَرِيكَ » « الطَّاهِر » وَعِنْدَ ذَلِكَ جَاءَ الْخَلَاقُ وَسَوَّى لَهُ شَوَارِبَ رَقِيقَةٍ عَلَى صُورَةِ مَرْكَبٍ أَطْرَافُهَا مُدْبِئَةٌ ، جَعَلَتْهُ يَظْهَرُ بِسَطْطِهِ فِيهِ رُجُلَةٌ وَأَنْفُهُ أَكْثَرُ مِنَ الْعَادَةِ .

وَنَزَلَ مِنَ الْمَقْصُورَةِ وَلَبَسَا حِذَاءَ يَهْمَا وَخَرَجَا مِنْ بَابٍ صَغِيرٍ جَدًّا ، أَفْضَى بِسُرْعَةٍ إِلَى بَهْوٍ صَغِيرٍ خَرَجَا مِنْهُ إِلَى الْفِنَاءِ الْمُسْتَقْبِ .

وَمِنْ هُنَاكَ دَخَلَا قَاعَةً فَحَمَّةً وَجَدَا فِيهَا زَوْجَةَ « الْفَرِيكَ » وَامْرَأَةً كَبِيرَةَ السِّنِّ وَفَتَاةً طَوِيلَةَ الْقَامَةِ رَقِيقَةَ الْمَلَامِحِ فَقَدَمَهُنَّ جَمِيعًا إِلَى « الطَّاهِر » الَّذِي سَلَّمَ عَلَيْهِنَّ فِي حَيَاءٍ كَبِيرٍ مُتَعَجِّبًا كَيْفَ أَنَّ النِّسَاءَ فِي ثُونَسٍ لَا يَحْتَاجِينَ عَنِ الرِّجَالِ .

- قَالَ الْفَرِيكَ : هَذِهِ عَائِلَتُكَ وَأَنْتَ مِنَ الْيَوْمِ ابْنِي .

- رَبِّي يَسْتُرُ .

ثُمَّ قَهْوَلًا إِلَى الْمَكْتَبَةِ وَبَعْدَ ذَلِكَ إِلَى عُزْقَةٍ مِنَ الثَّمَطِ الْقَدِيمِ .

- هَذِهِ عُزْقَتُكَ قُرْبَ الْمَكْتَبَةِ حَيْثُ مَكْتَبُكَ ، أَبْقِيكَ بِحَيْرٍ وَارْتَحَ مَا شِئْتَ . وَخَرَجَ « الْفَرِيكَ » مُسْرِعًا .

* * *

أَقْفَلَ الْبَابَ عَلَى نَفْسِهِ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى الْمَرْأَةِ وَبَدَأَ يَنْظُرُ إِلَى هَيْئَتِهِ بِالْجَمَلَةِ وَالْتَفْصِيلِ وَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ :

- مَا شَاءَ اللَّهُ ...! « الطَّاهِر » الْمَتَعَوِّذُ الْمُنْمِي حَافِيًا بَيْنَ الْمَسَالِكِ الْمُخْزِيَةِ ، الْمُتَنَائِرَةِ حَجَرًا يَتَحَوَّلُ إِلَى ابْنٍ مِنْ أَبْنَاءِ السَّرَاةِ ، فِي هَيْئَةٍ كَأَن يَتَحَاشَى أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مِثْلِهَا فِي دُرُوبِ ثُونَسٍ الْعَاصِمَةِ حَيَاءً مِنْ نَفْسِهِ ، وَخَشْيَةً مِنَ الْوَعْيِ بِالْفَارِقِ الصَّارِخِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ النَّاسِ ... وَالْآنَ يَقْفِزُ بَيْنَ لَيْلَةٍ وَصَحَاهَا قَفْزَةً تُبْعِدُهُ عَنْ وَضْعِهِ الْأَوَّلِ أَسَاطًا وَأَشْوَاطًا قُرُونًا وَقُرُونًا ... مَا كَانَ أَحْفَ عَلَيْهِ لِبَاسُهُ

الْقَدِيمُ ... وَهَذَا اللَّبَّاسُ ثَقِيلٌ عَلَيْهِ هُوَ فِي وَزْنِ الْقُرُونِ الَّتِي تَفْصِلُ بَيْنَ وَضْعِهِ
الْقُرُونِيِّ وَوَضْعِهِ الْحَضَرِيِّ .

وَأَحْسَنُ بِثِقَلِ أَجْفَانِهِ تَذَعُّهُ إِلَى التَّمَنُّدِ عَلَى الْفِرَاشِ . فَخَلَعَ جِذَاءَهُ وَتَحَسَّسَ
نُغْمَةَ الْأَعْطِيطِ وَالْمِخْدَةِ وَاسْتَلْقَى هَكَذَا بِدُونِ أَنْ يَخْلَعَ سِتْرَتَهُ أَوْ شَاشِيَتَهُ .
كَانَ بَعِيدًا عَنْ كُلِّ حَرَكَةٍ بِالْقَصْرِ اللَّهُمَّ إِلَّا مَا يَسْمَعُهُ مِنْ خَرِيرِ السِّبَا فِي
الْبُسْتَانِ ، وَتَفَقُّعِ بَعْضِ الضَّفَادِعِ وَتَرْزِيمَةِ الْبُسْتَانِيِّ الْبَعِيدَةِ . كُلُّ هَذِهِ الْأَصْوَاتِ
الْحَفِيفَةِ كَانَتْ تُهْدِئُهُ وَتَذَعُّهُ إِلَى الْإِخْلَادِ إِلَى النَّوْمِ بَعْدَ مَحْنَتِهِ مَعَ « الطَّيِّابِ »
وَحُضْرِهِ السِّبَا الرَّاحَةِ وَلَيْلَتِهِ الْمُرْقَةِ .

أَفَاقٌ مَدْعُورًا عَلَى طَرَقٍ خَفِيفٍ ، رَقِيقٍ ... فَقَفَزَ قَفْزَةً لَيْسَ مَعَهَا جِذَاءُهُ بِسُرْعَةٍ
وَتَوَجَّهَ إِلَى الْبَابِ وَفَتَحَهُ بِرَفْقٍ فَوَجَدَ تِلْكَ الْفَتَاةَ الرَّقِيقَةَ ، وَاقِفَةً ، وَقَالَتْ لَهُ فِي
حَيَاءٍ :

- الطَّعَامُ جَاهِزٌ وَ « سِيَّيْ » يُتَأَدَّى .

وَمِنْ دُونِ أَنْ تَسْمَعَ مِنْهُ صَوْتًا مَرَّتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ خَارِجَةً إِلَى الْبَهْرِ فَاتَّجَهَ إِلَى بَيْتِ
الْحِمَامِ وَأَصْلَحَ مِنْ شَأْنِهِ وَمَرَّ بِالْمَكْتَبَةِ فَوَجَدَ « الْعَادِلَ » يَتَهَيَّأُ لِلْخُرُوجِ .
- عَلَى السَّلَامَةِ يَا طَاهِرَ قُدُومِكَ مُبَارَكُ .

- اللَّهُ يُسَلِّمُكَ ...

- هَيَّا نَذْهَبْ إِلَى تَنَاوُلِ طَعَامِ الْغَدَاءِ .

وَتَعَدَّى « الطَّاهِرُ » مَعَ « الْفَرِيكِ مُصْطَفَى » وَ « عَادِلَ » وَخَذَهُمْ فِي ذَلِكَ
الْيَوْمِ . لِأَنَّ زَوْجَةَ الْفَرِيكِ اعْتَذَرَتْ وَبَقِيَتْ تِلْكَ الْفَتَاةُ غَيْرُ بَعِيدٍ تَسْتَجِيبُ
لِطَلَبَاتِ سَيِّدِهَا ... عَرَفَ أَنَّ اسْمَهَا زُبَيْدَةُ ... وَفَهِمَ أَنَّهَا الْمُتَصَرِّفَةُ فِي الْقَصْرِ
وَالْمُحْتَرَمَةُ فِي ذَلِكَ الْبَيْتِ فَهَالَ إِلَيْهَا قَلْبُهُ .

* * *

عَرَفَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ نَوْعَ الْأَعْمَلِ الْمُنَاطِ بِمُعْذَرَتِهِ . وَتَسَلَّمَ دَفَاتِرَ الْحِسَابَاتِ ،

وَفَهُمْ طَرِيقَةُ مَسْكِيهَا ، وَعَلِمَ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَذْهَبَ مِنْ حِينَ إِلَى آخِرِ مَعَ « الْفَرِكِ مُصْطَفَى » لِنَقْلِ الضَّيَعَاتِ وَتَيَقَّنَ أَنَّ لَهُ مُتَسَعًا مِنَ الْوَقْتِ لِلْغَرْفِ مِنَ الْكُتُبِ ، وَهُوَ الَّذِي سَرَّهُ أَكْثَرَ مِنْ مَبْلَغِ مُرْتَبِهِ ، وَجَعَلَهُ يَرْتَاحُ إِلَى وَضْعِهِ الْجَدِيدِ رَغْمَ مَا فِيهِ مِنْ ثِقَلِ كُلْفَةِ الْحَذَرِ وَالتَّوْقِي ، وَوَطَاقَةِ الْعَلَاقَاتِ الْمَشْهُوبَةِ بِفُرُوضِ الْوَلَاءِ وَالطَّاعَةِ وَطُقُوسِ الْمُرَاسِمِ وَالتَّشْرِيفَاتِ . وَلَكِنَّهُ كَانَ يَحْسُ بِأَن شَيْئًا جَدِيدًا لَمْ يَعْرِفْهُ مِنْ قَبْلُ ، وَارْتَاحَ لَهُ ، أَضْيَفَ إِلَى وَضْعِهِ الْمُتَقَلَّبِ ، وَجَعَلَهُ يُفَكِّرُ مِنْ حِينَ إِلَى آخِرٍ تَفْكِيرًا مُتَقَطَّعًا لَدِيدًا ... لَا تُشْبِهُهُ الْأَكْلَةُ الطَّيِّبَةُ الَّتِي ذَاقَهَا فِي هَذِهِ الطَّوْهِيَةِ ، وَلَا الْفِرَاشُ اللَّيِّنُ الَّذِي عَرَفَهُ مُنْذُ حِينَ ، وَلَا اللَّبَاسُ النَّاعِمُ الْمُتَزَيِّنُ بِهِ فِي هَذَا الْيَوْمِ الْمُبَارَكِ .

هُوَ تَفْكِيرٌ فِيهِ رَقَّةٌ تُشْبِهُ رَقَّةَ قَوَامِ تِلْكَ الْفَتَاةِ ، وَرَقَّةٌ نَظَرَتْهَا ، وَرَقَّةٌ مَلَأَتْهَا ، وَرَقَّةٌ تَبَرَّأَتْهَا ، وَرَقَّةٌ أَسْمِيهَا : « زُبَيْدَةُ » فِيهِ نُعُومَةٌ كُنُوعُومَةٍ الْأَسْمِ الْمُسْتَقْتِ مِنْ أَسْمِيهَا .

هُوَ شُرُودٌ فِيهِ إِحْسَاسٌ بِالرَّقَّةِ أَعَانَهُ عَلَيْهِ الصَّمْتُ الْجَائِمُ حَوْلَهُ . وَفَهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَشُدَّهُ إِلَى هَذِهِ الدَّارِ أَيُّ شَيْءٍ أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ الرَّقَّةِ وَمَصْنَدِهَا . وَأَحْسُ بِأَنَّهُ خُلِقَ لِيَلْتَمِذَ وَيَسْتَمْتِعَ بِهِ هَذِهِ الرَّقَّةِ أَكْثَرَ مِنْ بِنَاءِ مُسْتَقْبَلٍ وَإِحْبَاطِ شُغْلٍ وَضَمَانِ عَيْشٍ .

سُبْحَانَ اللَّهِ كَيْفَ يُولَدُ الْإِنْسَانُ ، وَقَدْ بُذِرَتْ فِيهِ بُدُورٌ لَا يَخْلُمُ مَأْتَاهَا وَلَا مَصْنَدُهَا ! لَقَدْ عَاشَ « الطَّاهِرُ » فِي قَرَيْبِهِ بَعِيدًا عَنِ الشُّعُورِ بِالرَّقَّةِ وَالْجِهَالِ ، وَإِنْ كَانَ غَارِقًا فِيهَا . الطَّبِيعَةُ جَمِيلَةٌ فِي قَرَيْبِهِ ، وَالنِّسَاءُ جَمِيلَاتٌ رَقِيقَاتٌ وَلَكِنَّهُ تَعَوَّدَ كُلُّ ذَلِكَ مُنْذُ تَشَاتِيهِ .

أَمَّا هُنَا فَإِنَّ كُلَّ حَسَنَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَبْرُزُ صَارِخَةً ، غَالِقَةً بِالْإِنْسَانِ ، تُشَدُّ إِلَيْهَا

وَتَأْسَرُهُ . فَلَتَكُنْ هَذِهِ الرَّقَّةُ هِيَ الْحَبْلُ الَّذِي يَرْبُطُهُ إِلَى حَيَاتِهِ الْمَجِيدَةِ وَلَيَحْدُثُ مَا
يَحْدُثُ .

وَالْقَضَى ذَلِكَ الْيَوْمَ بَيْنَ السَّكَنَةِ وَالْبُسْتَانِ لِتَقْدِيرِ أَحْوَالِ الْعَمَلَةِ . وَنَامَ فِي لَيْلَتِهِ
تِلْكَ ، نَوْمَةً طَوِيلَةً لَمْ تَشَوَّسْهَا حَتَّى مُوسِيقَى نَفْتَقَةِ الضَّفَادِعِ .
وَفِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ نَهَضَ وَلَبَسَ الْاَبْيَقَ ، وَخَرَجَ مُتَوَجِّهًا إِلَى ثُونَسَ . هُوَ
يَوْمَ عَظَمَاتِهِ ، يَوْمَ الْجُمُعَةِ . وَكَانَ عَلَى أَحْرَمٍ مِنَ الْجَمْرِ لِلْاَلْتِقَاءِ بِأَهْلِ بَلَدِيَّتِهِ .

* * *

نَزَلَ مِنَ « الثَّرَامِ » بِبَابِ « سُوَيْقَةٍ » وَتَوَجَّهَ إِلَى مَقْهَى « خَالٍ عَلِي » وَدَخَلَ
ضَبَابًا لَا تَظْهَرُ مِنْهُ رُؤُوسُ الْحُرَفَاءِ الْقَابِعِينَ هُنَاكَ إِلَّا عَنْ قُرْبٍ : ضَبَابًا أَفْرَزَهُ
دُخَانُ السِّقَائِرِ وَ « الشَّيْشَاتِ » ، (النَّارِجِيَلَاتِ) وَالتَّكْرُورِيِّ وَأَنْفَاسُ الثَّاسِ
وَبُخَارُ الْقَهْوَةِ وَالشَّايِ .

لَمْ يَعْرِفْهُ أَحَدٌ مِنَ أَهْلِ قَرْيَتِهِ الْجَالِسِينَ حَوْلَ أَرْبَعَةِ يَلْعَبُونَ الْوَرَقَ . فَكَادَى
أَحَدَهُمْ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ ، وَعَرَفَهُ بِنَفْسِهِ فَلَمْ يَعْرِفْهُ إِلَّا بَعْدَ لَأَيٍ . وَعِنْدَ ذَلِكَ كَانَ
الضَّحِكُ وَالْمُدَاعَبَةُ وَالْمَزَاحُ .

نَظَرَ إِلَى أَخْدَانِهِ مِنَ أَهْلِ قَرْيَتِهِ وَلَكِنَّهُ أَحْسَنُ أَنَّهُ أَصْبَحَ بَعِيدًا عَنْهُمْ شَيْئًا مَا ...
مُعَايَرًا لَهُمْ ... بَدَأُوا لَهُ فِي مَظْهَرٍ آخَرَ ... أَحْسَنُ لِحْوَصِهِمْ بِشَيْءٍ مِنَ الرَّاقَةِ ... هَذَا
شَاشِيَّتُهُ قَدِيمَةٌ فَقَدَتْ كُلَّ لُيُوتَةٍ حَتَّى أَنَّكَ لَوْ رَمَيْتَهَا عَلَى الْجِدَارِ لَتَكَسَّرَتْ شَطَائِنًا
مِنْ فَرْطِ يَبَسِهَا النَّاتِجِ عَنْ تَسَرُّبِ مَاءِ الْمَطَرِ وَالْغُبَارِ وَالْأُوسَاخِ وَالْعَرَقِ . هِيَ
مَادَّةٌ أَشْتَقَّتْ مِنْ تَرَسُّبِ السَّعَادِينَ وَالْاَثَرِيَةِ فِي طَبَقَاتِ الْأَرْضِ .. وَذَلِكَ تَذَكَّرَ
بِئْسَرَسِ إِحْتِكَ بِهَ الزَّمَانِ فَافْقَدَهُ نُحُوتَهُ ، وَجَرَّدَهُ مِنْ صُوفِهِ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا
السَّدَى ... وَثَابَتَ ضَحِكُ جِدَاؤُهُ ، مَقْهَوُهَا ، وَظَهَرَ مِنْهُ إِصْبَعٌ مُطِيلٌ مِنَ الْجَوَارِبِ

أَسْوَدَ كَاسْتَانٍ صَاحِبِهِ الْمَصْنُوعَةِ مِنَ الْإِبْطُوسِ وَقَدْ لَوَّثَتْهَا السَّفَائِرُ ، وَالْخَوْفُ مِنْ
تَنْظِيفِهَا ... وَآخَرُ ... وَآخَرُ

لَعَنَ الْفَقْرَ وَالْخِصَاصَةَ ، ثُمَّ شَعَرَ بِالنِّقْمَةِ تَنْتَابُهُ وَلَكِنَّهُ مَحْظُوطٌ فَبَحَّ « بَابُ
الْعَرْشِ لَهُ » وَفَوَلَّاهُ بَقِيَّ مُخْلَقًا فِي وُجُوهِهِمْ فَمَا ذَنْبُهُ هُوَ ؟ وَمَا حِيلَتُهُ ؟ لِيَكُنْ مَا
يَكُونُ وَلِتَسِرِ الْأُمُورُ كَمَا قَدَّرَ اللَّهُ قَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ :

- كَيْفَ سَتَنْدَهَبُ مَعَنَا بِهِذِهِ الْبَذْلَةِ إِلَى حَوْمَةٍ وَضَحِكَ الْجَمِيعُ وَقَالَ آخَرُ :

- هُوَ فِي لِيَّاسٍ أَلْمَلَايَكَةِ الْآنَ ... وَالْمَلَايِكَةُ لَا تَأْكُلُ وَلَا تَشْرَبُ وَلَا تَنَامُ وَلَا

ت ...

وَقَهَقُوا كُلُّهُمْ وَصَنَّتِ « الطَّاهِرُ » وَاضْطَرُّوا إِلَى مُغَادَرَةِ الْمَقْهَى لِيَرْجِعَ مُبَكَّرًا إِلَى
« بَارِذُو » قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَتَعَوَّدْ بَعْدَ هَجْرَةِ الْحَيَاةِ فِي الْقَصْرِ .
فَصَاحَ أَحَدُهُمْ :

- هَذَا ثَمَنُ الْعُلَى ... لِيَنْتَقِمَ مِنْكَ الرَّبُّ يَا « طَاهِرُ » ... أَهْلُ الْعُقُولِ فِي رَاحَةِ ...

أَمَّا أَنْتَ فَسَتُضَيِّعُ عَقْلَكَ . لَمْ يَقُلِ « الطَّاهِرُ » شَيْئًا وَوَدَّعَهُمْ وَلَكِنَّهُ بَقِيَ يَرُدُّ آخَرَ
الْعِبَارَةِ : سَتُضَيِّعُ عَقْلَكَ . وَأَحْسَنُ بِأَنْ عَقَلَهُ ثَاةَ مَرَّةٍ أُخْرَى فِي رِقَّةٍ « زُبَيْدَةٍ » .

* * *

مَضَتْ أَيَّامٌ وَهُوَ بِالْقَصْرِ يَعِيشُ فِي رَتَابَةٍ اسْتَمْلَحَهَا وَاسْتَطَابَهَا ، لِأَنَّهَا لَا تُكَلِّفُهُ
عَنَاءً كَبِيرًا . فَهُوَ بَيْنَ الضَّيْعَاتِ وَشُؤُونِ « الْفَرِيكِ » وَغُرَفِيهِ ، وَالْمَسْكَنَةِ ، يَعِيشُ
فِي طُمَأْنِينَةٍ ضَمِنَ هَذِهِ أَلْعَائِلَةَ النَّبِيلَةَ ، التَّوْقِيَةَ الَّتِي أَخَضَّتْنَاهُ فَأَحْبَبَتْهُ وَأَحْبَبَهَا .
وَأَصْبَحَ يَشْعُرُ بِحُرِّيَةٍ كَبِيرَةٍ ، وَأَكْثَرَ مِنْ هَذَا شَعَرَ بِأَنَّهُ إِنْسَانٌ لَهُ حُرْمَتُهُ ،
وَكِرَامَتُهُ ، وَأَنْفَتُهُ . كَانَ مِنْذُ أَيَّامِ أَسِيرِ الْفَقْرِ ، وَأَهْلِ الْقَرْيَةِ ، وَعِيُونِهِمْ ، وَجَهْلِهِ
بِفُسْحَةِ الْحَيَاةِ وَرَحَابَتِهَا . أَمَّا الْيَوْمَ فَهُوَ لَا يُفَكِّرُ فِي قُوْتِ يَوْمِهِ وَهُوَ بَعِيدٌ عَنِ الظَّاهِرِ
لِدَايَةِ الذِّبْنِ يُضَيِّقُونَ عَلَيْهِ الْخَنَاقَ ، وَيَدْخُلُونَ فِي شُؤْنِهِ الْخَاصَّةِ ، وَيَنْقُلُونَ

أَخْبَارَهُ إِلَى الْقَرْيَةِ حَقًّا أَوْ بَاطِلًا . وَهُوَ يَتَعَلَّمُ الْآنَ كَيْفَ يَعِيشُ الْإِنْسَانُ الْحُرُّ ،
الْكَرِيمُ ، الْمُهَذَّبُ . فَلَا لَعْوَ وَلَا كَلَامًا بَذِيئًا وَلَا عِبَارَاتٍ مُخْرِجَةً وَحَقَّةً .
وَتَعُوذُ الذَّاكِرَةُ بِالظَّاهِرِ إِلَى شَعُورِهِ بِالْكَرَامَةِ ، وَالْحُرِّيَةِ عِنْدَمَا كَانَ فِي الْقَرْيَةِ ثُمَّ
بَعْدَ أَنْتَقَالِهِ إِلَى ثُونِسَ .

كَانَ يَشْعُرُ بِتَفْسِهِ حُرًّا فِي الْقَرْيَةِ عِنْدَمَا يَجُوبُ مَسَالِكَ قَرْيَتِهِ ، وَيَخْرُجُ إِلَى
الرَّيفِ ، سَارِحًا فِي الْفَضَاءِ الشَّاسِعِ الَّذِي لَا يَحْدُهُ حَدٌّ سِوَى غَابَةِ الزَّيْتُونِ أَوْ
الْبَحْرِ . وَلَكِنَّهَا حُرِّيَّةٌ تُشْبِهُ حُرِّيَّةَ الطَّائِرِ الَّذِي يَخْلُقُ فِي السَّمَاءِ لَا يَتَغَرَّرُ بِهَا فَهِيَ
طَبِيعَةٌ فِيهِ ، يَنْزِعُ إِلَيْهَا غَرِيذَةً وَجِيلَةً .

وَكَانَ يَشْعُرُ بِالْحُرِّيَةِ أَيْضًا عِنْدَمَا يَخْرُجُ مِنْ « الْوَكَالَةِ » وَيَجُوبُ أَنْهَجَ وَشَوَارِعَ
ثُونِسَ لَا يَصُدُّهُ أَحَدٌ ، وَلَا يَحَاسِبُهُ عَلَى ذَلِكَ أَيُّ إِنْسَانٍ .

وَلَكِنْ ، أَيُّهُ حُرِّيَّةٌ هَذِهِ الَّتِي تُضَيِّقُ عَلَيْهِ الْخِثَاقُ ، وَلَا تَتْرُكُهُ يَخْتَارُ مَصِيرَهُ
بِنَفْسِهِ ؟ وَلَقَدْ شَعَرَ الْآنَ أَنَّ الْعَالَمَ كَانَتْ أَبْوَابُهُ مُمْغَلَقَةً أَمَامَهُ ، وَكَانَ يَسُرُّ أَمَامَهَا وَلَا
يَشْعُرُ بِتِلْكَ الْأَبْوَابِ : جُدْرَانٌ سَمِيكَةٌ فَحَسَبُ ، عَالِيَةٌ وَلَا يَسُرُّ بِبَالِهِ أَنْ هُنَالِكَ
عَوَالِمٌ أُخْرَى ، هِيَ هَذِهِ الَّتِي دَفَعَهُ الْخَطُّ إِلَيْهَا ، وَجَعَلَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ يَخْتَارُ بَيْنَ الْخَيْرِ
وَالشَّرِّ ، بَيْنَ الطَّيِّبَةِ وَالْفَسَادِ ، بَيْنَ الْقَنَاعَةِ وَالتَّهَمِ ، بَيْنَ إِرْضَاءِ الشَّهَوَاتِ وَكِبْرِيَا .

هَذِهِ هِيَ الْحُرِّيَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ أَمَّا الْأُخْرَى فَهِيَ الطَّاعَةُ وَالْعَفْوِيَّةُ وَكَانَ ثَمَنُهَا
رَهِيصًا . أَمَّا الْآنَ فَهِيَ تَتْرُكُ فِي النَّفْسِ جُرُوحًا إِنْ أَلْتَمَأَتْ فَأَقَارُهَا لَنْ تُسْمَحَى .
السُّؤَالُ يَعْنِيهِ مَعَ أَفْرَادِ الْقَصْرِ كُلِّهِمْ ، وَالسَّعْرِقَةُ وَالْعِلْمُ مَعَ « عَادِلِ » فِي
السَّكَنَةِ وَفُسْحَةُ الْأَمَلِ عِنْدَمَا يَنْظُرُ إِلَى « زَيْنَةَ » . فَكَانَتْهَا الْجَنَّةُ الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ
بِهَا الْمُتَّقِينَ .

أَمَّا الْكَرَامَةُ فَآيَةُ كَرَامَةٍ فِي الْفَقْرِ وَالْجَهْلِ وَالْعَنَتِ ؟! فِي الْقَرْيَةِ عِنْدَمَا كَانَ لَا
يَشْعُرُ بِنَفْسِهِ أَنَّهُ إِنْسَانٌ بِأَتَمِّ مَعْنَى الْكَلِمَةِ أَمَامَ أَبِيهِ ، وَجَدِّهِ وَالْمُعَلِّمِ وَمُؤَدِّرِ

المدرسة الفرسي . هي كرامة زائفة لأن الكرامة الحق هي التي لا يرضى صاحبها بأن يمحقت في اليوم مرأت وأن يمحقر في مبادراته ، ومهان بدون حساب حتى من لذاته ، وفي هذه الحال فالأمر أهون لأنها إهانة متبادلة . والآن أصبح لا يسمع إلا الكلمة الحلوة والتقدير ، والتبجيل ، والتثمن والتسامح ، وغض الطرف عن السفطات .

ولكن « الطاهر » كان يصبر رغم هذا على أن يلتقي كل جمعة بأهل القرية ، فيجلس الجثة والبرنس كعادته ويتعيس معهم في كل شيء ، في تضامهم وتواضعهم ، في عبيتهم وجدهم ، في إيجازهم في بعض الأحيان إلى ذركات التناحر والشقاق . وهو رغم هذا يحبهم ، ويذل له أن يبقى معهم طويلاً إلى السهيز الأخير من الليل ، يشاطروهم كل شيء ويحفظ عنهم ضيق أيديهم من حين إلى آخر .

ثم يعود إلى جثته ليلتذ بكلام « الفريك مصطفي » ويحلو عباراته ، مساً بفعله يقبل يده من دون أن يشعر ، وتتحل عقدة لسانه وهو الضئيل بالكلام ، فيسكّر ويسدح ، ويغني . وكذلك الشأن مع زوجة « الفريك » . أما « عايل » فأمه يخالف من في القصر ، لا لأنه لا يشبههم في خلقه وخلق بل لأنه ملازم له في أكثر الوقت ، ويتطول معه الحديث ، والنقاش في شؤون عديده .

« عايل » ابن « الفريك مصطفي » في سن « الطاهر » هو ربعة ، مليح القد ، حلو القسات ، وجهه كطلعة القمر ، ثريته عيتان دغجوان ، وحاجبان كحان ، وأنف ظريف ، وقم شهواني ، ولحية غير كثيفة تملأ وجهه ، مصورة تصويراً كأنها جناح خفاف .

أما مشيئته فريقة فيها ترع ، وبغض خيلاء ، لا تعرف السرعة السفرة ولا

۱۳۴۹



عادل

البطنة المشمين ، فكانتْها مَقْتَرَةٌ تَفْتِيرًا ، بَخِيلَةٌ كَبْخُلٍ صَاحِبِهَا بِالْكَلِيَّاتِ ، ضَيِّنَةٌ كَافِتِيضَابِ الْأَلْفَاظِ فِي قَمِ « عَادِل » .

وَرَعَمَ هَذَا ، وَمَعَ لُغَةٍ خَفِيفَةٍ فِي لِسَانِهِ ، فَإِنَّ « عَادِل » جَمَعَ بَيْنَ خُلُوِّ الْكَلَامِ وَرِقَّةِ النَّظَرِ ، فَلَا تَكَاذُ تَفْطِنُ إِلَى لُغَتِهِ وَاحْتِصَارِهِ لِلْكَلِيَّاتِ لِأَنَّ نَظَرَهُ الطَّوِيلَةَ الْمُعْبِرَةَ تُكْفِيكَ مَوْزَنَةَ الْفَهْمِ ، وَتَجْعَلُكَ تَرْتَّاحُ إِلَيْهِ وَتَسْتَطِيبُ عِشْرَتَهُ .

كَانَ « عَادِل » يُعَاشِرُ عَلِيَّةَ الْقَوْمِ وَيَتَرَدَّدُ عَلَى الْمَجَالِسِ الْأَدَبِيَّةِ وَيَكْتُمُ فِي الْجَرَائِدِ وَيَقْرُسُ الشُّعْرَ وَلَكِنَّهُ لَا يَنْشُرُهُ وَيَعْتَبِرُ نَفْسَهُ أَدِيبًا يَزُودُ الشُّعْرَ وَالْأَحْكَارَ الْقَدِيمَةَ وَلَهُ رَأْيُهُ فِيهَا وَهُوَ رَأْيُ بَيْسِلٍ إِلَى التَّجْوِيدِ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَى التَّطَرُّفِ .

وَلَمْ يَكُنْ « لِلطَّاهِر » سَعَةً أَطْلَاعَ « عَادِل » وَلَا احْتِكَاكُهُ بِالْأَدَبَاءِ فِي ثُونَسَ ، وَمَعْرِفَتُهُ لِلحَرَكَاتِ الْأَدَبِيَّةِ فِي الْمَشْرِقِ الْعَرَبِيِّ ، وَلَكِنْ حَدَسَهُ كَانَ قَوْلًا ، وَحُجَّتُهُ مُعَلَّلَةٌ بِمَنْطِقٍ يَخْتَارُ لَهُ « عَادِل » فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ، وَيَتَسَاءَلُ كَيْفَ يُسَمِّكُنْ لِهَذَا الشَّخْصِ الْبَسِيطِ أَنْ يُقَارِعَهُ الْحُجَّةَ وَيَدْمَعَهُ بِالذَّلِيلِ .

* * *

بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ مَرَّتْ كَالسَّحَابِ الْعَابِرِ عَرَفَ فِيهَا أَهْلَ الْقَصْرِ عَنْ كَتَبٍ وَعَرَفُوهُ بِفَقِيهِهِ وَدَمَائِهِ أَجْلَاقِهِ ، وَإِثْقَانِهِ لِلْعَمَلِ وَصَمْتِهِ . عَرَفَ « زَيْنَةَ » الَّتِي أَصْبَحَتْ تَرْتَّاحُ إِلَيْهِ ، وَ« رِيح » خَادِمَةِ « عَادِل » ، وَالْمُعِينَةَ لَهَا الطِّفْلَةَ الصَّغِيرَةَ « عَلِيجِيَّة » ، وَكَذَلِكَ خَادِمَتَهُ هُوَ « دُوْجَةُ » .

وَفِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ ذَاكَ الشِّتَاءِ ، وَفِي ذِيءِ الْمَكْتَبَةِ كَانَ « الطَّاهِر » يَقْرَأُ أَحْكَارَ « جَمِيلِ بَيْئَتَةِ » مِنْ كِتَابِ الْأَغَانِي وَيَتَوَقَّفُ مِنْ حِينَ لِأَخْرَ لَيْسَالِ « عَادِل » عَنْ كَلِمَةٍ أَوْ عِبَارَةٍ أَوْ لِيَشَارِكُهُ إِسْتِمْتَاعَهُ لِبَلَاوَةِ كِتَابَةِ أَبِي الْفَرَجِ الْأَصْبَهَانِيِّ وَشِعْرِ جَمِيلٍ وَإِذَا « بِعَادِل » يَقُولُ لَهُ :
- هَلْ أَحْبَبْتَ أَنْتَ فِي حَيَاتِكَ مَرَّةً ؟

وَسَكَتَ « الطَّاهِر » لِأَنَّهُ مُنْذُ يَوْمِهِ الْأَوَّلِ فِي هَذَا الْقَصْرِ وَهُوَ غَارِقُ فِي
إِحْسَاسٍ غَامِضٍ نَحْوَ « زُبَيْدَة » لَمْ يَتِمَكَّنْ مِنْ تَفْسِيرِهِ وَتَوْضِيحِهِ .
وَبَدَأَ « عَادِل » مِنْ ذُوْنِ أَنْ يَنْتَظِرَ جَوَابًا :

- أَمَا أَنَا فَقَدْ أَحْبَبْتُ فِتْنَةً وَهِيَ غَيْرُ عَارِفَةٍ بِحُبِّي لَهَا وَقُلْتُ فِيهَا شِعْرًا .
وَبَدَأَ « عَادِل » يُنْشِدُ أَبْنَاءًا حَفِظَهَا عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ قَالَ :

ذُكْرِيَاتُ هَبَّتْ ثَقُوصُ مَا بِالْقَلْبِ مِنْ مِيلٍ لِلْحَيَاةِ آخِرِ
تُبْعِدُ اللَّهُوَ بِالسُّوْمِ مِنْ أَحْزَانِهَا ، بِالنَّاسِ الشَّدِيدِ الْمُرِيرِ
بِالْمُسُومِ ، الثَّقِيلَةِ ، بِاللَّيَالِي الْحَالِكَاتِ ، بِالدَّعْرِ الْهَتُونِ الْغَزِيرِ
بِالسَّهَادِ مُكْحَلِ الْجَفْنِ ، بِالْحَيَّةِ تَضُوي مِنْ كِبَانِي الصَّغِيرِ
ذُكْرِيَاتُ أَقْضَتْهَا اللَّيْلُ مِنْ مَضْجِعِهَا ذَا ، وَاللَّيْلُ مَهْدُ الْغُرُورِ
رَاحَ قَلْبِي يَدْعُو إِلَى تَبْلَاهَا وَالْقَلْبُ يَصْبُو إِلَى تَوَاجِي السُّرُورِ
إِنْ قَلْبِي قَدْ كَبَلْتَهُ مُسُومٌ قَبْلَ هَذَا فَرَاخَ شَيْئَةِ أَسِيرِ
ثُمَّ هَبْ يَرْتَوِ إِلَى الْأَمَلِ الْعَذْبِ إِلَى الْحُبِّ ، وَهُوَ غَمْرُ الشُّعُورِ

* * *

أَتَرَاهَا تَذَرِي الَّذِي يَحْتَوِيهِ قَلْبُ هَذَا الْحَمِيِّ السَّقِيمِ الْغَرِيرِ ؟
أَتَرَاهَا تَصْبُو إِلَيْهِ كَمَا يَصْبُو إِلَيْهَا وَلَوْ بِفِكْرِ يَسِيرِ ؟
أَمْ تَرَاهَا فِي عَقْلَةٍ عَنْ حَيَاةِ الْحُبِّ هَذَا ، وَعَنْ جُثُونِ الضُّعْفِ ؟
لَسْتُ أَذْرِي أَبَالُغُودِ سَاخَطِي أَمْ سَاخَطِي غَدًا بِصَدِّ كَبِيرِ ؟
أَمَلِي فِي الْحَيَاةِ حُبٌّ يَتَاغِي قَلْبَ حَبِي فَلَا تُلْغِي عَذِيرِي .

وَأَخْرَجَ « عَادِل » مِنْ جَنِبِهِ وَرَقَةً فِيهَا هَذَا الشَّعْرُ وَقَالَ :

- مَا قَوْلُكَ فِي هَذَا الشَّعْرِ .

- إِنَّهُ شِعْرٌ جَيِّدٌ لِمَاذَا لَا تَنْشُرُهُ .

- لَا لَيْسَ بِشِعْرِ جَيِّدٍ وَإِسَاءُ أَطْلُبُ مِنْكَ وَأَنْتَ أَخِي أَنْ تَتَوَسَّطَ لِي ...

وَفِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ كَانَ « الطَّاهِر » يَقُولُ فِي نَفْسِهِ :
 - كَيْفَ ! إِنَّهُ يُعَبِّرُ عَنِ مَسَاعِيرِي وَيُتَرْجِمُ عَنْ نَفْسِي الْحَزِينَةَ مُنْذُ أَنْ عَرَفْتُهَا ...
 إِنَّهُ يَكْذُوبُ وَلَيْسَ يَظْهَرُ عَلَيْهِ مِثْلُ هَذَا الْحُزْنِ الَّذِي يَكْرَهُهُ ...
 ثُمَّ اسْتَجْمَعَ « الطَّاهِر » فِكْرَهُ الشَّارِدَ وَقَالَ :
 - أَتَوَسَّطُ .. ! مَنْ هِيَ الْفَتَاةُ ؟
 - هِيَ « رُبَيْلَةُ » .

وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ الرَّيْقَةُ فِي الْعَادَةِ كَالصَّاعِقَةِ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ السَّرَةِ ، وَنَطَّ مِنْ
 كُرْسِيِّهِ كَالرَّصَاصَةِ ، وَخَرَجَ مِنَ الْمَكْتَبَةِ إِلَى عُرْفَتِهِ .
 وَلَمْ يَكُنْ مِنْ « عَادِلٍ » إِلَّا أَنْ جَرَى مُفْتَتِحًا أَثَرَهُ وَدَحَلَ الْغُرْفَةَ وَقَالَ :
 - مَا بِكَ يَا « طَاهِر » ؟ .. لِإِذَا هَذَا الْغَضَبُ ... بِاللَّهِ عَلَيْكَ لَا تُطْلِعْ أَحَدًا عَلَى
 مَا قُلْتُهُ : ...

- مِنْ هُنَا فَصَاعِدًا لَنْ أَكَلِمَكَ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ . أَتَيْتَ لَا تَرْعَى حُرْمَةَ دَارِ
 وَالِدِكَ ... دَارِكَ وَتُرِيدُ أَنْ تُزْجِ بِبِي فِي أَمْرِ يُظْهِرُنِي بِمَظْهَرِ الْغَادِرِ وَالْخَائِنِ ... أَيْنَ
 مَرْوَتُكَ ... وَأَخْلَاقُكَ ؟

- سَامِعْنِي يَا « طَاهِر » ... وَإِنَّمَا أَنَا أُجِيبُهَا ، وَأُرِيدُ أَنْ أَتَزَوَّجَهَا . وَزَادَ غَضَبُ
 « الطَّاهِر » عِنْدَ ذَلِكَ وَوَاجَهُهُ وَالشَّرُّ يَتَطَايَرُ مِنْ عَيْنَيْهِ وَأَطْرَافُ شَوَارِبِهِ الْمَفْتُولَةِ
 تَتَرَاقَصُ :

- قُلْتُ لَكَ : كُفَّ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ وَإِلَّا فَإِنِّي سَأُخْبِرُ سَيِّدِي « الْفَرِيكَ » .
 وَعِنْدَ ذَلِكَ رَجَا « عَادِلٌ » « الطَّاهِر » بِأَنْ يَنْسَى هَذَا الْمَوْضُوعَ وَلَنْ يَعُودَ أَبَدًا إِلَيْهِ
 وَلَكِنَّ « الطَّاهِرَ » قَالَ لَهُ :
 - هَذَا مُسْتَعِجِلٌ ... كَيْفَ ؟
 - عَلَى الْأَقْلَ لَا تُفَكِّرْ فِي الزَّوْاجِ مِنْهَا .

- وَلَمْ ؟

- لِأَمْنِهَا بِسَنَابَةِ أُخْتِكَ .

- لَا إِنَّ « زُبَيْدَةَ » هِيَ ابْنَةُ رَجُلٍ فَرِي كَانَ مِنَ الْأَعْيَانِ ، وَكَانَتْ أُمُّهَا جَمِيلَةً جَدًّا ، أَرَادَهَا أَحَدُ الْبَنَاتِ لِنَفْسِهِ ، وَلَمَّا لَمْ يَصِلْ إِلَى ذَلِكَ كَادَ لِزَوْجِهَا مَكِيدَةً أَوْدَتْ بِحَيَاتِهِ وَطَرَنَ أَنْ السَّجَالُ أَصْبَحَ فَيَسِيحًا ، وَالْفُرْصَةُ سَانِحَةً ، وَلَكِنْ أَمْرُهُ أَكْثُفٌ وَعَرَفَتْ ذَلِكَ زَوْجَتُهُ الْهَالِكِ وَأَهْلُهَا ، وَذَبَرُوا لِهَذَا الْبَايِ الصَّغِيرِ مَوَامِرَةً ذَهَبَ ضَحِيَّتُهَا فِي آخِرِ الْأَمْرِ هُوَ وَالزَّوْجَةُ فَصُوِّرَتْ أَمْلَاكُ هَذِهِ الْعَائِلَةِ وَقَبِعُوا فِي السَّجْنِ وَبَقِيَتْ « زُبَيْدَةُ » وَأَخْتُهَا « هَيْفَاءُ » بِدُونِ عَائِلٍ فَكَفَّلَهَا وَالِدِي ، وَهِيَ رَضِيعَةٌ وَكَفَلَ « هَيْفَاءُ » رَجُلٌ خَيْرٌ مِنَ الْأَعْيَانِ .

وَحَارَتْ قُوَى « الطَّاهِرِ » وَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ ، وَهُوَ يَنْظُرُ شَاخِصًا حَائِرًا فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ وَكَأَنَّهُ يَقْرَأُ صَفْحَةً مِنْ كِتَابٍ « أَلْفَ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ » ثُمَّ صَرَخَ :

- وَهَلْ هَذَا صَحِيحٌ ؟

- نَعَمْ هِيَ الْحَقِيقَةُ .

وَسَالَتْ دُمُوعٌ مِنْ عَيْنَيْ « الطَّاهِرِ » وَتَرَجَّى « عَادِلٌ » أَنْ يَتْرَكَهُ وَشَأْنَهُ بَعْدَ أَنْ طَمَأَنَّهُ وَوَعَدَهُ بِأَنْ لَا يَقُولَ شَيْئًا .

وَلَمْ يَتِمَّ لَيْلَتُهُ تِلْكَ . وَرَاحَتْ تَطْوُحُ بِهِ الْأَوْهَامُ ، وَالْخَيَالَاتُ ، وَتَدْفَعُهُ إِلَى الظَّنِّ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَعَدَمِ أَخْذِ الْأُمُورِ عَلَى ظَوَاهِرِهَا . وَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ :

- وَهَذِهِ الطَّبِيعَةُ ، وَهَذِهِ الْجَنَّةُ الْمَوْعُودَةُ الَّتِي اسْتَتَبْتُهَا وَاسْتَمْلَحْتُهَا ، وَأَخْلَدْتُ إِلَيْهَا إِسَاءً هِيَ قِسْرَةُ بَرَاقَةٍ تَحْكِي مَأْسَاةَ الْإِنْسَانِ . « زُبَيْدَةُ » ضَحِيَّةُ الْعُدْوَانِ وَالظُّلْمِ ، مُهْدَدَةٌ بِأَنْ تُصْبِحَ فَرِيسَةً لِهَذَا الشَّابِّ الْبَطْرِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مِنْ غَايَةِ إِلَّا أَلْعَبْتُ بِهَا :

إِنَّ الْفَرَاغَ وَالشَّبَابَ وَالْجَنَّةَ مَفْسَدَةٌ ! لِلْمَرْءِ أَيُّ مَفْسَدَةٍ !



زبّدة

وَيُرِيدُ مِنِّي أَنْ أَكُونَ أَدَاةَ الشَّرِّ وَالْعَبَثِ ... أَنَا « الطَّاهِر » الَّذِي تَرَبَّيْتُ عَلَى
 الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ وَالْإِنْفَةِ أَصْبَحُ عُرْصَةً إِلَى الْاسْتِهْزَاءِ مِنْ هَذَا
 الْغَائِبِ ... أَيْنَ الْمُرُوءَةُ ، أَيْنَ الْكَرَامَةُ ؟ أَنَا ابْنُ « أَبِي مُحَمَّد » الَّذِي لَا يَعْرِفُ
 الْإِلْحِيَاءَ أَمَامَ أَحَدٍ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ رَصِيدٍ إِلَّا لِسَانُهُ السَّلِيلُ ، وَفَصَاحَتُهُ ، وَذَكَائُهُ ،
 أَصْبَحُ لُعْبَةً فِي يَدِ هَذَا الْمُتَخَنُّثِ ... أَبَدًا .
 وَقَرَّرَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَنْقُصِيَ الْأُمُورَ وَأَنْ يَغُوصَ فِي حَقِيقَةِ هَذَا الَّذِي يَخْفُ بِالْحَيَاةِ
 حَوْلَهُ . وَصَمَّ عَلَى حُطْلِهِ مُحْكَمَةً .

* * *

كَانَتْ « دُوجَةُ » الْمُكَلَّفَةُ بِخِدْمَتِهِ ، الْمَرْأَةُ الْوَجِيدَةُ الَّتِي تَدْخُلُ جَنَاحَهُ ، وَتُرْتَبُ
 مَتَاعَهُ ، وَلَا تَسْتَنكِفُ مِنْ دُخُولِ غُرْفَتِهِ وَهُوَ بِهَا ، وَتَحْدُثُهُ كَثِيرًا وَلَكِنَّهُ لَا يَسْمَعُهَا ،
 بَلْ يَنْهَرُهَا عِنْدَمَا قِيلَ إِلَى الْكُشْفِ عَمَّا يَدُورُ فِي الْقَصْرِ ، مُعْتَبِرًا ذَلِكَ مِنْ بَابِ
 السَّفَالَةِ .
 وَ « دُوجَةُ » إِمْرَأَةٌ تَجَاوَزَ سِنُهَا الْأَرْبَعِينَ ، تَظْهَرُ مِنْهُنَّكَ الْقُوَى لِقَرَطِ مَا عَمِلَتْ فِي
 الْبُيُوتِ مُنْذُ صَغِيرَهَا وَلَكِنَّ اللَّهَ أَعْطَاهَا نَصِيبًا مِنَ الْجَمَالِ بَقِيَتْ صِبَابَةً مِنْهُ ، تُغْرِي
 فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ .

وَلَعَلَّ « الطَّاهِرَ » كَانَ يَفْهَمُ مِنْ بَعْضِ إِشَارَاتِهَا ، وَحَرَكَاتِهَا أَنَّهَا لَا تُمَانِعُ فِي
 الْوُقُوعِ لَهُ لَوْ أَرَادَهَا لِنَفْسِهِ ، وَهَذَا السَّبَبُ كَانَ دَائِمًا يَصُدُّهَا عَنِ الْإِعْرَاقِ فِي
 الْحَوِثِ ، وَيُسْرِعُ فِي الْخُرُوجِ ، وَيَتَرَكُهَا شَاخِصَةً لَا تَفْهَمُ لِمَاذَا ؟
 وَلِلنِّسَاءِ حَاسَةً قَوِيَّةً تَكْشِفُ لَهُنَّ عَنْ نَوَايَا الرِّجَالِ عِنْدَمَا يَهْمُونَ أَوْ يَصُدُّونَ ،
 وَهَذَا مَا جَعَلَ « دُوجَةَ » تَكْثُرُ مِنْ إِعْرَاءِ « الطَّاهِرِ » بِأَسَالِيبٍ مِنَ الصَّغْبِ عَلَى
 الرِّجَالِ الْأَلَّا يَقَعُوا فِي أَحَابِيلِهَا . وَلَكِنَّ « الطَّاهِرَ » يَغْتَبِدُ أَنَّ الْمُرُوءَةَ تَقْضِي بِأَنْ
 يَتَمَسَّكَ بِالِاسْتِقَامَةِ فِي دَارِ رَجُلٍ أَكْرَمَهُ ، وَأَوَّاهُ ، وَجَعَلَهُ مَحَلَّ قَفْتِهِ . وَلِهَذَا يَجِبُ

عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ فِي مُسْتَوَى الرُّجُولَةِ الَّتِي يُؤْمِنُ بِهَا . أَمَّا النَّسَاءُ فَيَوْمَ الْجُمُعَةِ مَعَ أَصْحَابِهِ فِي حَوْمَةٍ ... يَقْضِي وَطَرَهُ مِنْهُنَّ وَضَمِيرُهُ مَرْتَاحٌ .

وَلَمَّا أَطْلُ صَبَاحَ يَوْمِ الْجُمُعَةِ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَمِيسِ الْمَشْهُومِ قَرَّرَ الْأُفْدَايِرُ عُرْفَتَهُ مُبَكَّرًا ، وَأَنْ يَنْتَظِرَ حِجْيَاءَ « دُوجَةِ » لِيَسْتَفْسِرَهَا عَنْ أَشْيَاءَ لَا يَفْهَمُهَا .
وَطَرَقَتْ « دُوجَةُ » الْأَبَابَ وَدَخَلَتْ وَقَالَتْ :

- مَا سَبَبُ بَقَائِكَ الْيَوْمَ فِي الْفِرَاشِ ؟ مَاذَا أَصَابَكَ ؟ هَلْ أَنْتَ مَرِيضٌ ؟
- أَجِسُ بِشَيْءٍ مِنَ التَّعَبِ .

وَدَنَتْ مِنْهُ « دُوجَةُ » وَأَخَذَتْ تَمْسَحُ عَلَى جَبِينِهِ وَتَقُولُ :

- إِسْمُ اللَّهِ عَلَيْكَ ... شَابٌ مِثْلُكَ فِي عُنْفَوَانِيهِ يَحْسُ بِالْتَّعَبِ .

وَبَالَعَتْ فِي مُدَاعَبَةٍ شَعْرِهُ ، وَإِمْرَارٍ يَدُهَا أَمَامَ أَلْفَاسِهِ الْحَارَّةِ الْمُسْتَهْبَةِ ، فَجَذَبَهَا إِلَيْهِ فَلَمْ تُسَاعِجْ بَلْ أَرَاخَتْ الْفِطَاءَ ، وَالدَّسْتُ نَحْتَهُ . وَكَانَ جُسُونٌ لَمْ يَعْرِفْهُ « الطَّاهِرُ » مِنْ قَبْلُ وَشَبَقُ مُسْتَعَاذٍ اهْتَزَّتْ لَهُ « دُوجَةُ » وَذَهَبَ بِهِ عَقْلُهَا إِلَى الْهَذْيَانِ ، وَالتَّلَفُظِ بِالْفَاظِ مَا كَانَ « لِلطَّاهِرِ » أَنْ يَنْتَظِرَهَا مِنْهَا .

وَأَسْرَعَ « الطَّاهِرُ » فِي النَّهْوِصِ وَإِصْلَاحِ حَالِهِ . وَخَرَجَ وَكَانَهُ هَارِبٌ مِنْ حُطَرٍ مُعْتَقٍ .

وَلَمْ يَعْرِفْ كَيْفَ إِمْتَطَى « التَّرَامِ » وَكَيْفَ نَزَلَ « بِالْبَاسَاجِ » لِأَنَّهُ لَمْ يَشْمُرْ بِمَحْطَةٍ « بَابِ سَوِيَّةٍ » .

وَسَارَ يَجُوبُ شَوَارِعَ الْعَاصِمَةِ فِي الْحَيِّ الْأُورِييِ السَّاعَاتِ الطُّوَالِ وَهُوَ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ :

- لَقَدْ تَغَيَّرَ كُلُّ شَيْءٍ فِي حَيَاتِي ... الْآنَ خَرَجْتُ مِنَ الْحَيَاةِ بِالنُّسُوقِ إِلَى الْحَيَاةِ بِالْفِعْلِ وَأَحْسَنُ بِأَلَمٍ فِي جَهَائِهِ الْخَضِيِّ ، مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَبَقِيَ يُعَاوِدُهُ مِنْ جِينِ



الملك

دوب

لَا تَحْرُكُكُمْ أَجْهَدُهُ أَحْيَاةُ بِالشَّيْعِ أَوْ الْجُوعِ ، بِالتَّعَبِ أَوْ الرَّاحَةِ . وَكَانَ يَقُولُ فِي
لَعْنَةِ الْحُكَمَاءِ ، الْبُلْغَاءِ ، الْأَدْبَاءِ ، الْأَفْجَاحِ :

- وَلِدْتُ وَصَحْبَتِي الْبُكَاءُ ، وَدَخَلْتُ الْحَيَاةَ وَحَدِيثِي الْأَلَمُ .

وَلَمْ يَعْرِفْ سَبَبَ هَذَا الدَّاءِ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ وَكَانَ يَنْسِبُهُ إِلَى كِبَرِ تِلْكَ الْمَرْأَةِ بِالنِّسْبَةِ
إِلَيْهِ ، وَإِلَى قُوَّةِ الشَّهْوَةِ الَّتِي عَرَفَهَا مَعَهَا حَتَّى أَنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ بِالْفَنَاءِ فِيهَا مِنْ فَرْطِ
اللَّذَّةِ إِلَّا فِي تِلْكَ الْمَرَّةِ وَأَحْسَ أَنْصَا أَنْ « دُوجَةَ » كَانَتْ تُسَاطِرُهُ هَذَا الْفَنَاءَ ... أَلْفَنَاءَ
فِي الشَّهْوَةِ .

وَأَذْمَنَ عَلَى ذَلِكَ الْفَنَاءِ فِي الصَّبَاحِ كُلَّمَا اتَّفَقَ الْحَالُ ، وَتَبَيَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مَعَ
أَصْحَابِهِ ، وَغَيْرَ مِنْ عَادَاتِهِ فِي الْبَيْتِ وَالشَّارِعِ لِأَنَّهُ لَمْ يَطْفُرْ بِاللَّذَّةِ الرَّخِيسَةِ
الْقَرِيْبَةِ مِنْ يَدِهِ أَوْ عَلَى الْأَصْحَ مِنْ ! ... فَقَطَّ بَلْ ظَفَرَ بِسَمْعَيْنِ لَا مِثِيلَ لَهُ مِنْ
الْأَخْبَارِ عَنْ كُلِّ مَا يَجْرِي فِي الْقَصْرِ فَأَصَافَ إِلَى عُمُرِهِ أَعْمَارًا . وَكَانَ يَقُولُ أَيْضًا :
- وَلِدْتُ وَصَحْبَتِي الْبُكَاءُ ، وَدَخَلْتُ أَحْيَاةَ وَحَدِيثِي الْأَلَمُ ، وَأَتَقَلَّتْ عُمُرِي بِأَغَارِ
الْآخَرِينَ .

عَرَفَ « الطَّاهِرُ » أَنَّ « عَادِلَ » لَهُ حَيَاةٌ مُضْطَرِبَةٌ فِي الْبَيْتِ وَالشَّارِعِ وَأَنَّ وَالِدَهُ
« الْفَرِيكَ مُصْطَفَى » يَقْدِرُ مَا عَرَفَ بِالِاسْتِقَامَةِ وَالطَّيْبَةِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى التَّأْيِيدِ عَلَى
إِنْبِهِ التَّأْيِيدِ الْمُنْتَظَرِ .

يَسْكُنُ « عَادِلَ » الطَّائِقِ الثَّانِي مِنَ الْقَصْرِ وَهُوَ « عُلُو » مُسْتَقِيلٌ يَدْخُلُهُ مِنْ
بَابَيْنِ . فَعِنْدَمَا يَتَخَطَّى الْقَادِمُ إِلَى الْقَصْرِ بِهِوَ الطَّائِقِ الْأَوَّلِ السُّلْبِي لَهُ مَدْخَلُ
سُكْنَى « الطَّاهِرِ » وَيَصْنَعْدُ ثَلَاثَ دَرَجَاتٍ يَجِدُ عَلَى يَمِينِهِ مَذْرَجًا وَعَلَى يَسَارِهِ مَذْرَجًا
آخَرَ . مَذْرَجُ الْيَمِينِ يُفْضِي إِلَى « مَقْعَدِ » يَجْلِسُ بِهِ « عَادِلُ » فِي خَلْوَتِهِ مَعَ نَفْسِهِ أَوْ
خِلَانِهِ وَبِهِ بَابٌ يَكَادُ لَا يَرَى يَسْتَسْلِلُ مِنْهُ « عَادِلُ » إِلَى عُرْفَةِ نَوْمِهِ .

أما مَدْرَجُ السَّارِ . فَإِنَّهُ يُوصِلُ إِلَى الْبَابِ الرَّئِيسِيِّ لِمَسْكَنِ وَتَفْتَحُهُ لِلْقَادِمِ « رِنَح » أَوْ الطَّفَلَةُ « عَلِجِيَّة » . وَأَوَّلُ مَا يُصَادِفُكَ بِهِ يُفْضِي يَسَارًا إِلَى عُرْفَةِ الطَّعَامِ مِنْ جِهَةٍ وَمِنْهَا إِلَى السَّمْطِخِ وَبَيْتِ الْحَمَامِ ، وَبَيْتِ الرَّاحَةِ . وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى إِلَى عُرْفَةِ نَوْمٍ « عَاوِل » وَيَنْتَهِي بِمِينَا إِلَى مَدْرَجٍ صَغِيرٍ بِهِ عُرْفَةُ « رِنَح » وَ « عَلِجِيَّة » وَبَابٍ صَغِيرٍ يُصْعَدُ مِنْهُ إِلَى سَطْحِ الْقَصْرِ . وَأَمَامَ الدَّاخِلِ إِلَى « الْعُلُو » يَنْتَصِبُ بَابٌ كَبِيرٌ يَفْتَحُ عَلَى فَنَاءٍ فَسِيحٍ يُكِنُّ لِلْمُتَفَرِّجِ أَنْ يُشَاهِدَ مِنْهُ مَنَظَرًا لِلنَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْ « بَارْدُو » بِهَا فِيهِ « قَصْرُ السَّعِيدِ » . وَفِي أَرْضِ هَذَا الْفَنَاءِ شِبَالُ كَبِيرٍ جُعِلَ لِإِصْطَاعَةِ مَدْخَلِ تَوَابِعِ الْقَصْرِ مِنْ إِنْصِطِلَاتٍ وَمَخَارِنَ وَغَيْرِهَا لَا يَكَادُ السُّطْلُ مِنْهُ يَتَبَيَّنُ بِوُضُوحٍ ، لِعُلُوِّ الرَّاغِبِينَ وَالْعَاوِينَ مِنْ خُدَّامِ الْقَصْرِ .

وَفِي الْجِهَةِ السُّقَابِلَةِ لِمَدْخَلِ الْفَنَاءِ « بَابُ الْخُضْرَةِ » يُنْزَلُ مِنْهُ إِلَى الْبُسْتَانِ ، وَمِنْهُ تَنْزَوُدُ « رِنَح » بِالْخَضِرِ وَالْفَرَاحِ وَكُلُّ مَا يَلْزَمُ لِإِعْدَادِ الطَّعَامِ ... وَهَذَا الْبَابُ مُغْلَقٌ دَائِمًا مِفْتَاحُهُ عِنْدَ « رِنَح » وَمِفْتَاحُ آخَرَ عِنْدَ امْرَأَةِ الْجَنَانِ « حَلِيمَةَ » .

كَانَ « عَاوِل » يَخْرُجُ أَيَّامًا مَعْدُودَةً بَعْدَ الْغَدَاءِ مُتَرَدِّدًا إِلَى السَّمَجَالِسِ الْأَدَبِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَمَجَالِسِ الْأَنْسِ . وَكَانَ لَا يَرْتَاحُ إِلَى مُعَاشَرَةِ الْأَعْيَانِ ، وَأَبْنَاءِهِمْ بَلْ يَسِيلُ إِلَى الْمَجْلُوسِ مَعَ أَبْنَاءِ الشَّعْبِ وَخَاصَّةً النَّاسِخِينَ مِنْهُمْ . فَتَرَاهُ يَحِبُّ التَّجْوِيدَ ، وَالشُّوْرَةَ عَلَى الْأَوْضَاعِ الْبَالِيَةِ ، وَيُسَارِكُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ فِي الْاجْتِمَاعَاتِ السِّيَاسِيَّةِ الَّتِي تَضُمُّ الْعُمَالِ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ . وَإِذَا كَانَ « عَاوِل » يَرْتَاحُ إِلَى هَذَا الْوَسْطِ فَإِنَّ الْمُسْتَرْدِّينَ إِلَيْهِ لَا يَرْتَاحُونَ لَهُ لِإِلْتِمَازِهِ إِلَى عَائِلَةِ الْبَاسِيَّاتِ وَمَعْرِفَتِهِ لِعِلْمِيَةِ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَانُوا يَلُومُونَهُ بِدَوْرِهِمْ عَلَى تَرْوِيلِهِ إِلَى الْحُضِيِّضِ مَعَ السُّوقَةِ وَ « الزَّوَاغِرِيَّةِ » أَلْعِبَارِينَ فَهُوَ كَالسَّهْمِ الْعَائِرِ لَا يُدْرَى مَنْ رَمَى بِهِ وَلَا مَنْ يُصِيبُ .

وَكَانَ «عَادِلٌ» مُحِبُّ إِحْسَاسًا عَمِيقًا بِأَنَّهُ شَاذٌ ، لِأَنَّ الْمُجْتَمَعَ فَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ . فَهُوَ يَمْنَعُ حَيَاةَ الْعَائِلَةِ الْحَارِكَةِ وَمَنْ يَدُورُ فِي قُطْبِهَا . فَهِيَ حَيَاةُ الطُّفْلِيِّينَ الْفَاشِلِينَ . وَيَحِزُّ فِي نَفْسِهِ ظُلْمَ نِظَامِ الْحَيَاةِ الْفَرَنْسِيَّةِ وَنَهْشُهُ لِحِرَاتِ الشَّعْبِ وَلَكِنَّهُ لَا يُسْكِنُ لَهُ أَنْ يَشْعُرَ بِذَلِكَ عَمِيقَ الشُّعُورِ لِأَنَّهُ مَحْظُوظٌ وَلَا تَهْضِمُهُ بِسُهُولَةِ الْأَوْسَاطِ الشَّعْبيَّةِ وَخَاصَّةً مِنْهَا الْوَاعِيَةُ فَهِيَ تَرْفُضُهُ أُسَاسًا .

عَلِمَ «الطَّاهِرُ» مِنْ «دُوحَةِ» أَنْ حَيَاةَ «عَادِلٍ» الْجِنْسِيَّةَ بَشِيعَةٌ ، وَأَنَّهُ يَنْعَمُ مَعَ الْفَاشِلِينَ مِنْ عَلَيْهِ الْقَوْمِ فِي السُّوَبِقَاتِ أَثْنَاءَ لَيَالٍ حَمْرَاءَ كَانَ أَبُوهُ «الْفَرِيكَ مُصْطَفَى» لَا يَعْلَمُ عَنْهَا شَيْئًا وَهُوَ سَرٌّ لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ الدَّائِرَةِ . وَلَكِنْ أَيْنَ لِلْسَّرِّ أَنْ يَبْقَى مَكْتُومًا مَعَ «دُوحَةِ» الَّتِي تَسْتَرِقُ السَّمْعَ وَتَسْتَدْرِجُ كُلَّ الْخَدَمِ وَتُعَايِنُ بِنَفْسِهَا أَيْضًا .

وَلَكِنْ «عَادِلٌ» كَانَ لَهُ بَيْنِيهِ عِلَاقَةٌ عَلَى غِيَابِهِ الشَّهْوَانِيَّةِ ، طُقُوسُهُ الْجِنْسِيَّةُ . فَهُوَ يَرْتَعِبُ بَيْنَ ثَاوِلِثٍ مِنَ النِّسَاءِ .

«عَلِيجِيَّةٌ» بِنْتُ لَا تَتَجَاوَزُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ لَهَا عَمَلٌ طَافِيْفٌ فَهِيَ تَغْسِلُ لَهُ سَاقِيهِ عِنْدَ النَّوْمِ أَمَامَ فِرَاشِهِ وَيَحِبُّ عَلَيْهَا أَلَّا تَرْفَعَ بَصَرَهَا وَلَا تَنْتَبِهَ لِمَا يَفْعَلُ سَيِّدُهَا وَلَمَّا يَسْقُطُ فِي الْإِنَاءِ . تَحَدَّثَتْ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا ، رَغَمَ وَصَايَا «رِنِح» إِلَى «حَلِيمَةِ» زَوْجَةِ الْجَنَانِ فَكَانَ نَصِيْبُهَا أَنْ رُفِعَتْ أَرْجُلُهَا إِلَى الْعَصَا . وَلِهَذَا فَهِيَ إِذَا دُعِيَتْ وَخَذَهَا بِدُونِ «رِنِح» إِلَى غَسَلِ رِجْلَيْ سَيِّدِهَا فَلِتَشْهَدَ مِنْ دُونِ أَنْ تُنْبِسَ بِكَلِمَةٍ جَلَدَ غَمِيرَةٍ وَيُسْكِنُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مَرَّةً فِي الْأُسْبُوعِ أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ . هَذَا مَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَتَنَبَّأَ بِهِ ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا حَسَبَ الْحَالَاتِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي يَسُرُّ بِهَا سَيِّدُهَا .

أَمَّا «رِنِح» فَهِيَ سَوْدَاءُ اللَّوْنِ كَقِطْعَةِ أَبْتُوسٍ لَمْ تَتَجَاوَزْ الْأَرْبَعِينَ ، نَحِيلَةٌ الْقَوَامِ ، رَقِيْقَةٌ أَسْلَاحِيحٌ إِلَّا فَمَهَا إِذَا كَانَ يُعْجَبُ بِهَا سَيِّدُهَا وَخَاصَّةً عِنْدَمَا يَفْرُرُ أَنْ

تَسِيلُ لَهُ هِيَ بِنَفْسِهَا رِجْلَيْهِ فَتَلْتَذُّ هِيَ مِنْ إِصْبَعِ سَائِهِ وَيَلْتَذُّ هُوَ مِنْ فَمِهَا بِوَاسِطَةِ قَضِيْبِهِ .

و « رِيح » كَانَتْ فِي خِدْمَةِ أَحَدِ الْبَايَاتِ الصَّغَارِ ، فَقَطِنَ زَوْجَهَا إِلَى نَزْوَةٍ مِنْ سَيْلِهِو جِيَالِ إِمْرَأَتِهِ فَقَتَلَهُ فَحُوكِمَ وَشُيْقَ بِمَشْنَقَةٍ « بَارْدُو » بِأَمْرِ مِنَ الْبَايِ . وَانْتَهَى الْمَطَافُ « بِرِيح » إِلَى بَيْتِ « الْفَرِيكِ مُصْطَفَى » فَسَلَّمَهَا إِلَى ابْنَتِهِ لِخِدْمَتِهِ فَكَانَتْ تَعْدِمُهُ بِسَاعِدَيْهَا وَفِيهَا .

و « خَلِيْمَةُ » زَوْجَةُ « الْجَنَانِ » إِمْرَأَةٌ فِي الْعِشْرِينَ ، جَمِيلَةٌ رَشِيْقَةٌ الْقَدِّ ، جَمَالُهَا بِدَوِيٍّ ، كَانَتْ مِنْ جَمَلَتِهَا مَهَامُهَا أَنْ تَصْنَعَدَ فِي كُلِّ صَبَاحٍ بِطَبَقِ الْغِلَالِ عَلَى حَسَبِ الْفُصُولِ وَبِسَاءٍ يَجُودُ بِهِ الْبُسْتَانُ . فَهَذَا بِرُتْقَالٍ أَوْ عِنَبٍ أَوْ تَيْنٍ أَوْ ثِفَاحٍ أَوْ إِجَاصٍ أَوْ غَيْرِهَا . وَتَدْخُلُ مِنْ « بَابِ الْخَضِرَةِ » فَلَا يَفْطَنُ إِلَيْهَا أَحَدٌ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ قَبْلَ نُهُوصِ « رِيح » وَ « عِلْجِيَّة » . وَتَطْرُقُ الْبَابَ ، فَإِنْ سَمَحَ لَهَا بِالْدُخُولِ فَعَمَتَاهُ الْاسْتِعْذَادُ لِلذَّوَةِ وَإِنْ أَمَرَهَا بِوَضْعِ الطَّبَقِ عَلَى الْمَائِدَةِ فَمَا عَلَيْهَا إِلَّا بِالْانْصِرَافِ . وَهِيَ بِدَوْرِهَا إِنْ كَانَ لَهَا مَا نَعِيَ ، تَطْرُقُ الْبَابَ وَتَقُولُ لَهُ :

- هَذَا الطَّبَقُ عَلَى الْمَائِدَةِ .

وَتَنْصَرِفُ وَيَفْهَمُ أَنَّهُ لَيْسَ بِإِمْكَانِهَا الْغُرُقُ مَعَهُ فِي اللَّذَوَةِ لِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ . هَلُوَ حَيَاتُهُ « غَالِدِ » إِنْكَشَفَتْهَا « الطَّاهِرِ » وَدَهَشَ لِلْأَمْرِ وَتَقَمَّ عَلَيْهِ ثَقَمَةٌ كَبِيرَةٌ وَلَكِنَّهُ تَرَاجَعَ فِي حَقِيقِهِ عَلَيْهِ قَاتِلًا :

- كَيْفَ أَلْقَمَ عَلَيْهِ ، وَأَنَا قَدْ تَرَدَّدْتُ مِثْلَهُ فِي هَذَا الْفَسَادِ بِسَبَبِ هَذِهِ الْمَرَآةِ ، ثُمَّ إِنْ « غَالِدِ » رَغِمَ هَذَا لَا يَعْرِفُ مِنْ أَمْرِ أَحَدٍ شَيْئًا . وَهُوَ مَبْجُلٌ مُكْرَمٌ وَلَهُ الْمَجْرَاءَةُ عَلَى رَفْعِ صَوْتِهِ وَالتَّغْيِيرِ عَنْ رَأْيِهِ بِكُلِّ صَرَامَةٍ وَكَأَنَّهُ مِنَ النَّسَالِ الْعَابِدِينَ وَلَسَادًا لَا أَكُونُ مِثْلَهُ وَهَلِيهِ « دُوجَةُ » لَا تَنْبَسُ بِكَلِمَةٍ لِأَيِّ كَانَ ، وَهِيَ قَادِرَةٌ عَلَى إِطْلَاعِي

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ بَلَى هِيَ قَادِرَةٌ أَيْضًا عَلَى أَنْ تَلْعَبَ دُورًا فِي الْمُحْطَطِ الَّذِي هِيَئَتْهُ
« لِعَادِلٍ » لَافْتِكَالِكِ « رُبَيْدَةُ » مِنْهُ .

وَكَانَ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ :

لَمْ أَكُنْ أَغْرِفُ أَتَيْتُ عَلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ مِنَ السَّفَالَةِ وَالْفَسَادِ . أَنَا الَّذِي التَّصَبَّتُ
لِلنَّاسِ مَقُومًا لَا غُوجَا جِهَهُمْ فِيمَا قَبْلُ . وَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى أَنْ أُمْلِكَ نَفْسِي لِأَوَّلِ إِعْرَاءٍ . لَقَدْ
مَاتَتِ الرَّجُلَةُ فِيمَا . وَانْحَدَرْتُ إِلَى دَرَكَاتِ التَّذَالَةِ وَالْخِذْلَاعِ . اللَّهُ يَرْحَمُنِي . لَقَدْ
مَاتَ « طَاهِرٌ » وَوُلِدَ « طَاهِرٌ » آخَرُ . وَكَمْ كُنْتُ أَوْدُ أَنْ أُدْعَى « فَاسِدٌ » . وَلَكِنْ هَذَا
مَا قُدِّرَ لِي : فَتَحَ لِي « بَابُ الْعَرْشِ » فَدَخَلْتُ تَطْيِيفَ النَّفْسِ ، طَاهِرَ الدُّيْلِ إِلَى
هَذَا النَّيْتِ وَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ وَجَّهْتُ « بَابَ الْخُضْرَةِ » ثَابِتَ الْقَدَمِ فِي حَيَاةِ الدَّعَاوَةِ
وَالْفَسَادِ ، وَالْخِذْلَانِ .

ثُمَّ يَلْتَفِتُ « الطَّاهِرُ » إِلَى نَفْسِهِ وَيَقُولُ :

لَمَّاذَا هَذَا الْحُكْمُ الْقَاسِي .. ؟ أَنَا مَا زِلْتُ شَابًّا ، وَبُحْرَةُ الْإِرْلَاقِ وَفَتْنِي ، عَرَفْنِي
بِأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ وَدَخَلْتُ بِهِ إِلَى أَعْمَاقِ حَيَاةِ النَّاسِ مَا يَسْتَعْنِي مِنَ الرُّجُوعِ وَالتَّوْبَةِ
وَالْتَحَاذِ الْقَرَارِ اللَّازِمِ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ ؟ وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ أَسْتَقْبِلَ الْحَيَاةَ وَأَنْ
أَعِيشَهَا بِكُلِّ صَحْبٍ وَتَجِبٍ وَأَنْ أَكْفُ عَنْ تِلْكَ السَّيْرِ الْهَامِشِيَّةِ الْتَبَعِيَّةِ عَنْ حُلُوقِ
الدُّنْيَا وَمَرْهَا . هَذَا مَرَكَبٌ جَدِيدٌ ، إِرْكَبُهُ يَا « طَاهِرُ » وَلْتَمَتَّحِنِ رُجُلَتَكَ وَصَلَابَتَهُ
أَعْصَابَكَ وَخَصَافَتَهُ رَأْيِكَ ... فَخُضْ إِذَنْ هَذَا الْبَحْرَ اللَّجُوجَ بِأَمْوَاجِهِ الطَّامِشَةِ
وَلْتَعْرِفْ كَيْفَ تَصِلُ إِلَى شَاطِئِ السَّلَامَةِ .

* * *

عَلِمَ « الطَّاهِرُ » مِنْ « دُوحَةِ » أَنْ « عَادِلٌ » أَرَادَ مَرَاتٍ عَدِيدَةً اسْتِئْذَاجَ
« رُبَيْدَةُ » إِلَى عُرْفَتِهِ بِشَتَّى آخِيلٍ وَلَكِنْ « رُبَيْدَةُ » الْمُرْتَبِطَةُ بِسَيِّدَتِهَا رُوحَةٍ

« الْفَرِيك » وَالذَّكِيَّة لَمْ تَقَعْ فِي أَحْوَالِهِ مِثْلَ غَيْرِهَا . وَشَكَتْهُ إِلَى سَيِّدَتِهَا وَبَيَّهَتْ أُمَّهُ عَلَيْهِ تَثْبِيحًا صَارِمًا جَعَلَهُ يُفَكِّرُ فِي الزَّوْاجِ بِهِوَ الْفَتَاةِ وَيَمِيلُ إِلَى حُبِّهَا .

وَلَكِنَّ « عَادِل » لَا يَعْرِفُ الْحُبَّ الْحَقِيقِيَّ وَهُوَ الْمَحْدُولُ ، وَلَا يُفَكِّرُ إِلَّا فِي إِزْوَاجِ شَهَوَاتِهِ وَلَا يَتَصَوَّرُ الْمَرْأَةَ إِلَّا مَتَاعًا يَسْفِي غِلَّتَهُ الْجُنْسِيَّةَ مِنْهُ ثُمَّ يَتَلَاثَى كُلَّ شَيْءٍ . الْحُبُّ عِنْدَهُ إِشْبَاعٌ لِلْحَوَاسِّ وَغَرَقٌ فِي اللَّذَّةِ وَلَا فَنَاءٌ .

قَالَ « لِلطَّاهِر » بَعْدَ أَيَّامٍ مِنْ تِلْكَ الْحَادِثَةِ وَبَعْدَ أَنْ هَذَا رَوْعُ « الطَّاهِر » وَتَبَعَّرَتْ الْقِيَمُ عِنْدَهُ ، وَدَخَلَ فِتْرَةً أُخْرَى مِنْ حَيَاتِهِ .

- أَنَا يَا « طَاهِر » ضَحِيَّةُ الْمُجْتَمَعِ الَّذِي أَضَاعَ قِيَمَهُ الْإِنْسَانِيَّةَ ، وَلَمْ يَفْزِرْ عَلَى الْإِيمَانِ بِقِيَمِهِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْأَجَانِبِ الَّذِينَ يَحْكُمُونَنَا الْيَوْمَ . أَنَا غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى أَنْ أُحِبَّ كَمَا كَانَ يَحِبُّ أَجْدَادِي وَلَا أَنْ أُوْمِنَ بِإِيمَانِهِمْ وَلَا أَنْ أُجَاهِدَ سِيَاسِيًّا جِهَادَهُمْ . وَلَا أَنْ أَكُونَ أَوْيًّا مِثْلَهُمْ . أَنَا الذَّبَذْتُ بِعَيْنِهَا وَالْحِذْلَانِ الْمُجَسِّمُ .

- وَمَا يَسْمَعُكَ مِنْ أَنْ تُحِبَّ كَمَا أَحَبَّ الْأَجْدَادُ وَتُؤْمِنَ بِإِيمَانِهِمْ وَتُجَاهِدَ جِهَادَهُمْ وَتَكُونَ أَوْيًّا مِثْلَهُمْ وَقَدْ أَغْطَاكَ اللَّهُ كُلَّ شَيْءٍ الْهَالِ وَالْجَاهُ وَالْفَرَاغُ .

- أَلَيْتَ يَا « طَاهِر » أَسْعَدُ مِنِّي . حَافِظْتَ عَلَى شَهَامَةِ أَهْلِ الرِّيفِ وَاسْتِقَامَتِهِمْ وَجَدِهِمْ . وَسَكَتَ « الطَّاهِر » وَهُوَ شَاعِرٌ بِأَنَّهُ يَنْتَقِلُ مِنْ عَالَمٍ إِلَى آخَرَ . قَالَ « عَادِل » :

- أَنْظِرْ إِلَيَّ أَنَا ... وَأُرِيدُ مِنْكَ أَلَّا تُغْضِبَ لِإِنِّي سَأَتَحَدَّثُ عَنْ مَوْضُوعٍ غَضِبْتَ مِنْهُ سَابِقًا . وَنَظَرُ إِلَى « الطَّاهِر » لَعَلَّهُ سَيَتَوَرَّ عَلَيْهِ مِثْلُ الْمَرَّةِ الْأُولَى وَلَسَا رَأَهُ هَادِئًا ، سَاكِتًا إِسْتَطْرَدَ :

- أنا أُجِبُ « رُبَيْدَةَ » مَا فِي ذَلِكَ شَكُّ ... وَلَكِنْ حَبِّي سَيَقِفُ عِنْدَ حَوَازِي لَهَا فِي
يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ ... الْحُبُّ قِتَاءٌ فِي الْمَحْبُوبِ جِسًا وَمَعْنَى ... وَأَنَا غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى أَنْ
أُجِبَ فِيهَا جِصَالَهَا ، وَسَمُوهَا ، وَتَقَانِيَهَا ، وَأَنْ أَضْحِيَّ مِنْ أَجْلِهَا ، وَأَمُوتَ فِي
سَبِيلِهَا ، وَفِي سَبِيلِ إِمْتِلَاقِهَا وَالْإِفْرَادِ بِهَا . أَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَضْمَعَ وَفَيْي ،
وَمَارِئِي فِي سَبِيلِهَا . كَيْفَ يُسْكِنُ أَنْ أُجِبَ إِذَنْ ؟ مِثْلًا أَحَبَّ جَمِيلٍ وَقَيْسٍ وَأَبُو
لُؤَاسٍ وَالنَّاسُ الْأَسْوِيَاءُ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ . الْهَادَّةُ يَا « طَاهِر » أَكَلْتُ نَفْسِي ، وَجَعَلْتَنِي
أُرِيدُ أَنْ أَرْحِي كُلَّ حَوَاسِي ، وَكُلَّ خَلْقِي فِي جَسَدِي وَكُلَّ غَضَبِي ... مَا أُنْشَعَ مَا
وَصَلْتُ إِلَيْهِ ! وَلَكِنْ هِيَ الْحَقِيقَةُ يَا « طَاهِر » ... وَأَنَا أَغْرِفُ أَنْ « رُبَيْدَةَ » لَا
تُحِبُّنِي . وَهَلْ تَظُنُّ أَنْ هَذَا الصَّدُّ سَيَحْفَظُنِي عَلَى أَنْ أُحْتَرَقَ فِي حُبِّهَا ؟ .. لَا ... إِلَهِي
سَأَعْرِضُ عَنْهَا ... سَأَتْرُكُهَا لَكَ ... لِإِثْنِي غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى أَنْ أُجِبَ . عَلَى أَنْ أَتُغَبَّ
مِنْ أَجْلِ هَذَا الْحُبِّ ... هَذِهِ مَأْسَاتِي يَا « طَاهِر » .

لَمْ يُسَجِرْ « الطَّاهِرُ » جَوَابًا ، وَشَعَرَ كَأَن مَاءً بَارِدًا سَكَبَ عَلَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ أَحْسَنَ
بِالْإِفْرَاجِ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ :

- وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ... لَا فَائِدَةَ إِذَنْ مِنْ تَطْبِيقِ الْخُطْبَةِ لِإِنْعَادِ هَذَا
السُّتَائِسِ .

ثُمَّ قَالَ « عَائِل » :

- وَلَذَلِكَ فَشِعْرِي كَمَا رَأَيْتَ بَارِدٌ ، وَلَا أَحْسَنُ فِيهِ بِتِلْكَ الْجَذْوَةِ الَّتِي أَعْرِفُهَا فِي
شِعْرِنَا الْعَرَبِيِّ ... الْأَيْمَانُ يَنْقُصُنِي ... الْإِسْمَانُ بِالْكَلِمَةِ عِنْدَمَا تَخْرُجُ مِنَ الْأَعْقَابِ .
وَحَتَّى إِيمَانِي بِاللَّهِ فَهُوَ لَا يُشْبِهُ إِيمَانَ وَالِدِي ... أَرَأَيْتَ تَقْوَى وَالِدِي ، وَصَلَاحَهُ ،

وَاسْتِقَامَتَهُ ، وَإِشَاعَتَهُ فِي هَذَا الْمَجْتَمَعِ الْفَاسِدِ ؟.. مَاذَا حَصَلَ لِي مِنْ هَذَا كُلِّهِ إِلَّا
فَلْسَفَةُ أَوْيُنُ بِهَا ؟ وَلَسْتُ أَذْهَبُ عَلَى الْقَادِرِ عَلَى التَّمَسُّكِ بِهَا ..؟ أَوْيُنَ بِاللَّهِ وَبِأَنَّ
اللَّهَ مُتَتِّهِ الْكِبَالِ وَبِأَنَّ تَوْفِيهِ إِلَيْهِ هُوَ فِي السُّمُوِّ يَنْفِيهِ إِلَى الْكِبَالِ ؟ أَنَا حَلَّاجِي
عِنْدَمَا أُسْرِفُ فِي الْإِيمَانِ بِقُدْرَةِ الْإِنْسَانِ عَلَى أَنْ يَتَّحِدَ مَعَ اللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ حِسًّا
وَمَعْنَى حِسًّا فِي هَذِهِ اللَّذَّةِ الْجِنْسِيَّةِ ، الْجَمَالِيَّةِ إِنْطِلَاقًا مِنَ الْخَوَاسِ ، وَمَعْنَى فِي
لَذَّةِ السُّمُوِّ إِلَى الْعَمَاقِ الْعُلُوسِيَّةِ ... تَقُولُ لِي : كَيْفَ تُوَفَّقُ بَيْنَ هَذِهِ
الْمُتَنَاقِضَاتِ . أَنَا أَخُوكَ أَغْبِطُ فِيهَا ... وَأَشْفَى بِهَا ... وَلَا تَخْرُجْ لِي مِنْهَا .
قَالَ « الطَّاهِرُ » :

- مَا هَذَا التَّعْقِيدُ يَا « عَادِلُ » ؟.. الْإِيمَانُ وَاضِحٌ ، وَالْحُبُّ وَاضِحٌ ، أَنْتَ أَشْفَى
مَنْ رَأَيْتُ .. أَنَا فِي فَقْرِي وَخِصَاصَتِي ، وَجُوعِي ، وَجِزْمَانِي أَسْعُدُ مِنْكَ نَفْسًا ...
نَعَمْ فِي السَّابِقِ أَمَّا الْآنَ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ ... مَا هَذَا الشَّقَاءُ يَا « عَادِلُ »
- وَأَكْثَرُ مِنْ هَذَا يَا « طَاهِرُ » ... أَنَا أَنْتَهِي إِلَى الْحَرَكَةِ النُّضَالِيَّةِ فِي وَاجِهَاتِهَا
الْعَدِيدَةِ : فِي التَّجَمُّعَاتِ الَّتِي تَنْتَهِي إِلَى جَمَاعَةِ الصَّالَوَاتِ ، وَالْأُخْرَى أَلْمَلْتَجِمَةِ
بِالطَّبَقَاتِ الشَّعْبِيَّةِ وَأَنَا أَتَارَجَعُ بَيْنَهَا ، وَلَا أَجِدُ فِيهَا مَنْ يَأْخُذُ أَقْوَالِي بِجِدِّيَّةٍ . هَذِهِ
حَالِي ...

وَهَذَا رَوْعُ « الطَّاهِرِ » وَاعْتَقَدَ أَنَّ هَذِهِ الْمُسْكِينِ لَا يُمَكِّنُ لَهُ أَنْ يَقِفَ فِي وَجْهِهِ ،
وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الرُّوْحَةِ وَالصَّلَابَةِ مَا يَجْعَلَانِهِ قَادِرًا عَلَى الدَّفَاعِ عَنْ يَحِبِّ أَوْ مَا
يَعْتَقِدُهُ الْحَقُّ ...

وَأَحْسَنُ بِنَفْسِهِ يَعْظُمُ فِي عَيْنِ ذَاتِهِ ، وَيَتَوَقَّعُ إِلَى الرُّجُوعِ إِلَى صَلَابَةِ طَبْعِهِ
الْقَدِيمِ ، وَلَكِنَّ هَذِهِ « فُوجَةٌ » الثَّقَلَةُ السُّودَاءُ ... ثِقَلَةُ الضَّعْفِ ... يَحِبُّ أَنْ تَزُولَ
وَأَنْ تَنْتَهِيَ ... وَلَكِنَّهُ سُرْعَانَ مَا يَقُولُ :
- لَنْ تُغَيِّرَ مِنْ جِدَّتِي شَيْئًا وَهِيَ نَزْوَةٌ غَائِبَةٌ لَنْ تَأْكُلَ مِنْ نَفْسِي مِثْلًا أَكَلِ

ضَعُفُ الْإِيمَانِ مِنْ نَفْسِ « عَادِل » .

وَدَخَلَتْ جِنْدَ ذَلِكَ « رُيْبِدَة » إِلَى الْمَكْتَبَةِ وَقَدْ أَتَتْ بِالْقَهْوَةِ « لِعَادِل » وَ « طَاهِر » وَهِيَ تَضْحَكُ بِمِثْلِ عَادَتِهَا ، وَتَمْرُزُ الْمَرْحُومَ الْبَرِيءَ قَائِلَةً :

- أَنْتِ تَتَفَلَّسَتَانِ ... وَتَقْضِيَانِ أَوْقَاتِكُمَا فِي الْقِرَاءَةِ وَالْمُطَالَعَةِ وَالْحَدِيثِ الَّذِي لَا يُفِيدُ بَيْتًا « أَبِي مُصْطَفَى » يَتَحَبَّطُ فِي مَشَاكِلَ مَعَ الْبُتْرُكِ وَالْعَمَلَةِ ... وَخَرَجَتْ .

وَرَادَ حُبُّ « الطَّاهِر » لَهَا ... ذَلِكَ الْحُبُّ الَّذِي لَا تَشُوهُ شَفَقَةٌ ... وَ « رُيْبِدَة » يَتِيمَةٌ ... وَلَا الشَّعَاطُفُ وَهِيَ السَّرَاةُ الضَّعِيفَةُ وَهُوَ الرَّجُلُ الْفَقِيرُ الْمُسْتَضْعَفُ فِي الْمُجْتَمَعِ . بَلْ حُبُّ الدُّدِّ لِلدُّدِّ ... يُحِبُّ فِيهَا جَمَالَهَا ... وَخِصَالَهَا وَسُمُومَهَا ... فَهَلْ تَقْبَلُهُ وَهِيَ لَا تَعْرِفُ مِنْهُ وَعَنْهُ شَيْئًا كَبِيرًا ؟

* * *

عَلِمَ « الطَّاهِر » أَنَّ « رُيْبِدَة » تَحْتَقِرُ « عَادِل » وَهِيَ فِي مَلَاخَظَاتِهَا لَهَا إِلْهَامًا تَعْنِيهِ بِالذَّاتِ . فَصَمَّ عَلَى الْإِكْتِيَابِ عَلَى الْعَمَلِ ، وَأَظْهَرَ مِنَ الْكِفَاءَةِ ، وَالْمَقْدُورَةِ مَا جَعَلَ « الْفَرِيكَ مُصْطَفَى » يُلَهِّجُ بِذِكْرِهِ ، وَيَتَوَهَّ بِخِصَالِهِ أَمَامَ كُلِّ الزَّائِرِينَ . وَبَدَأَ « الطَّاهِر » يَظْهَرُ فِي أَوْسَاطِ الْأَعْيَانِ ، وَيَسْتَضِيئُهُ هُوْلَاءُ مَعَ « الْفَرِيكَ مُصْطَفَى » حَتَّى أَتَتْهُ تَشْرِيفٌ بِالسُّمُولِ أَمَامَ الْبَابِ وَقَبْلَ يَدِهِ . وَبَدَأَ يَقْبَلُ ، شَيْئًا فَشَيْئًا ، حَيَاةَ هَذِهِ الطَّبَقَةِ مِنَ الْمُجْتَمَعِ وَيَنْدِمِجُ فِيهَا عَلَى الْأَقْلَ طَاهِرِيًّا .

وَكُلَّمَا أَزْدَادَ تَغْلُغْلُا فِي الْأَعَائِلَةِ اكْتَشَفَ مَشَارِفَ أُخْرَى مِنَ الْخَضَارَةِ ، وَأَصْبَحَ ذَوَاقًا لِلْجَمَالِ ، وَالْفَنِّ ، وَالْأَدَبِ ، وَاللِّبَاسِ ، وَالْكَلامِ السُّمِّقِ ، وَذَهَبَ بِهِ الْأَمْرُ حَتَّى إِلَى إِظْهَارِ بَعْضِ الْإِحْتِقَارِ لِلْخَدَمِ وَالْعَمَلَةِ أَسْوَأَ بِأَسْيَائِهِ .

وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقْلَعْ عَنْ شَيْءٍ وَاحِدٍ ، هُوَ أَلَمُهُ ، وَشَقَاؤُهُ وَوَصْمَتُهُ : « دُوحَة » . لَمْ يَنْفَكْ يَقْنَى فِي اللَّذَّةِ مَعَهَا ، وَيَذُوبُ ذَوْبَانًا ، وَهِيَ تَحْكِي لَهُ الشَّدُوذَ السَّائِدَ فِي

الأوساط التي تعرفها وتُسمَّى الأسَاءَ بِأَسَائِهَا . وَمَا حِيلَتْهُ وَهُوَ إِلَى ذَلِكَ جَعَلَهَا مَطِيئَةً إِلَى « زُبَيْدَةَ » تُحَدِّثُهَا عَنْهُ ، وَتَحْكِي خِصَالَهُ ، وَرَجُولَتَهُ .

وَالْتَقَطَتْ أَحْبَارُهُ عَنْ أَهْلِ بَلَدَتِهِ ، وَرَاحَ عِنْدَمَا يَسُرُّ أَمَامَ مَقْعَى « خَالٍ عَلَى » يَحُثُّ الْخَطِيءَ فَيُلَمِّحُ فِي ذَلِكَ الدُّخَانِ الْمَتَعَالِي ، رُؤُوسَ فُلَانٍ وَفُلَانٍ فَيَتَحَسَّرُ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ عَلَى تِلْكَ الْأَيَّامِ السَّعِيدَةِ الْمَمْلُوءَةِ بِسَاطَةِ ، وَسَدَاجَةِ ، وَلَكِنَّهُ يَنْقُمُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ خِصَاصَةٍ وَمَهَانَةٍ .

وَبَدَأَتْ لِقَاءُهُ مَعَ « زُبَيْدَةَ » تَطَوُّلٌ فِي الْمَكْتَبَةِ ، وَهُوَ يُحَدِّثُهَا عَنْ حَلِهِ لِشَاكِلَ عَدِيدَةٍ تَهُمُّ الضَّيْعَاتِ ، وَتَتَّبِعُهُ لِأَهْلَالِ الْمُكَلَّفِينَ بِالْأَرْضِي وَبِرَبِيعِهِ الصَّفَقَاتِ . وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يُرِيدُ « زُبَيْدَةَ » أَنْ تَسْتَدْرِجَهُ إِلَى الْإِطْنَابِ فِي الْحَدِيثِ عَنْ بَلَدَتِهِ ، وَأَهْلِهِ ، وَلَكِنَّهُ يَرَاوُغُ ، أَوْ يُفِيضُ فِي وَصْفِ خِصَالِ وَالِدِهِ ، وَمُعَامَرَاتِهِ وَهُوَ الْمَعْرُوفُ عِنْدَ أَهْلِ « قَصْرِ الْفَرِكِ » .

قَالَ « الطَّاهِرُ » لَهَا فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ ، بَعْدَ أَنْ رَأَى أَنَّهَا بَدَأَتْ تَسْمِيلَ إِلَيْهِ :
- يَا « زُبَيْدَةَ » .. أَنَا أَقْدَرُ فَيْلِكَ خِصَالَكَ وَتَعَانِيكَ فِي عَمَلِكَ . إِنَّكَ مِثْلِي فِي هَذَا الْفَقْرِ . لَيْسَ هُنَاكَ مَنْ يُخَلِّصُ غَيْرَنَا .
- وَأَنَا كَذَلِكَ يَا « طَاهِرُ » .

- إِنَّ هَذَا التَّقْدِيرَ وَهَذَا الْإِخْلَاصَ لَيَصِلُ بِي إِلَى إِحْسَاسٍ لَسْتُ أَذْرِ مَا هُوَ ...
إِنِّي غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى أَنْ أُغَيِّرَ عَنْهُ ...

وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ إِسْحَبَتْ « زُبَيْدَةُ » وَقَالَتْ لَهُ :

- لَقَدْ تَذَكَّرْتُ أَنَّ سَيِّدَتِي فِي حَاجَةٍ إِلَيَّ

وَتَغَيَّرَ أَحْوَالُ بَيْتِهَا ، وَبَدَأَتْ النُّظَرَاتُ تَتَغَاطَفُ وَتَلِينُ ، وَفَهَمَ « الطَّاهِرُ » أَنَّ « زُبَيْدَةَ » كُنْ تَقْبَلُ بَوْحًا بِالْحُبِّ إِلَّا إِذَا كَانَ طَرِيقًا إِلَى الزَّوْاجِ الْمَحْقُوقِ .

وَقَرَّرَ أَنْ يُفَاتِحَ « عَادِلَ » فِي ذَلِكَ فِي جُلْسَةٍ مِنْ جُلْسَاتِهَا ، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ يَبُونُ

هَذَا الْفَاسِقَ وَيَجْعَلَهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَنْهَسَ بِكَلِمَةٍ أَمَامَهُ .

وَتَعَوَّدَ « الطَّاهِرُ » أَنْ يَقِفَ فِي الصَّبَاحِ فِي شَرْفَةِ عُرْفَتِهِ الْمُطْلِقَةِ عَلَى الْبُسْتَانِ فَيَرَأِيبُ أَعْمَالِ الْجَنَانِ وَالْعَمَلَةِ وَيَنْظُرُ إِلَى الْغَايِبِ وَالرَّائِعِ ، وَبِالطَّبْعِ أَصْبَحَ يَفْطِنُ إِلَى « حَلِيمَةِ » وَفِي تَسْرُعٍ إِلَى صُعُودِ الْمَذْرَجِ الطَّوِيلِ فَإِذَا أَنْ تَعَوَّدَ بِسُرْعَةٍ وَعِنْدَ ذَلِكَ يَعْرِفُ أَنَّهَا لَمْ تَقُلْ حِصْنَهَا مِنَ اللَّذَّةِ ، أَوْ أَنَّهَا لَا تَظْهَرُ إِلَّا بَعْدَ مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ وَمَعْنَاهُ أَنْ « عَادِلٌ » قَامَ بِطُقُوسِهِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِ .

وَفِي الْيَوْمِ الَّذِي قَرَّرَ فِيهِ « الطَّاهِرُ » أَنْ يَدْخُلَ فِي الْفَتْرَةِ الْخَاسِمَةِ مِنْ حُطْبِهِ قَامَ مُبَكِّرًا وَانْتَصَبَ فِي الشَّرْفَةِ ، فَرَأَى « حَلِيمَةَ » فَجَرَى بِخَفِيفَةٍ وَرَشَاقَةٍ كَأَنَّهَا دَاجِلَةٌ الْجَنَّةِ ، وَتَصْعَدُ الْمَذْرَجَ وَفِي تَقْفُرٍ قَفْرًا كَالْعَزَالَةِ الشَّارِدَةِ ، وَفَتَحَتْ « بَابَ الْخَبْزَةِ » وَغَابَتْ عَنِ الْأَطْيَارِ هِيَ وَطَبَقُهَا .

وَبَعْدَ بَرْهَةٍ صَعِدَ « الطَّاهِرُ » الْمَذْرَجَ الْأَيْسَرَ ، وَفَتَحَ يَرْفِقِي بَابَ الْمَنْعَدِ ، وَوَصَلَ الْمَنْعَدَ الْمُفْهِمِي إِلَى عُرْفَةِ « عَادِلٍ » وَفَتَحَهُ بِسُرْعَةٍ فَوَجَدَ « عَادِلٌ » وَ« حَلِيمَةَ » عَلَى الْفِرَاشِ فِي أَحْسَلِ أَوْقَاتِ اللَّذَّةِ بِحَيْثُ أَنَّهَا لَمْ يَفْطِنَا إِلَى دُخُولِهِ ، وَلَا يُغْفَلُ أَنْ يَدْخُلَ إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ أَحَدٌ بِدُونِ إِذْنِ « عَادِلٍ » وَصَاحَ فِيهَا « الطَّاهِرُ » فَانْزَعَجَتِ الْمَرْأَةُ ، وَفَقَزَتِ مَذْعُورَةً . أَمَا « عَادِلٌ » فَإِنَّهُ لَمْ يَتَحَرَّكَ وَقَالَ :

- وَصَلَتْ بِكَ الْوَفَاقَةُ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ ... مَا سَأَلْتُكَ وَشَأْنِي يَا رَجُلُ .. أَنَا لَا أَخَافُ شَيْئًا . وَلَكِنْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ السِّكِينَةُ سَيَقْتُلُهَا زَوْجُهَا إِنْ فَطِنَ لِلْأَمْرِ ، وَسَيَطْرُدُهَا وَالِدِي هِيَ وَزَوْجُهَا مِنَ الْقَصْرِ . أَنْتُمْ أَهْلُهَا الْمُقَوِّمُونَ لِلْأَخْلَاقِ أَنْشَعُ مَا رَأَيْتُ فِي الدُّنْيَا . بِاسْمِ الْأَخْلَاقِ تَدُوسُونَ الْقِيَمَ وَتُشَيِّعُونَ الْفُرْقَةَ وَالْفَسَادَ ، وَلَا تَعْرِفُونَ لِلنَّسَائِنَةِ وَالشَّقَقَةِ وَالرُّحْمَةِ بَابًا . مَاذَا تُرِيدُ أَنْ تَفْعَلَ ؟ هَلْ تُرِيدُ أَنْ تُشْبِلَ النَّارَ فِي هَذَا الْقَصْرِ ، وَتُجِئَ إِلَى الرَّجُلِ الَّذِي أَوَاكَ ، وَبَجَلَّكَ وَقَدَّرَكَ ، وَجَعَلَكَ

إِنْسَانًا تُذَكِّرُ... مَا هَذِهِ الْوَفَاقَةُ وَالْجُرْأَةُ عَلَيَّ وَعَلَى أَمْسَالِي . ثُمَّ هَلْ أَنْتَ أَحْسَنُ مِنِّي
حَالًا ...؟

وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَحْسَنُ « الطَّاهِر » بِوَحْرِ الضَّمِيرِ ، وَبِأَلَمِهِ تَجَاوَزَ حَدُودَ اللَّيَاقَةِ ،
وَخَرَجَ مُسْرِعًا تَارِكًا « حَلِيمَةَ » بَاكِتَةً تَلْسُ بِثِيَابِهَا لِتَخْرُجَ بِسُرْعَةٍ .
وَلَمْ يَنْدَمْ « الطَّاهِر » عَلَى فَعْلَةٍ مِثْلَهَا نَدَمَ هَذِهِ السَّرَّةِ ، وَقَرَّرَ أَنْ يَغْتَنِرَ « لِعَاوِلَ »
وَيُطْمَئِنَّ خَاطِرَ « حَلِيمَةَ » وَهُوَ الَّذِي رَأَى مِنْ مَقَاتِلِهَا مَا سَحَرَهُ وَأَسَالَ لُعَابَهُ .
وَعِنْدَمَا اتَّفَقَ « لِعَاوِلَ » فِي الْمَكْتَبَةِ اعْتَذَرَ لَهُ وَحَدَّثَهُ بِمَا يَحْوِلُ بِخَاطِرِهِ فَقَالَ لَهُ
« عَاوِلَ » :

.. لِذَا هَذِهِ السَّأَلَةُ ؟ .. وَأَنَا الَّذِي كُنْتُ أَقْدُرُ فِيكَ الرَّجُولَةَ وَتَنَازَلْتُ لَكَ عَنْ
« زُبَيْدَةَ » فِي حَوْبِي إِيْلِكَ عَنْهَا . أَنْتُمْ الْوُصُولِيُّونَ الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ تَغْتَرُّونَ
بِقُدْرَتِكُمْ عَلَى افْتِحَامِ الْحَيَاةِ بِجُرْأَوْ ، وَرَفَاعَةِ لِقَاوِيمِ النَّاسِ وَتَأْدِيبِهِمْ ، وَإِشَاعَةِ
الْعَدْلِ نَفْعَةً عَلَى ذَوِي الْيَسَارِ الضَّارِبِينَ فِي الْحَضَارَةِ وَالْمَدِينَةِ أَهْطَرَ النَّاسِ عَلَى
الْبَشَرِيَّةِ وَعَلَى الْفُقَرَاءِ مِنْكُمْ .
- لَكَ كُلُّ الْحَقِّ ... وَلَكِنَّكُمْ أَنْتُمْ تَتْرُكُونَ الْحَيَاةَ تَسِيرُ فِي صَيِّمِ السُّيُوعَةِ ،
وَالنُّعُومَةِ ، وَالرُّخْوَةِ حَتَّى تَنْتَهَاوِي تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ الْمَدِينَةَ ، وَيَتَسَلَّطَ عَلَيْكُمْ مَنْ لَا
يَرْغَوِي وَلَا يَخَافُ اللَّهَ ... عَلَى كُلِّ فَالْمِهِمْ أَلَاكَ لَا تَغْتَرِضُ فَوْنَ زَوَاجِي مِنْ
« زُبَيْدَةَ » .

- وَلِذَا اعْتَرِضُ وَأَنَا أَكْرَهُ هَذِهِ الدُّنْيَا ، وَهَذَا الْمَجْتَمَعَ ، وَهَذَا الْقَصْرَ ؟ ... لَوْ
كَانَتْ فِي جُرْأَةٍ ... وَرَجُولَةٍ لَنَسَفْتُ هَذَا الْقَصْرَ ، وَقَوَّضْتُهُ بِمَا فِيهِ ... إِنِّي أَكْرَهُكُمْ
كُلَّكُمْ ... وَأَكْرَهُ « زُبَيْدَةَ » ... نَعَمْ أَكْرَهُهَا ... أَكْرَهُهَا هِيَ ... أَيْضًا ، لِأَنَّهَا تَسْتَعِفُّ
بِقِيَمِي فِي فَسَادِ هَذَا الْمَجْتَمَعَ ، هَذِهِ الدُّنْيَا ... أَنْتَ يَا « طَاهِر » تَدْعُمُ بِيَمِينِي ...
ظَنَنْتُكَ تَخْرُجُ عَنِ الْقَاعِدَةِ فِي الْأَوَّلِ عِنْدَمَا صَبَرْتَ أَمَامَ إِعْرَاضَاتِ « دُجَّةِ » إِمْرَأَةٍ

الْجَنَانِ السَّابِقِ ، وَلَمَّا انْعَدَزَتْ مَعَهَا إِلَى الدُّرَكَاتِ الَّتِي أَعْرِفُهَا ، زِدْتُ بَقِيَّةً بِفَسَادِ
هَذَا الْمَجْتَمَعِ وَيَأْسًا مِنْ صِلَاحِهِ الصَّحِيحِ لَا السِّيَاسِيَّ فَقَطْ بَلْ
الْأَخْلَاقِيَّ .

- « دُوجَة » ...

- نَعَمْ « دُوجَة » ... حَلِيمَتُكَ الْيَوْمَ كَانَتْ حَلِيمَتِي بِالْأَمْسِ الْفَرِيبِ .

- كَيْفَ تَقُولُ هَذَا ، وَاللَّذِكِ وَرِعٌ ، وَتَقِيٌّ ، وَأَمْلِكُ مِنْ أَفْضَلِ النَّاسِ وَزُبَيْدَةٌ

مِنْ أَحْسَنِ مَا رَأَيْتُ ؟

- أَنْظُرْ يَا « طَاهِر » أَنَا وَصَلْتُ إِلَى دَرَجَةٍ مِنْ مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ النَّاسِ مَا جَعَلَنِي لَا

أَهْتَزُّ ، وَلَا أَتَحَسَّرُ وَلَا أَحْتَارُ ... نَعَمْ وَاللَّيْلِ مِنْ أَتَقَى النَّاسِ وَأَرْوِعُهُمْ رَغَمَ آلِهِ فِي

خِدْمَةِ هَؤُلَاءِ الْبَائِيَاتِ ، الطَّالِبِينَ السُّتَاكِينِ ، الْعَائِلِينَ فَسَادًا فِي الرُّعِيَّةِ مَعَ نِظَامِ

الْجَاهِيَّةِ . وَلَكِنْ مَا فَائِدَةُ تَقَوَاهُ وَوَرَعُهُ ؟ وَهُوَ لَا يَنْبُسُ بِكَلِمَةٍ أَسَامَ مَا يَرَاهُ مِنْ

الظُّلَمِ ، وَالْجَوْرِ بَلْ هُوَ يَنْحَنِي أَمَامَ الْجَبَّارِينَ وَلَا يَفْعَلُ شَيْئًا يُبْنِيهِمْ إِلَى طُغْيَانِهِمْ

ثُمَّ مَا هُوَ نَائِيْرُهُ فِي الْقَصْرِ ؟ .. فِي بَيْتِهِ ؟ ... هُوَ يُرِيدُ أَنْ يَنْحَنِي كُلَّ أَهْلِ الْقَصْرِ

أَمَامَهُ ، وَأَنْ يُثْنُوا عَلَيْهِ وَيَقُولُوا لَهُ : إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى أَحْسَنِ مَا يُرَامُ ، وَإِنَّهُ لَمْ

يَفْعَلْ إِلَّا الْخَيْرَ . عِنْدَمَا أَوَى الْمُسْتَضْعِفِينَ فِي قَصْرِهِ ، وَبَسَطَ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ

رِعَايَتِهِ .. وَهُوَ يَطْلُبُ لَهُ أَنْ يَكْتُمُوا عَنْهُ النُّهْبَ الْمُتَوَاصِلَ الْيَوْمِي الَّذِي تَتَعَرَّضُ

لَهُ مَكَاسِيهُهُ مِنْ عَائِلَتِهِ وَالْعَمَلَةِ وَالْخِدَامِ ... قَصْرُهُ كَقَدْرِ الْحَزُونِ إِذْ يَأْكُلُ بَعْضُهُ

بَعْضًا : الْكَبِيرُ مِنَ الْخِدْمِ يَظْلِمُ الصَّغِيرَ ، وَيَتَعَدَّى عَلَيْهِ فِي مَالِهِ وَبَذِيهِ وَشَرَفِهِ ،

وَالْأَسْنَادُ يَعْيشُونَ فِي مَالِ الْفَرِيكِ بِالتَّبَذِيرِ وَالْعَبَثِ وَالْإِسْرَافِ ... وَهَذِهِ أَلْعَجَازُ

الرَّائِحَاتِ الْغَادِيَاتِ عَلَى الْقَصْرِ يَسْلُبْنَ الْأَمْوَالَ بِمَا يَبْغِيهِ مِنْ التَّمَنَاعِ

الْمَسْرُوقِ وَغَيْرِ الْمَسْرُوقِ ، وَيَنْهَشْنَ الْأَغْرَاضَ ، وَيَحْكُنُ الدَّسَائِسَ

وَالْمُؤَامَرَاتِ بِمَا يُوقِفْنَ مِنَ الْمَعْرُورَاتِ وَالْمَعْرُورِينَ فِي حَبَائِلِهِنَّ ...

وهؤلاء المُرَابِّينَ الْذِيَّتِ يُوسِّغُونَ عَلَى وَلَدِي ، وَيُفْرُونَ

بِالصَّغَفَاتِ الْمَرْبُوحَةِ فِي الظَّاهِرِ وَلَكِنَّهَا مُثْلِرَةٌ بِالْأَفْلَاسِ فِي الْآخِرِ ... وَوَالِدِي
يَكْخِيهِ أَنْ يَدْخُلَ الْمَنْزِلَ ، وَالنَّاسُ سُكُوتٌ ، وَالْأَكْسُنُ تَلْهَجُ بِذِكْرِهِ وَبِالْفُتَاءِ
عَلَيْهِ ... وَيَقْنَعُ بِأَنْ لَا يَنْبَسَّ أَحَدٌ بِكَلِمَةٍ عَمَّا يَقَعُ ، وَهُوَ يَعْرِفُ الْكَثِيرَ ، لِيُظَنَّ
وَبُيُوهَ تَفْسُهُ ، وَيَعْتَقِدُ فِي آخِرِ الْأَمْرِ أَنَّ أَهْلَهُ فِي نَعِيمٍ فِي حَالِهِمْ وَمُسْتَقْبَلِهِمْ . هَذَا
وَالِدِي يَا « طَاهِر » وَأُمِّي مِثْلُهُ ، أَيْضًا وَهِيَ تَارِكَةٌ شُؤْنَ الْقَصْرِ فِي أَيْدِي
الْخَدَمِ . وَ« زُبَيْدَةُ » بِطَبِيبَتِهَا ، وَلُطْفِهَا ، وَبِرَاعَتِهَا لَا تَقْطُنُ إِلَى مَا يَقَعُ ... وَلِهَذَا
فَإِنِّي أَكْرَهْتُ لِأَنِّي اعْتَقِدْتُ أَنَّهَا كَانَتْ تَقَعُ فِي حَيَاتِي مِثْلَ غَيْرِهَا . وَهِيَ لَا تَمَاتِلُهُمْ
إِلَّا لِأَنَّهَا مُتَوَعِّةٌ عَنِّي وَعَنْ غَيْرِي فِي جِصْنٍ مِنَ الْأَقَاتِ . وَلَوْ تَعَرَّضْتُ إِلَى مَا
يَتَعَرَّضُ إِلَيْهِ غَيْرُ الْمَحْظُوظِينَ أَوْ الْمَحْظُوظَاتِ لَأَحْدَرْتُ إِلَى مَا أَحْدَرْتُ إِلَيْهِ
الْأُخْرَيَاتُ ... هَذَا وَالدِّي وَهَذَا بَيْنَهُ ... سِيَاسَتُهُ سِيَاسَةُ النِّعَامَةِ ... وَسَلُوكُهُ سُلُوكُ
الْغَائِبِينَ ... إِذَا مَا أَنْ يَصِلَهُ نَبَأٌ يُخَالِفُهُ وَاحِدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ إِلَّا وَيُجِجُ وَيَغْضَبُ
وَيَصْبُ جَامٌ حَتَّى عَلَى مَنْ يَعْتَرِضُهُ . فَيَكُونُ طَلَبُ الْفُقَرَاءِ وَالْمَعْدُورَةِ ، وَالْهَرُوبُ
مِنْ أَمَامِهِ ... ثُمَّ يَهْدَأُ كُلُّ شَيْءٍ وَيَتَّأَدَّى كُلُّ فِي غَيْهِ ، وَلَسَانُ حَالٍ وَالدِّي يَقُولُ :
أَلْسُهُمْ أَلَّا تَطْفُوْا غُيُوبَكُمْ عَلَى السُّطْحِ ، وَلَا تُكْذِرْ ظَاهِرَ الْأَشْيَاءِ . فَلْيُخَالِفْ
ظَاهِرُكُمْ بِاطْنَكُمْ وَلْيُغَايِرْ غَيْبُ الْأَشْيَاءِ سَطْحِيهَا .. أَلْسُهُمْ أَنْ لَا يَصِلَنِي أَمْرٌ مِنْ
أُمُورِكُمْ وَإِذَا قُدِّرَ لَهُ أَنْ يَصِلَنِي فَيَا الْقَدْرَ الْتَسِيرَ لِقَاءَ يَصْدِمَنِي ... إِنَّهُ الْهَرُوبُ مِنْ
السُّؤُولَةِ ... وَإِذَا صَادَفَ أَنْ حَلَّتْ مُصِيبَةٌ أَوْ حَدَثَ حَدَثٌ وَتَعَقَّدَ نَظْرًا لِلْعَزَمِ
الزَّوَاجِرِ إِبْرَارُهُ كَانَتْ النُّظْرَةُ الْإِنْهَزَامِيَّةُ ... وَالْمَوْقِفُ الْهَائِجُ ... وَالْإِسْتِسْلَامُ
لِلْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ . هَذَا يَا « طَاهِر » مَا عَرَفْتُهُ مِنْ أَبِي وَحَاوَلْتُ أَنْ أُسِيرَ بِالْقَصْرِ
سِرًّا آخَرَ فِي أَوَّلِ أَمْرِي وَلَكِنَّهُ لَا يُرِيدُ أَنْ يُشَارِكَهُ فِي سُلْطَنِهِ أَحَدٌ بَلْ يَجِبُ أَنْ
لَكُونَ كُلُّنَا عَبِيدًا ... هَذَا هُوَ حُكْمُ الطُّغَاةِ وَلَا دَوَاءَ إِلَّا فِي أَفْيَاكَ السُّلْطَانَةِ مِنْهُ ،
وَلَكِنْ كَيْفَ يُمَكِّنُ ذَلِكَ وَهُوَ أَبِي ، وَقَدْ تَعَبَ كَثِيرًا فِي جَمْعِ هَذَا السَّالِ وَالْوُصُولِ

إِلَى هَذِهِ الْمَكَاتِئَةِ ... وَلِهَذَا اسْتَسَلَّمْتُ وَعِشْتُ هَذِهِ الْبَيْتَةَ الْخَنُوعَ ... وَكُلُّ شَيْءٍ
فِي السُّجُتِ يُجْتَمَعُ عَلَى هَذِهِ الْبَيْتَةِ الْخَنُوعِ الْبَاسِئَةِ ، الذَّلِيلَةِ ؛ تَمَنَيْتُ
لَوْ كُنْتُ طَلِيقًا مِنْ كُلِّ الْفُيُودِ الَّتِي تُرْبِطُنِي بِهَذِهِ الطَّبَقَةِ مِنَ التَّرْسِيسِيِّينَ لِأَتَوَرَّ عَلَى
كُلِّ الْأَوْضَاعِ وَلَكِنْ ... لَيْتَ لِي الشُّجَاعَةُ أَنْ أَحْسِرَ كُلَّ شَيْءٍ وَأَقْرُطَ فِي حَيَاةِ
النَّعِيمِ وَحَيَاةِ الطُّفُولِيِّ ... أَنَا جَبَانٌ ... جَبَانٌ ... يَا « طَاهِر » .

لَمْ يَكُنْ يَنْتَظِرُ « الطَّاهِرُ » هَذَا الْكَلَامَ مِنْ « عَادِلٍ » وَلَمْ يَعْرِفْ هَلْ سَيَقْدِرُ
مَرَقَهُ الْوَاعِي وَالْمَحَلَّلُ التَّحْلِيلَ الصَّحِيحَ لِحَيَاةِ أَهْلِ هَذَا الْقَصْرِ أَمْ أَنَّهُ سَيَزِيدُ
تَقَمُّعًا عَلَى تَقَمُّعِ نَحْوِ هَذَا الرَّجُلِ . وَلَكِنْ شَيْئًا وَاحِدًا أَقْصَى مُضْجَعَهُ ، هُوَ كَيْفَ إِغْتَرَّ
« بِدُوحَةٍ » وَخَلَّ بِدُونِ أَنْ يَضَعُ فِي هَذِهِ الْمَوَازِمَةِ الْمُتَوَاصِلَةِ ، فِي خُمُوطِ بَيْتِ
الْعَنْكَبُوتِ هَذَا ... ؟ ثُمَّ تَظْهَرُ لَهُ الْحَقِيقَةُ عَارِيَّةً كَعَرَاءٍ « حَلِيمَةٍ » ... وَلَكِنَّهُ عَرَاءٌ
جَبِيلٌ ... وَالنَّعِيمُ بِهَذَا الْعَرَاءِ الَّذِي يُغَيِّقُ نَحْوَةَ الْحَوَاسِّ ، وَيَضْرِبُ سَوَاكِنَ اللَّذَّةِ
بِسِيَّاطٍ لَا أَمْتَعَ مِنْهَا إِلَى حَدِّ الْاَلَمِ .

وَأَحْسَ « الطَّاهِرُ » بِأَنَّهُ غَرِقَ مِثْلَ « عَادِلٍ » فِي هَذَا الْخِصْمِ وَأَنْ أَصَابِعَ
الْأُخْطُوبِ إِمْتَدَّتْ إِلَيْهِ وَأَنْ خُمُوطَ الْعَنْكَبُوتِ بَدَأَتْ تُلَفُّ حَوْلَهُ فَقَالَ :
- أَنَا أَغْدِرُكَ يَا « عَادِلُ » وَأَقْدِرُ فَيْكَ وَعَيْكَ ... وَرَحِمَ مَاسَاتِلَكَ ، فَإِنِّي أُرِيدُ مِنْكَ
أَنْ تُعِينَنِي عَلَى الزَّوْاجِ مِنْ « زُبَيْدَةَ » ... هَذَا وَالَّذِي سَيَأْتِي بَعْدَ غَدٍ وَيَطْلُبُ مِنْ
سَيِّدِي مُصْطَفَى يَدِ « زُبَيْدَةَ » لِي ... أَعْنِي وَسَاعِدْنِي عَلَى هَذَا الْأَمْرِ .
وَأَرَادَ أَنْ يَقُولَ « عَادِلُ » :

- هَذِهِ هِيَ الْوُصُولِيَّةُ بِعَيْنَيْهَا ... لَا يَمُكُّكَ مِنْ أَمْرِ هَذَا الْبَيْتِ إِلَّا أَنْ تُصِلَ إِلَى
مَآرِبِكَ وَلَكِنَّهُ قَالَ :

- نَعَمْ سَأُلِغُ عَلَى وَالِدِي ، وَأَشْكُرُكَ عِنْدَهُ وَسَأُحَادِثُ أُمِّي فِي الْمَوْضُوعِ ...
أَعَانِكَ اللَّهُ عَلَى تَحْطِي هَذِهِ الْعَقَبَةِ وَالسَّيْرِ فِي هَذِهِ السَّبِيلِ .

وَوَجَّحَ مُسْرِعًا .

* * *

وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ سَمِعَ أَهْلُ الْقَصْرِ ضَجَّةً فِي الْبَهْرِ ، فَعَرَفُوا أَنَّ « أَبِي مُحَمَّدٍ »
قَدْ حَلَّ رُكْبَهُ ، وَسَبَقَهُ قَبْلَ ذَلِكَ صَوْتُ الْأَكْبَاشِ ، وَجَرَّ أَوْعِيَّةِ الزُّيْتِ ، وَصِيَاحُ
الدَّجَاجِ ... وَصَوْتُ « أَبِي مُحَمَّدٍ » الْمَجْلُجْلِ .

- أ ... « طَاهِرٌ » ... أَنْتَ ابْنُ أَبِيكَ ... عَرَفْتُ أَنَّكَ سَتَكُونُ رَجُلًا بِأَتَمِّ مَعْنَى
الْكَلِمَةِ ... وَأَنَّكَ سَتَهْنِئُنِي وَلَا تُخَيِّبُ ظَنِّي .. أَصَحِّحُ ذَلِكَ يَا « سَيِّدِي
مُصْطَفَى » .

- نَعَمْ - رَجُلٌ وَسَيِّدُ الرُّجَالِ - وَأَبُوهَا وَكِبَالُهَا . لَقَدْ عَمَرَ الْقَصْرَ بِحَدْوِ
وَاجْتِهَادِهِ .

وَدَخَلَ الْجَمَاعَةُ إِلَى قَاعَةِ الْإِسْتِقْبَالِ . وَبَدَأَ الدُّخُولُ فِي التَّفَاصِيلِ وَلَمْ يَأْتِ
النِّسَاءَ حَتَّى اتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَى تَارِيخِ الزَّوَاجِ ، وَأَنَّ لَا يَحْضُرُ مِنْ أَهْلِ الْعَرِيسِ
إِلَّا تَفَرُّقِيْلٌ : أُمُّ « الطَّاهِرِ » وَإِخْوَتُهُ وَأَهْلُهُ وَأَصْحَابُهُ الْمُوجِدُونَ فِي ثَوْبِ ثَوْنٍ . وَتَكْفُلُ
« سَيِّدِي مُصْطَفَى » بِكُلِّ الْمَصَارِيفِ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ . وَلَيْسَ « لِلطَّاهِرِ » إِلَّا أَنْ
يَغْسِلَ سَاقِيهِ ، وَيَدْخُلَ عَلَى الْعُرُوسِ .

وَلَمَّا افْتَرَقَ الْجَمْعُ ، وَبَدَأَ أَهْلُ الْقَصْرِ يَأْتُونَهُ ، وَيَهْتَفُونَ عَلَى هَذَا الْجَدَتِ
السَّعِيدِ ، وَيَتَمَنَّوْنَ لَهُ قَامَ الْهَنَاءِ ، أَحْسَنُ بِثِقَلِ كَبِيرٍ يَنْزِلُ عَلَى أَكْتَافِهِ وَيَدْوَامُهُ
تَدْوِيرُ بِرَأْسِهِ ، مِنْ جَرَاءِ مَا اتَّقَلَ بِهِ حَالَهُ مِنَ الْفَقْرِ وَالْبَسَاطَةِ وَالسَّذَاجَةِ إِلَى الرِّفَاقِ
وَالشُّيْطَانَةِ ، وَالنَّفَاقِ ...

وَأَصْبَحَ لَا يَعْرِفُ نَفْسَهُ ، وَلَا يَدْرِي كَيْفَ انْقَلَبَ إِلَى هَذَا الْوُضُوعِ النَّافِهِ الَّذِي
لَا يَجْبِرِي إِلَّا لِأَرْضَاءِ شَهَوَاتِهِ وَتَحْقِيقِ غَايَاتِهِ . لَقَدْ أَضَاعَ الشَّرْفَ ، وَالْأَمْنَةَ ،
وَالْعِفَّةَ ، وَأَصْبَحَ يَسْأَلُ إِلَى مَا يَنْسَاقُ إِلَيْهِ السَّفَلَةُ مِنَ النَّاسِ .

أَيُّ ذَلِكَ الْعَهْدِ الَّذِي كَانَ يَعْلَمُ فِيهِ بِتَغْيِيرِ أَوْضَاعِ النَّاسِ ، وَبِالسَّيْرِ فِي الْحَيَاةِ

سَيَرًا مُسْتَقِيمًا مَهْمَا تَقَلَّبْتَ بِهِ الْأُمُورُ؟ أَيْنَ ذَلِكَ الطُّورُ مِنْ أَلْبَابِ؟ أَيْنَ؟ الْأَمَلُ ضَاعَ، كُلُّ الْأَمَلِ فِي الثَّوَرَةِ، وَلَوْ فَرَدَيَا عَلَى الظُّلَمِ، وَالْخِصَاصَةِ بِالْوَسَائِلِ الشَّرِيفَةِ... لَيْسَ الْأُمُورُ كَمَا هِيَ إِذَنْ... وَلَيْسَتْ تَنْتَظِرُ زَفَافَهُ «رُيْبِيذَةَ» وَفِي الْأَثْنَاءِ لِيُودِعَ حَيَاةَ الْعُرُوبَةِ، وَبَعْدَ زَوَاجِهِ سَيَعْرِفُ كَيْفَ يَسِيرُ...

وَاسْتَعْدَّ الْقَصْرُ كُلَّهُ لِهَذَا الْحَدَثِ لِأَنَّ «رُيْبِيذَةَ» يَحْتَرِبُهَا الْجَمِيعُ أَهْلَهُ «سَيِّدِي مُصْطَفَى» وَالتَّحَلُّلَ الْحَدْمُ إِلَى تَحْوِيلِ الْجَنَاحِ الَّذِي يَسْكُنُهُ «الطَّاهِرُ» إِلَى بَحْلِ سَكْنَى لَاتِقٍ، وَهُوَ قَابِلٌ لِذَلِكَ وَاحْتَجَبَتْ «رُيْبِيذَةَ» عَنِ الْأَنْظَارِ وَاحْتَجَبَ أَيْضًا «عَادِلُ»: «رُيْبِيذَةُ» لِإِعْدَادِهَا الْأَعْدَادَ الْكَامِلَ لِحِفْلِ الزَّوْاجِ وَ«عَادِلُ» لِيَفْرُقَ فِي هُمُومِهِ بِاللَّيَالِي الْأَحْمَرَاءِ، وَالْقِيَارِ.

وَشَعَرَ «الطَّاهِرُ» فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ أَنَّ مَرْكَبَهُ تَقْذِفُهُ الْأَمْوَاجُ فِي وَجْهَةٍ وَاحِدَةٍ، لَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ، الرِّيَّاحُ تَتَفَنَّقُ فِي انْتِهَاءٍ وَاحِدٍ، وَالْأَقْدَارُ تَسُوقُهُ إِلَى حَيْثُ يَرِيدُ أَوْ لَا يَرِيدُ. الْأَقْدَارُ جَعَلَتْ «عَادِلُ» يَدْخُلُ السَّجْنَ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ.

لَقَدْ ذَاهَمَ الْبُولِيسُ السَّحْلَ السَّعْدَ لِلْقِيَارِ، وَسَبَقَ الْجَمِيعُ إِلَى الشَّرْطَةِ وَلَكِنْ «عَادِلُ» عَوَضَ أَنْ يُحَاكَمَ مِثْلَ غَيْرِهِ، وَتُطَبَّقَ عَلَيْهِ قَوَائِنُ أَلْبَلَاوِ مِثْلَ سَائِرِ الرُّعِيَّةِ يُوَضَعُ فِي عُرْفَةٍ فِي قَصْرِ بَارْدُو وَلَا يُخْرَجُ مِنْهُ أُسْبُوعًا أَوْ أُسْبُوعَيْنِ حَسَبًا يَفْرُرُ ذَلِكَ النَّبَاهِي أَخْذًا بِخَطَرِهِ «الْفَرِيكَ مُصْطَفَى» وَإِكْرَامًا لَهُ بِاعْتِبَارِ ابْنِهِ بَابَا مِنْ النَّبَاتِ.

وَلَمْ يَسْمَعْ بِهَذِهِ الْحَادِثَةِ إِلَّا «سَيِّدِي مُصْطَفَى» وَ«الطَّاهِرُ» الَّذِي كَانَ يَذْهَبُ يَوْمِيًّا إِلَى الْغُرْفَةِ الْمَسْنُوجِينَ فِيهَا «عَادِلُ» وَيَحْوِلُ إِلَيْهِ مَا لَدَّ وَطَابِ.

وَأَثْنَاءَ ذَلِكَ كَانَ «الطَّاهِرُ» يُوَاسِي «حَلِيمَةَ» وَيَسْحُهَا دُمُوعَهَا كُلَّمَا مَكَّنَتْهُ الظُّرُوفُ، وَسَمَحَتْ لَهُ الْأَشْغَالُ الْمَوْجُودَةُ بِغُرْفَتِهِ. وَطَلَّقَ بِذَلِكَ مِنْ دُونِ رَخَصَةٍ «دُوجَةَ» الَّتِي لَمْ تَتَزَوَّجْ مِنْ هَذَا الْفَرَاقِ... لِأَنَّهُ فَرَّقَ-أَلْهَادَةً وَفَرَّقَ اللَّذَّةَ الرُّخِيسَةَ.



زبّدة

وَعَرَفَ فِي « حَلِيمَة » رِقَّةً تَشُوْبُهَا صَلَابةٌ تُشْبِهُ صَلَابةَ ثَمَرَةِ أَوْشَكْتٍ عَلَى التُّضَجِ الثَّامِّ فَهُوَ يُسَاهِمُ فِي إِنْصَاجِهَا بَيِّنًا « دُوجَة » ثَمَرَةٌ كُملٌ تُضَجُّهَا بَعْضُهَا يَأْكُلُ بَعْضًا وَيَأْكُلُ أَكْلَهَا .

* * *

وَمِمَّا كُلُّ شَيْءٍ عَلَى مَا يُرَامُ . وَخَرَجَ « عَادِلٌ » مِنَ السَّجْنِ الذَّهَبِيِّ ، وَزُقَّتْ « زُبَيْدَة » إِلَى « الطَّاهِرِ » وَخَضَرَ خَلْقُ كَبِيرٍ ، وَلَهَجَتْ بُيُوتَاتُ ثُونَسَ بِهَذَا الزُّفَافِ ، وَحَسِبَ النَّاسُ أَنَّ « سَيِّدِي مُصْطَفَى » قَدْ احْتَفَلَ بِزُفَافِ إِنْشَاءٍ فِي الْوَأَجِ لِأَنَّ « عَادِلَ » مَيُؤَسَّسٌ مِنْهُ لَا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ . وَلِهَذَا وَفَّقَ « الْفَرِيكَ مُصْطَفَى » وَهُوَ الشَّيْخُ الْأَمِينُ فِي الْعُثُورِ عَلَى رَجُلٍ مِثْلِ « الطَّاهِرِ » مَعْرُوفٍ بِحَزْمِهِ ، وَذَكَائِهِ ، وَلُطْفِهِ ، وَتَرْبِيَّتِهِ . وَكَانَ كُلُّ النَّاسِ يُعْجَبُونَ بِهَذَا الْقَرَوِيِّ الَّذِي عَرَفَ فِي مَدُونِ قَصِيرَةٍ كَيْفَ يَنْسَجِمُ مَعَ هَذَا الْوَسْطِ ، وَيَدْخُلُ حَبَايَاهُ ، وَيَحْدَقُ مِنْ فُتُونِ الْكَلَامِ وَالْأَدَبِ مَا عَجَزَ عَنْهُ الْكَثِيرُونَ مِنْ أَتْنَاءِ الْبَيُوتَاتِ .

وَأَصْبَحَ « الطَّاهِرُ » يَنْعَمُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَخَاصَّةً بِزُبَيْدَةِ الزَّوْجَةِ الصَّالِحَةِ الَّتِي عَرَفَتْ كَيْفَ تَصْنَعُ ذَوْقَ زَوْجِهَا وَتَذُلُّهُ عَلَى السُّلُوكِ الطَّيِّبِ وَتَحْرُسُهُ عَلَى التَّقْوَى وَتَذْفَعُهُ إِلَى إِقْتِفَاءِ أَثَرِ وَالِدَيْهَا « سَيِّدِي مُصْطَفَى » وَهُوَ الْمَثَلُ الَّذِي يَحْسِبُ أَنَّ يُحْتَذَى ، وَالصُّورَةُ النَّاجِحَةُ الَّتِي عَلَيْهِ أَنْ يَتَشَبَّهَ بِهَا فَيَخْرُجَ مِنْ مَنْزِلَةِ الْأَجِيرِ إِلَى مَنْزِلَةِ السَّيِّدِ خَاصَّةً وَأَنَّ « عَادِلَ » مَالُهُ إِلَى الضِّيَاعِ وَسَتَبْقَى ضِيَاعُ « الْفَرِيكَ مُصْطَفَى » مِنْ دُونِ وَارِثٍ .

بَابُ سَطْحٍ

أَصْبَحَ « الطَّاهِر » يَعِيشُ فِي قَصْرِ « الْفَرِيكَ مُصْطَفَى » حَيَاةَ السَّيِّدِ الْأَمِيرِ
 النَّاهِي . وَلَكِنَّهُ يَتَضَايِقُ مِنْ أَشْيَاءَ عَدِيدَةٍ : مِنْ « عَادِل » الَّذِي يَحْتَشَاهُ بِسَبَبِ هَذِهِ
 الزَّيْمَةِ : يَخْشَى حَسَدَهُ وَطَمَعَهُ فِي زَوْجَتِهِ ، وَصَمَهَا إِلَى طُغْيَانِهِ الْجُنُونِيَّةِ ، وَيَخْشَى
 هَذَا الطُّمُوحَ الْجَدِيدَ الَّذِي تَدْفَعُهُ إِلَيْهِ « زُبَيْدَةُ » وَتَرْمِي مِنْ وَرَائِهِ إِلَى الْإِسْتِحْوَاذِ
 عَلَى الضَّيَاعِ وَالْأَمْلَاقِ ، خَاصَّةً وَأَنْ هَذِهِ الْعَائِلَةُ هِيَ إِلَى الضَّيَاعِ .
 وَأَكْبَرُ مَا يَتَضَايِقُ مِنْهُ « الطَّاهِر » مَوَاقِفُ « الْفَرِيكَ مُصْطَفَى » الَّتِي لَا تَتَلَاَمُ
 مَعَ الْوُضْعِ ، وَلَا تَحُلُّ الْمَسَآكِلَ بَلْ هِيَ مَوَاقِفُ الْمُسْتَسْلِمِ ، الْمُتَعَالِيِ ، الْمُتَوَاضِعِ
 عَلَى مَكَانَتِهِ فِي الْجُمُوعِ . كُلُّ هَذَا جَعَلَهُ يَحْسُ بِأَنَّهُ أَسِيرٌ ، غَيْرُ طَلِيقٍ ، لَا
 يَتَحَكَّمُ فِي أَقْوَالِهِ ، وَأَعْمَالِهِ ، وَلَا يَعِيشُ الْحَيَاةَ الَّتِي يَرْضَاهَا .
 قَالَ « عَادِل » فِي الْمَكْتَبَةِ الَّتِي سَمَرُ « الطَّاهِر » بَابَهَا الْمُقْضِي إِلَى جَنَاحِ
 سَكْنَاهُ :

- غَرِيبُ أَمْرِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ وَخَاصَّةً الْقَدِيمِ مِنْهُ إِذْ لَا مَكَانَ فِيهِ مَرْمُوقًا
 لِلصَّدَاقَةِ . لَعَلَّ الرُّوحَ الْقَلِيلَةَ كَانَتْ تَفْرُضُ عَلَى الْعَرَبِ أَنْ لَا يَغْتَبِرُوا إِلَّا النَّسَبَ أَوْ
 أَلْوَاءَ أَوْ الْخِلْفَ . وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ صَدَاقَةٍ وَوِدْدٍ ، وَغَيْرِهِ فَهُوَ ثَانَوِيٌّ لَا اِغْتِبَارَ لَهُ .
 وَلَرُبَّمَا كَتَبَ ابْنُ الْمَقْفَرِ وَالتَّوْجِيدِيُّ فِي الصَّدَاقَةِ وَالصَّدِيقِ لِأَنَّهُمَا لَمْ يَكُونَا مِنْ
 نَسَبِ عَرَبِيٍّ وَلَمْ يَجِدَا فِي تِلْكَ الْبَيْتَةِ الَّتِي سَطَرَ عَلَيْهَا فِكْرِيًّا الْعَرَبُ إِلَّا الْاِثْنَاءَاتِ
 الْاَلِيْنِيَّةَ وَالْجُهَوِيَّةَ ، وَالْقَلِيلَةَ وَالْعَرِيقَةَ ، فَأَرَادَا أَنْ يُدْخِلَا هَذَا الْمَقْهُومَ الْحَضَارِيَّ

الْجَبِيدَ فِي الْقَوْلِ آنَكَ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ يُفْلَحَا ، فَقِيلَ الْاَوَّلَ شَرٌّ قِتْلَةً لِأَنَّهُ لَا عَصِيَّةَ لَهُ وَمَاتَ الثَّانِي فَقِيْرًا ، مُدْفَعًا . الصَّدَاقَةُ يَا « طَاهِر » هِيَ إِفْرَازَةُ الْمَدِيْنَةِ وَتَنَاجُهَا ، وَالْعَصِيَّةُ هِيَ ثَمَرَةُ الْبَدَاوَةِ وَمِنْهَا الْأُخُوَّةُ وَلِهَذَا قَالَ أَبُو نُوَاس :

كَذَآكَ إِلَيَّ إِذَا رُزِئْتُ أَحَا فَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ سَبَبٌ

وَهُوَ بَيْتٌ غَرِيبٌ ، وَفَهْمُهُ يَسْتَعْصِي عَلَى الْكَثِيرِ ، وَلَكِنَّنِي أَفْهَمُهُ بِمُؤَقَّفِكَ أَلَتْ يَا « طَاهِر » . قَالَتْ لَا تَعْرِفُ لِلصَّدَاقَةِ مَعْنَى ، وَلَا تَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا ، وَإِنَّمَا حَرِيسُكَ يَنْصَرِفُ إِلَى أَهْلِكَ وَعَشِيرَتِكَ وَسُكَّانِ بَلَدِكَ فَقَطْ . الْبَدَاوَةُ مَا زَالَتْ مُعْشَشَةً فِي ذَهْنِكَ ، وَهِيَ الَّتِي سَتَقْصِي عَلَيْكَ لِأَنَّكَ مِنْ أَوْلِيَاكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِالْقَوْلَةِ الْمَأْمُورَةِ « أَنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا » فِي مَعْنَاهَا الظَّاهِرُ لَا فِي التَّأْوِيلِ الَّذِي أَوْلُوهُ . وَأَنَا قَدْ عَاشَرْتُكَ مِنْذُ سِتِّينَ وَافْضَيْتُ لَكَ بِسَرِّي وَتَعْرِفُ عَنِّي الْكَثِيرَ ، وَلَكِنَّكَ لَا تَطْمَئِنُّ إِلَيَّ لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِأَنِّي لَسْتُ مِنْ عَشِيرَتِكَ .

- كَفَى هَرَاءً يَا « عَادِل » وَاعْدِلْ عَنِ التَّفَلُّسِ ، وَانْظُرْ إِلَى الْحَيَاةِ بِعَيْنِ الْوَاقِعِ وَاقْلَعْ عَنِ هَذِهِ السَّيْرَةِ الْمَفْلُوسَةِ .

- سِيرَتِي سُبَّةٌ فِي جَبِينِ هَذَا الْمُجْتَمَعِ السَّنَاقِفِ الْخَنُوعِ الدَّلِيلِ ... ، يُجْتَمِعُ الْعَبِيدُ لَا الْأَحْرَارَ ، يُجْتَمِعُ الْعَبُودِيَّةُ الْمُرْكَبَةُ : عُبُودِيَّةُ نِظَامِ الْحَيَاةِ ، وَنِظَامِ الْبَايِ ، وَنِظَامِ الْعَصَبِيَّةِ وَنِظَامِ الْأَهْوَةِ . لَا يَسْتَقِيمُ لَكُمْ حَالٌ ، وَتَسْتَبْقُونَ عَيْدًا تَنْهَشُكُمْ الْإِنْيَانِيَّةُ وَحُبُّ الدَّاتِ وَالْحَسَدُ وَالْإِنْتِهَازِيَّةُ . اقْلَعُوا عَنْ هَذَا وَسَاقْلَعِ أَنَا عَنْ سِيرَتِي ... وَلَوْ لَمْ أَكُنْ جَبَانًا ، إِفْرَازَةُ الْمُبُوعَةِ وَالْإِنْخِدَالِ لَتَمَرَّدْتُ عَلَيْكُمْ وَلَهْدُمْتُ مُجْتَمَعَكُمْ عَلَى رُؤُوسِكُمْ . إِنَّ أَجْدَادَنَا كَانُوا أَكْثَرَ مَرَّةً مِنَّا لَقَدْ قَالَ أَبُو نُوَاس :

سَابِغِي الْغَنَى إِذَا تَوَدَّيَ خَلِيفَةً

يَقُومُ سَوَاءً ، أَوْ يُخِيفُ سَبِيلَ

بِكُلِّ فَتَى لَا يُسْتَطَارُ جَنَانُهُ

إِذَا نَوَّةُ الرُّخْفَانِ بِاسْمِ قَتِيلِ

لِتُخَوِّسَ مَالَ اللَّهِ مِنْ كُلِّ فَاجِرٍ

أَخِي بَطْنَةُ لِلطَّبِيبَاتِ أَكْوَلِ

لَقَدْ نَحَرَ عَقْلَكَ هَذَا الْأَدَبُ الْفَاسِقُ وَإِنَّهُ لَا يُصْلِحُ الْعَقْلَ مَا أَفْسَدَهُ الذُّهْرُ .

وَحَرَجَ « الطَّاهِر » وَتَرَكَ « عَاوِل » فِي تَهْوِيَاتِهِ ، لِيَتَفَقَّدَ « زُبَيْدَةَ » فِي غُرْفَتِهَا وَهِيَ الَّتِي بَدَأَتْ عَوَارِضُ الْحَمَلِ تَظْهَرُ عَلَيْهَا ، وَتَجْعَلُ وَجْهَهَا الْمُنْتَالِقَ يَمِيلُ نَحْوَ الْكُسُوفِ . وَلَكِنَّهَا رَغِمَ ثَعْبُهَا الطَّاهِرِ ، حَافِظَتْ عَلَى جَمَالِهَا ، وَحَيَوِيَّتِهَا ، وَنَظْفَتِهَا . وَهِيَ دَائِبًا تَلْقَى مِنْ « الطَّاهِر » الْأَخْتِرَامَ وَالتَّجَبُّيلَ وَحَتَّى الدَّلَالَ . وَسَارَتْ الْأَيَّامُ سَرِيعَةً ، وَكَانَهَا حُلُمٌ ، حَتَّى جَاءَ الْيَوْمُ الَّذِي وَضَعْتَ فِيهِ « زُبَيْدَةَ » مَوْلُودَهَا . وَكَانَتْ يَنْثًا سَمَّاها أَبُوهَا « عَائِشَةَ » .

* * *

بَكَى « الطَّاهِر » عِنْدَ وَلَادَةِ ابْنَتِهِ ، وَرَقَّ قَلْبُهُ لَهَا ، وَقَدْ جَاءَتْ إِلَى الدُّنْيَا ضَعِيفَةً شَبِيهَ مَيْتَةِ اللَّهِمْ إِلَّا تِلْكَ الصَّبْرَةَ الْأُولَى . فَكَانَتْ وَلَادَةُ ابْنَتِهِ فَرَحَتَهُ الْكَثْبَرَى لَا مَحَالَةَ . وَلَكِنَّهُ كَانَ يَحْسُ بِالْحُزْنِ يَأْخُذُ أَغْمَاقَهُ إِلَى أَرْقٍ حَيْطٍ يَرْبِطُهُ بِالْحَيَاةِ . كَانَ يَنْظُرُ إِلَى هَذَا الْمَخْلُوقِ الصَّغِيرِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مِنَ الْحَيَاةِ إِلَّا صَرْخَةٌ مَدْوِيَّةٌ فِي أَغْمَاقِ قَلْبِ أَبِيهِ . وَكَانَهُ يَنْظُرُ إِلَى قِطْعَةٍ مِنَ أَلَمِهِ الذَّقِينِ ، مِنْ هَذَا الْحُزْنِ الَّذِي ثَنَّا قَلْبَهُ مِنْ أَبِيهِ وَجَدَّ يَوْمَ وَلَدَ . الْحُزْنُ الضَّارِبُ فِي قَلْبِهِ مِنْ جَرَاءِ هَذَا الْعِيبِ الثَّقِيلِ . الَّذِي أَحْسَّ بِهِ أَبُوهُ وَجَدَّهُ فِي مُوَاجَهَتِهَا الْحَيَاةَ .

سَمَّاها « عَائِشَةَ » لِيَتَعِيشَ طَوِيلًا وَلَكِنَّهُ كَانَ يَحْسُ بِالرَّافَةِ نَحْوَ هَذَا الْمَوْلُودِ الَّذِي لَنْ يَرَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ هَذَا الْحُزْنِ ، وَلَنْ يَسْتَعْنَهُ أَحَدٌ مِنَ الشُّعُورِ بِأَلَمِ الْوُجُودِ . هَذَا الْحُزْنُ وَهَذَا الْأَلَمُ اللَّذَانِ لَمْ يَأْتِيَا مِنْ مَصَاتِبِ أَلَمَتِ بِهِ فَقَطْ وَلَكِنَّهُمَا نَوَلَا إِلَيْهِ تَفَلًّا ، كَقِسْمَةٍ لَهُ لِشَجَرَتِهِ بِأَنَّهُ مُتَضَامِنٌ مَعَ إِخْوَانِهِ الْبَشَرِ قَبْلَ أَنْ يَنَالَهُ شَرُّ إِخْوَانِهِ

النَّبَسِ ، هُوَ يَحْسُ بِهَذَا الْكَلِمِ وَالْحَزَنُ وَجُودِيًّا لِأَنَّهُ قَسَمَةُ هَؤُلَاءِ النَّاسِ الَّذِينَ يَعْيشُونَ عَلَى هَلِوِ الْأَرْضِ .

بَكَى عِنْدَ وَلَا تَقْوِ إِبْتِغَاءَ خَوْفًا عَلَيْهَا مِنْ هَلِوِ الْأَقْلَةِ الَّتِي ثَنَّا قَلْبَهَا مِنْ أَجْدَادِو ، وَأَحْسُ يَعْطِفُ كَبِيرٍ عَلَيْهَا عِنْدَمَا رَأَاهَا شَبِيحَ مَيْتَةٍ وَكَأَنَّهَا مَارَزَلَتْ فِي أَخْشَاءِ أُمِّهَا . وَكَبُرَتْ « عَائِشَةُ » وَأَصْبَحَتْ شُغْلَ أَهْلِ الْقَصْرِ كُلِّهِمْ . وَكَانَتْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى « عَاوِلِ » الْفَرَحَةِ الْكُبْرَى ، وَالْمُسْلَى الْوَحِيدَ لَهُ ، يُلَاعِبُهَا ، وَيُدَاعِيهَا ، وَيَغْتَرِبُهَا أَلَسْخُلُوقِ الَّذِي لَمْ تُدَسِّسْهُ هَلِوِ الْحَيَاةِ ، وَلَمْ تَتَلَهَّ عَقْدَ هَؤُلَاءِ الْمَسَاكِينِ الَّذِينَ يُعْمَرُونَ هَذَا الْمَجْتَمَعَ .

وَرَأَى « الطَّاهِرُ » وَعَائِلَتُهُ يَتَعَمَّوْنَ فِي هَذَا الرَّخَاءِ مِنَ الْعَيْشِ . وَلَا يَحْسُونَ بِحَبَاءِ مَا يَلْفَاهُ أَهْلُ « الطَّاهِرِ » وَإِخْوَانُ قَرِيْبِهِ مِنَ الْفَقْرِ ، وَالْخِصَاصَةِ وَأَقَاتِ الرِّمَانِ أَلَسْتَقْلَبِ . وَكَانَ « الطَّاهِرُ » يَحْسُ دَائِيًّا بِوَحْزِ الضَّوِيرِ كُلَّمَا مَرَّ أَمَامَ مَقْعَى « الْحَالِ عَلِيٍّ » وَيَشْعُرُ بِالْأَسَى يَحْزُ فِي نَفْسِهِ عِنْدَمَا يَلَاقِي فِي الطَّرِيقِ أَحَدَهُمْ وَيَسْأَلُهُ عَنْ فَلَانٍ وَفُلَانٍ فَيَسْمَعُ بِمَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ الْفَرَحُ . وَكَمْ مِنْ مَرَّةٍ يَلْتَقِي بِأَحَدِ السُّفَهَاءِ مِنْ جِلَازِهِ فَيَكِيلُ إِلَيْهِ الشَّتَائِمَ وَيُسْمِعُهُ مَا يَكْرَهُ وَيَهْزَأُ بِلِبَاسِهِ قَائِلًا لَهُ :

- لَمْ تَنْفَعْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ بَلَدَتِكَ . فَلَا أَنْتَ مُوْظَفٌ فِي إِدَارَتِهِ وَلَا صَاحِبُ أَعْمَالِهِ يُمَكِّنُ لَكَ أَنْ تُقِيدَ إِخْوَانَكَ . أَنْتَ بَجْرُدُ حَاوِمٍ ، يُتَخِمُونَكَ بِالْأَكْلَةِ الشَّهِيَّةِ ، وَالْبَذَائِعِ الرَّجِيئَةِ ، وَالزَّيْجَةِ الْهَبْنِيَّةِ لِيُضْحُوا بِكَ قُرْبَانًا عَلَى مَذْبَحِ مَطَامِعِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ . لَا مَرُوءَةَ وَلَا رَجُولَةَ ... حَسِبْتَ . وَيَبْصُقُ فِي وَجْهِهِ وَيَسْخِي .

وَبَدَأَتْ الْحَيَاةُ تَتَمَلَّكُ « الطَّاهِرَ » وَزَادَتْ تَضَائِقُهُ مِنَ الْقَصْرِ وَأَهْلِهِ لَوْلَا « عَائِشَةُ » الَّتِي مَلَأَتْ حَيَاتَهُ قَرَحًا ، وَمَرَحًا ، وَغَيْظَةً وَأَسْنَتْهُ هُمُومَهُ الْمُتَزَايِدَةَ .

وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ بَيْنَمَا كَانَ « عَاوِلُ » مُتَغَيِّبًا فِي فَسْعَةٍ مِنْ فَسْعَاتِهِ الطَّرِيقَةِ وَكَانَ « الطَّاهِرُ » فِي الْمَكْتَبَةِ مُنْكَبًا عَلَى كِتَابٍ « أَصُولُ الْحُكْمِ فِي الْإِسْلَامِ » .

« لَعَلَّ عَبْدَ الرَّزَاقِ » إِذْ دَخَلَ « الْفَرِيكَ مُصْطَفَى » بِطَلَمَتِهِ السَّالْوَةِ وَابْتِسَامَتِهِ
الْعَرِيضَةِ وَقَامَتِهِ السُّهَابَةِ وَسَلَّمْ عَلَى « الطَّاهِرِ » وَجَلَسَ قَائِلًا :
- مَلَأْنَا نَفْسًا يَا « طَاهِرِ » ؟

- الْإِسْلَامُ وَأَصُولُ الْحُكْمِ لَعَلَّ عَبْدَ الرَّزَاقِ .

- سَمِعْتُ عَنْهُ الْكَثِيرَ وَلَكِنِّي لَمْ أَجِدْ وَقْتًا لِقَرَامَتِهِ وَيَطْهَرُ أَنَّهُ يُعَالِجُ الْحُكْمَ عِنْدَ
الْمُسْلِمِينَ . لَقَدْ تَغَيَّرَتِ الْأَحْوَالُ وَأَصْبَحْنَا نَعِيشُ وَقْتًا لَيْسَ فِيهِ حُكْمٌ لِلْمُسْلِمِينَ .
- نَعَمْ هَذِهِ قِسْمَتُنَا الْيَوْمَ .

- يَا « طَاهِرِ » أَنَا لَمْ أَتَخَذْتُ مَعَكَ فِي هَذِهِ السَّمَوَاتِ سَابِقًا . لَقَدْ شَغَلْتُنَا ذَاتِيهَا
شُؤُونَ الصِّيَاغِ وَالْعَقَارَاتِ . وَلَكِنْ أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ لَكَ وَأَنْتَ أَصْبَحْتَ وَاحِدًا مِنَّا .
إِنْ أَحْكَمْتَ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ مِنْ أُنْتَحَى مَا رَأَيْتَ فَهَؤُلَاءِ يَبْقَى وَلَا يَذَرُ حَتَّى بِالنِّسْبَةِ إِلَى
الَّذِينَ يَحْكُمُونَهُ وَيُحْسِبُونَ عَلَيْهِ . أَنْظُرْ إِلَيَّ أَنَا مَلَأُ ، وَأَنَا « الْفَرِيكَ مُصْطَفَى »
الَّذِي لَوْ مَلَأَ قَفُّهُ مِنَ الثَّنَائِينَ لَسَا قَدَرٌ عَلَى رَفْعِهَا إِلَّا بِصُعُوبَةٍ وَلَوْ مَتَى فِي
الشَّارِعِ لَرَأَيْتَ النَّاسَ يَنْحَنُونَ أَمَامَهُ ، وَيَكَاذِبُونَ يَقْبَلُونَ يَدَهُ . أَنَا « الْفَرِيكَ
مُصْطَفَى » مِنْ أَحَقِّ النَّاسِ عِنْدَ الْفَرَنْسِيِّسِ لَيْسَ لِي أَهْلٌ قِيَمَةٌ عِنْدَهُمْ . تَقُولُ هَذَا
طَبِيعِي فِي بِلَادٍ غَرِيبَةٍ وَلَكِنْ الْأَمْرُ بِالْإِثْلِ مَعَ الْبَيِّنَاتِ الَّتِي تَنْتَسِبُ إِلَيْهِمْ
بِالنِّصَانَةِ وَالْخِدْمَةِ . أَنَا وَأَمْنَابِي مُعْرَضٌ إِلَى كُلِّ أَلْوَانِ الْغَضَبِ لِثَغْوَةِ الْأَسْبَابِ .
فَلَوْ مَرَرْتُ مِثْلًا بِهَايِ صَغِيرٍ وَلَمْ أَسَلِّمْ عَلَيْهِ فَالذُّلَّةُ تَقُومُ وَتَقْعُدُ وَيَعْبُلُ الْأَمْرُ إِلَى
الْأَبَايِ نَفْسِي لِيَلْجَأَ ذَلِكَ . هَذَا يَقْطَعُ النَّظَرَ عَنِ الْوِشَائَاتِ وَالسَّعَايَاتِ الَّتِي لَيْسَ
لَهَا أَسَاسٌ مِنَ الصَّحَّةِ فَتَكُونُ عِنْدَ ذَلِكَ النَّظَرَةِ الْحَاقِدَةِ مِنَ الْبَايِ وَالْكَلِمَةِ النَّائِبَةِ
مِنْهُ ، لِتَصِلَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ إِلَى الْأَمْرِ بِلُزُومِ دَارِي وَالْإِفْلَاحِ عَنْ زِيَارَةِ
قَصْرِهِ . وَأَنْتَ لَوْ تَتَبَّهْتَ لَوَجَدْتَ أَنَّي عَزَلْتُ مَرَّتَيْنِ فِي هَذِهِ السَّنَوَاتِ يَدُونَ أَنْ يَسْمَعَ
أَحَدٌ .. وَادَّكُرْ لَكَ شَيْئًا آخَرَ فَحَتَّى الْأَصْدِقَاءُ يُتَعَمَّنُونَ عَنْ زِيَارَتِي أَوْ هُمْ يَسْتَنْكِفُونَ

مِنْ ذَلِكَ لِئَلَّا يَنَالَهُمْ سُخْطُ الْآلِيَاءِ وَخَاشِيَتِهِ . نَعَمْ أَنَا مِنَ الْخَاشِيَةِ وَلَسْتُ مِنَ
الْخَاشِيَةِ ، هَذِهِ حَالَتَايَا « طَاهِر » .. حُكْمُ يَدُونِ سُلْطَةِ ... يَهْرُجُ وَلَا كَرَامَةٍ .
- وَلَكِنْ لِسَادَا لَا تُفْلِعْ عَنْ هَذِهِ الْخِدْمَةِ وَأَلْتِ لَكَ مِنَ الثَّرَاءِ مَا يَكْفِيكَ مَوْوَدَّةَ هَذَا
الْوُظَيْفِ ؟

- أَلْتِ لَا تَعْرِفُ سَفَالَةَ هَؤُلَاءِ . إِنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يَحْيِكُوا لِي الْأَمْرَاتِ
وَيُخْرِجُونِي مِنْ رِزْقِي أَوْ يُصَيِّبُونِي فِي وَلَدِي « عَادِل » .
- أَلْتِ عَبْدُ هَؤُلَاءِ إِنْ .

- عُبُودِيَّةُ مَذْهَبَةٍ ... لَا تُحْسُ فِيهَا بِالْقُبُودِ وَلَا عَمِيدَ عَنْهَا ... هَذَا كَلَامُ قُلْتُهُ لَكَ
يَا « طَاهِر » لِإِنِّي أَعْتَبَرْتُكَ إِنِّي وَوَاحِدًا مِنَّا فَإِنَّكَ أَنْ تَتَحَدَّثَ بِهَذَا لَأَيُّ كَانَ وَإِلَّا
فَالْكَارِثَةُ وَالْمُصِيبَةُ الْعُظْمَى تَحِلُّانِي بِنَا .

- وَلِمَاذَا أَتَحَدَّثُ بِهَذَا .. ؟ وَلَكِنْ كُلُّ هَذِهِ الْأُمُورِ تُحْيِرُنِي يَا « سَيِّدِي مُصْطَفَى »
وَقَبْعَلُنِي لَا أَرْتَاحُ إِلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ .
- كَيْفَ يَا « طَاهِر » ... لَا تَرْتَاحُ إِلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ ... بَعْدَ كُلِّ الَّذِي صَنَعْتُهُ
مَعَكَ .. هَذَا لَا يُعْقَلُ .. !

- لَا تَغْضَبْ يَا « سَيِّدِي مُصْطَفَى » ... أَنَا أَعْتَرَفُ بِجَهْلِيكَ وَأَقْدُرُ فَيْدَكَ
عَوَاطِفَكَ النَّبِيلَةَ وَلَكِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَشَاطِرَكَ مَا تَحْسُهُ أَلْتِ ...
- آ ... تُشَاطِرُنِي مَا أَجْسُهُ أَنَا ...
- نَعَمْ يَا « سَيِّدِي مُصْطَفَى » ...
وَحَرَجَ « الْفَرِيكُ مُصْطَفَى » لَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ

* * *

مَضَتْ ثَلَاثُ سَنَوَاتٍ أُخْرَى ... كَبُرَتْ فِيهَا « عَائِشَةُ » وَبَدَأَتْ مَلَاحِمُهَا الرِّقِيقَةَ
تُضْفِي عَلَى الْقَصْرِ رِقَّةً أَوْقَعَ مِنْ رِقَّةِ أُمِّهَا : وَجْهٌ جَمِيلٌ يَمِيلُ إِلَى النِّعَافَةِ وَالسُّمَرَةِ
وَيَأْخُذُ مِنَ مَلَاحِمِ الْأَبِّ وَالْأُمِّ وَقَمِّ صَغِيرٍ ، خُلُوٌّ وَأَنْفٌ طَرِيفٌ وَعَيْنَانِ تَشْتَعِلَانِ



عائشہ

ذَكَاءٌ وَلُطْفًا .

أَمَّا لَيْبُهَا ، وَجَزِيَّتُهَا بَيْنَ رَفَعَاتِ الْقَصْرِ ، وَفَرَفَرَاتِهَا ثُمَّ كَلَامُهَا أَلْفُ الَّذِي يَتَنَاقَلُهُ
أَهْلُ الْقَصْرِ ، سَادَةً وَخَدَمًا ، كَانَ كُلُّ هَذَا يُعَمِّرُ أَرْكَانَ هَذَا الْبَيْتِ السَّاكِنِ سُكُونُ
الْقُبُورِ ، لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَجِبُ أَنْ يَسِيرَ بِذَوْنِ ضَجَّةٍ وَيُوقِفَ . فَلَا ضَجَبَ ، وَلَا
صِيَّاحَ ، وَلَا عِرَالَةَ . كُلُّ شَيْءٍ يَأْكُلُ بَغْضَةً بَغْضًا فِي سُكُونٍ كَمَا يَأْكُلُ الدُّودُ
الْأَمْوَاتَ . الْحَيَاءُ . هُنَا يَجِبُ أَنْ تَسِيلَ بِرَفَقٍ ، خُطَا ، خُطَا ، كَمَا يَدْبُ الْمَوْتُ
فِي جِسْمِ « الْفَرِيكِ مُصْطَفَى » عِرْفًا عِرْفًا ، وَتُطْفِئُ جَذْوَةَ الْغَيْشِ فِي « عَادِلِ »
فَتِيلًا فَتِيلًا ، وَتُخْبِئُ مِسْعَاتِ الْجَهَالِ مِنْ وَجْهِ زَوْجَةِ « الْفَرِيكِ » وَتُخْشِي شَغَافَ قَلْبِ
« الطَّاهِرِ » طَبَقَاتِ مِنَ الْحُزَنِ الدَّاكِنِ ، وَتَنْقُذَ إِلَى صَيِّمٍ فَوَّادٍ « رُبَيْدَةَ » وَرَفَعَاتِ
الْأَخْلُ بِالْثَّارِ الَّذِي كَانَ يَبْلُو سَرَّابًا .

إِلَّا « عَائِشَةَ » كَانَتْ أَمَلُ الْجَمِيعِ ، وَفَرَحَتُهُمْ ، وَنَحَابَتُهُمْ ، وَسِرٌّ وَجُودِهِمْ : فَهِيَ
لَهَا الْحَقُّ فِي أَنْ تَصْرَحَ ، وَتَصِيحَ ، وَتَضْرِبَ ، وَتَسُبَّ ، وَتَعِيْشَ بِاللَّحْسَى ،
وَالشَّوَارِبِ ، وَتَغْضُ ، وَتَسْأَلَ فِي الْحَاجِ ، وَتُكْسِرَ مَا شَاءَ لَهَا أَنْ تُكْسِرَ ، وَتُفْسِدَ
التَّحَفَ ، وَتُلْقِي بِهَا فِي الْبُسْتَانِ ، وَتَقَطِّعَ الْكُتُبَ حَتَّى الثَّقَائِلِ مِنْهَا .

هِيَ الثُّورَةُ الْعَارِمَةُ الْوَجِيدَةُ الَّتِي يَقْبَلُهَا أَهْلُ الْقَصْرِ ، وَيَقْبَلُونَ صَاحِبَتَهَا فِي
الْأَخْضَانِ ، وَيَتَنَذَرُونَ بِكَلَامِهَا ، وَيَرْدُقُونَهُ ، وَيُفْرَجُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِهِ .

وَلَوْلَا « عَائِشَةُ » لَمَا أَطَاقَ « الطَّاهِرُ » الْبَقَاءَ طَوِيلًا فِي الْقَصْرِ وَلِزَّاحِ هَارِبًا مِنْ
الْكَابُوسِ الَّتِي يَجْتُمُّ عَلَى صَدْرِهِ ، وَلَيْسَ بِإِمْكَانِهِ أَنْ يُزَوِّجَهُ . وَلَوْلَا « عَائِشَةُ »
لَرَمَى بِكُلِّ هَلَاكِ الْأَقْبَرَاتِ ، وَهَذَا التَّعْيِيمِ وَصَرَخَ فِي مُلْكِ اللَّهِ الْوَاسِعِ ..
وَكَانَ « الطَّاهِرُ » يَقُولُ فِي نَفْسِهِ :

- نَعَمْ هَذَا الْعَيْبُ الَّذِي أَحْسُ بِهِ هُوَ تَعَرَّةٌ قَهْرِيَّةٌ طَوِيلَةٌ عَرَفْتَنِي مَا كُنْتُ غَيْرَ قَائِمٍ
عَلَى اسْتِكْنَاهِهِ ، وَأَوْسَعَتْ مَعْلُومَاتِي فِي كُلِّ شَيْءٍ ، الضَّرُوبِي مِنْهَا وَالْكَهَالِي .

وَأَصْبَحْتُ إِنْسَانًا كَامِلًا وَلَكِنِّي إِنْسَانٌ شَقِيٌّ .. سَجِيحٌ ... عَبْدٌ لَا إِحْتِيَارَ لِي ...
حَيَاتِي مُسْطَرَّةٌ بِالسُّسْطَرَةِ ، خَطًّا مُسْتَقِيمًا لَا يَنْتَهِي إِلَّا بِهَايَتِي . بَلْ هَلْ مِنْ سَبِيلٍ
إِلَى ذَلِكَ ؟ فَهَلْ نَهَايَتِي سَتَنْتَهِي مَعَ « عَائِشَةَ » أَوْ مَعَ الْآخَرِينَ الَّذِينَ سَيَأْتُونَ ؟
أَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ تَكُونَ حَيَاتِي خَطًّا مُسْتَقِيمًا ... أَرْفُضُ هَذِهِ الْحَيَاةَ وَلَكِنْ كَيْفَ ؟ هَذِهِ
الْحَيَاةُ الَّتِي لَا يَجِدُ فِيهَا الْفَرْدُ مَكَانَةً فَهَوَ قَطِيعٌ : إِمَّا قَطِيعٌ لَيْسَ لَهُ حَظْوَةٌ وَلَا
إِعْتِبَارٌ لِلسَّانِيَةِ عَنَّا صِرِهِ ، فَهَوَ يُسَاقُ كَمَا تُسَاقُ الْقَتَمُ وَيُخَضَّرُ فِي زُرْمَةِ الْعَبِيدِ . أَوْ
قَطِيعٌ لَهُ حَظْوَةٌ وَهُوَ مَحْظُوطٌ ، جَمْلَةٌ أَمَامَ غَامَةِ النَّاسِ وَلَكِنْ أَفْرَادُهُ فِي عُيُوبَةٍ ثَامَةٍ
يُخَضَعُونَ إِلَى الطُّغُوسِ وَالتَّقَالِيدِ وَالسَّرَاسِمِ ، مَتَى سَيَأْتِي الزَّمَنُ الَّتِي تَكُونُ فِيهِ
الْحُرِّيَةُ لِلْفَرْدِ وَالْإِعْتِبَارُ لَهُ كإِنْسَانٍ كَامِلٍ الْإِنْسَانِيَةِ ؟ لَنْ تَكُونَ الثُّورَةُ الْحَقِيقِيَّةُ إِلَّا
إِذَا بُحِيَ نِظَامٌ لَا يَكُونُ فِيهِ أَيْ ظُلْمٌ وَعَسَنَدٌ وَامْتِهَانٌ لِأَيِّ فَرْدٍ مِنَ الْأَفْرَادِ غَنِيًّا كَانَ
أَوْ فَقِيرًا ، شَيْخًا أَوْ شَابًا أَوْ طِفْلًا ، أَمْرًا أَوْ رَجُلًا .

مَتَى ... مَتَى ... يَكُونُ ذَلِكَ ؟

كُلُّ جِهَانٍ وَكُلُّ هَيْكَلٍ ، قَبِيلَةٌ كَانَتْ أَوْ عَشِيرَةٌ ، أَوْ عَائِلَةٌ مَالِكَةٌ ، أَوْ تَنْظِيمٌ
جَاهِلِيٌّ أَوْ أَعْمَى ، يَسْتَوِيهِنَّ بِالْفَرْدِ مِنْ أَجْلِ « حَيٍّ » جَمَاعَةٍ وَلَا يَغْرِيفُ مَا يَحْسُهُ
وَيَقَاسِيهِ أَفْرَادَهَا إِذَا هُوَ مُصَنَّدٌ الْعَبُودِيَّةِ . عِنْدَمَا يَسِيرُ الْفَرْدُ فِي الطَّرِيقِ وَيَدْخُلُ
دُكَّانًا ، أَوْ مَقَهًى ، وَيَعْمَلُ فِي مِهْنَتِهِ ، وَيَأْوِي إِلَى دَارِهِ وَهُوَ يَذُونُ فِي نَفْسِهِ أَلَمْ
فَقِرْ ، أَوْ يُؤَسَّ السَّعَتِيُّ أَوْ السَّرَّضُ الَّتِي يَأْكُلُهُ ، أَوْ كَابُوسَ عَائِلَتِهِ وَمِهْنَتِهِ وَمَنْ
حَوْلَهُ ، أَوْ حَيَاتَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَنَهَوِيَّاتِهَا ، أَوْ حَجَلُهُ مِنْ سَيَّاتِهِ ، أَوْ إِعْتِبَارُهُ بِنَبْلِ
عَوَاطِفِهِ وَأَثَوَاتِهِ وَأَسْوَاقِهِ وَلَا يَجِدُ الْفُرْصَةَ لِتَجْهِيمِهَا أَمَامَ إِخْوَانِهِ لِتَلَايِهَا أَوْ
الاشْتِعَاعِ بِهَا فَإِنَّ الْعَبُودِيَّةَ مَا زَالَتْ سَاكِنَةً بِالْمُجْتَمَعِ مِنْهَا صَلَاحُ الْمُسْتَوَى
الْهَادِيَّ وَارْتَفَعَتْ دَرَجَةُ الْمَدَنِيَّةِ .

هَذِهِ أَلْهَوَاجِسُ كَانَتْ تُلْمُ بِهِ مِثْقَالَ حَبِّ إِلَى آخِرٍ . وَلَكِنْ « زَيْنَةُ » كَانَتْ تَشُدُّ مِنْ

عَزِيهِ ، وَتُسَبِّحُهُ بِكُلِّ لُطْفٍ وَمَهَارَةٍ خَاصَّةٍ وَأَنْ « عَاوِل » يَنْطَفِئُ شَيْئًا فَشَيْئًا ، وَتَتَقَاعَمُ عُيُوبُهُ ، وَبَدَأَتْ تَظْهَرُ إِلَى الْعَيَّانِ . وَكَانَ كُلُّ شَيْءٍ يَدْعُو « الطَّاهِرَ » إِلَى الْإِجْهَازِ وَالنَّعْلِلِ عَلَيْهِ ، وَلَيْسَ لَهُ مِنْ تَصْيِيرِ الْآنَ حَتَّى أُمُّهُ فَقَدْ فَقَدَتْ صَوْتَهَا ، وَلَيْسَ فِي إِمْكَانِهَا أَنْ تُدَافِعَ عَنْهُ .

وَفِي صَبِيحَةِ يَوْمٍ بَيِّنًا كَانَ الْجَمَاعَةُ يُصْبِحُونَ عَلَى زَوْجَةِ الْفَرِيكِ : « عَاوِل » وَ « الطَّاهِرَ » وَ « رُبَيْدَةَ » وَالْفَرِيكِ فِي عُرْفَتِهِ يَمِيءُ نَفْسَهُ لِلْخُرُوجِ وَبَعْضُ الْحَدَمِ يَجِئُونَ وَيَرُوحُونَ إِذْ « بِعَاوِل » يَقُولُ « لِلطَّاهِرِ » :

- يَا طَاهِرَ أَنْتَ ذَاهِبٌ إِلَى ثَوْنٍ وَأَنَا الْيَوْمَ لَا أُرِيدُ الْخُرُوجَ ، فَاشْتَرِ لِي عُلَبَ سَقَائِرَ وَ « دُبُوزَةَ » عِطْرٍ (وَهُوَ يُسَمَّى قَارُورَةَ الْحَمْرِ « الْبُوحَةِ » عِطْرًا) .

فَصَاحَ فِيهِ « الطَّاهِرَ » حَائِقًا قَائِلًا :

- هَلْ تَنْظُرُ أُنَيْي حَدِيمَ السَّيِّدِ الْوَالِدِ .

- إِيه ... يَغْنِي ؟ !

وَلَمْ يَمْلِكْ « الطَّاهِرَ » نَفْسَهُ فَأَهْرَى بِصَفْعَةٍ قَوِيَّةٍ عَلَى خَدِّ « عَاوِل » أَطَاعَتْ بِشَاشِيَّتِهِ ، وَأَرَادَ ضَرْبَهُ مَرَّةً أُخْرَى .

وَقَامَتِ الضَّجَّةُ وَالْتَفَتُ بِهَيَا النِّسَاءِ وَجَاءَ « الْفَرِيكِ » فَرِغًا مِنْ عُرْفَتِهِ فَوَجَدَ « عَاوِلَ » يُجْهِشُ بِالْبُكَاءِ ثُمَّ أَغْمِيَ عَلَيْهِ مِنْ فَرْطِ الْقَضَبِ ، وَحُلَّ إِلَى فِرَاشِهِ وَكَانَ يَوْمًا أَسْوَدَ لَمْ يَعْرِفْ فِيهِ أَحَدٌ مِنَ الْقَصْرِ مَا يَقُولُهُ لِلْآخِرِ .

وَبَقِيَ « عَاوِل » فِي الْفِرَاشِ مَرِيضًا ، وَقَرَّرَ « الطَّاهِرَ » أَنْ يَزُورَ أَهْلَهُ فِي قَرْبَتِهِ بَعْدَ أَنْ اعْتَذَرَ لِلْفَرِيكِ مُصْطَفًى . وَلَكِنَّهُ أَصْرَعَ عَلَى الْأَيْعَادِ « عَاوِلَ » فِي عُرْفَتِهِ وَأَنْ يَذْهَبَ لِلتَّفْرِيجِ عَنْ نَفْسِهِ مِنْ هَذِهِ الْحَالَةِ وَزِيَارَةِ أَهْلِهِ وَأُمِّهِ . فَوَافَقَهُ « الْفَرِيكِ مُصْطَفًى » عَلَى ذَلِكَ وَقَالَ لَهُ عِنْدَ تَوْدِيعِهِ :

- لَا تَنْسَ أُنَيْي أَعُوْلَ عَلَيْكَ يَا « طَاهِرَ » وَلَا تَنْسَ السَّعْرُوفَ .

كَيْفَ أَنْسَى وَجْهَهُ مِنْ نَفْسِي هَذَا .

وَكَاثَتْ « زُبَيْدَةُ » حَاوَلَتْ أَنْ تُهْدِي مِنْ نَفْسِ « الطَّاهِرِ » وَتَدْفَعُهُ إِلَى التَّسَامُحِ وَلَكِنَّهُ أَصَرَ عَلَى عَدَمِ رُؤْيَا « عَادِلٍ » مَعَ أَنَّ « زُبَيْدَةَ » تُعْرِفُ أَنَّ « عَادِلٌ » هُوَ نَفْسُهُ مُصَنَّمٌ عَلَى أَنْ يُؤَدَّبَ هَذَا الْأَرْعَنُ إِذَا هُوَ لَمْ يُكَفَّرْ عَنْ سَيِّئِهِ .

وَحَرَجَ « الطَّاهِرُ » مِنَ الْقَصْرِ وَلَمْ يَأْخُذْ كَالْعَادَةِ « الْكَرُوسَةَ » وَأَحْسَنَ بِالْفِرَاجِ وَهُوَ يَتَنَجَّهُ نَحْوَ « التَّرَامُايِ » فَكَأَنَّهُ كَانَ سَجِينًا وَأَطْلَقَ سَرَّاحَهُ .

* * *

وَرَجَعَ الْقَصْرُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ . وَكَانَتْ « زُبَيْدَةُ » تَزُورُ مَعَ سَيِّدَتَيْهَا « عَادِلٍ » فِي عُرْفَيْهِ لِمَوَاسَاتِيهِ وَهُوَ يَشْكُو مِنَ الثَّغْبِ وَالْأَمْنِيَارِ . وَكَانَ الَّذِي يُعَيِّرُ « زُبَيْدَةَ » هُوَ بَقَاءُ الْعَلَاقَاتِ بَيْنَ « الطَّاهِرِ » وَ« عَادِلٍ » عَلَى هَذَا التَّوَثُّرِ وَهُوَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُغْضِبَ « الْفَرِيكَ مُصْطَفَى » وَيُغْشِدَ عَلَيْهَا عُطْطُهَا . فَفَرَّرَتْ أَنْ تَزُورَهُ وَحْدَهُ لِتَهْدِئَةِ خَاطِرِهِ وَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا :

- هُوَ مَرِيضٌ وَمَاذَا يُسْكِنُ أَنْ يُلْحَقَنِي مِنْهُ وَأَنَا أَكْرَهُهُ .

وَبَيْنَمَا كَانَ « عَادِلٌ » فِي فِرَاشِهِ ، فِي الْقَيْلُولَةِ وَإِذَا بِبَابِ « الْمَقْعَدِ » يَفْتَحُ وَتُطِلُّ مِنْهُ « زُبَيْدَةُ » فَيَسْتَعْرِبُ « عَادِلٌ » جَبَّتْهَا وَحَدَّاهَا وَيَرْحُبُ بِهَا مِنْ دُونِ أَنْ يَقُومَ مِنْ فِرَاشِهِ ، وَتَحْمِلُسُ هِيَ فِي تَلْجِيَةِ مِنَ الْفِرَاشِ ، وَتَبْدَأُ فِي الْحَدِيثِ مَعَهُ وَإِذَا بِهِ يُجْهَشُ بِالنَّبْكَاءِ ، وَيَلُومُهَا عَلَى كُلِّ مَا صَدَرَ مِنْهَا فِي الْقَدِيمِ فَتَقْتَرِبُ مِنْهُ ، وَتَسْنَحُ لَهُ دُمُوعَهُ ، وَتَهْمُ بِتَقْبِيلِ جَبِينِهِ ، وَلَكِنَّهُ يَحْدُ يَدَيْهِ فِي رَفْقٍ ، وَيَحْوُلُ الْقَبْلَةَ إِلَى قِيهِ ، وَلَمْ يَقْطُنْ لَا هُوَ وَلَا هِيَ إِلَّا وَهِيَ فِي فِرَاشِ وَاحِدٍ ، مُلْتَصِقَتَيْنِ أَشَدَّ الْأَلْتِصَاقِ ، يُطْفِئَانِ لَهَبًا لَمْ يَغْرِقَا شَوَاطِئَهُ مِنْ قَبْلُ .

لَمْ تَذَرْ « زُبَيْدَةُ » كَيْفَ وَصَلَ بِهَا الْأَمْرُ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ ! وَكَيْفَ ذَهَبَ عَقْلُهَا بِهَذِهِ الصُّورَةِ ! وَلَمْ تَفْهَمْ لِمَاذَا أَحْسَنَتْ مَعَ « عَادِلٍ » بِاللَّذَّةِ الْقَصَوَى الَّتِي لَمْ يَكُنْ

« الطاهر » . قَادِرًا عَلَى إِمْتَاعِهَا بِهَا ! وَلَيْسَتْ يُنَابِهَا بِسُرْعَةٍ ، وَخَرَجَتْ لَا تُلْوِي عَلَى شَيْءٍ وَبَقِيَتْ لَيْلَتَهَا تِلْكَ ، وَهِيَ بَيْنَ الْيَقَظَةِ وَالتَّوَمِّ تَسْبُرُ أَعْمَاقَ نَفْسِهَا وَتُسَالِلُهَا لِأَذَا كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ أَكْثَرَ أَثَرًا فِي نَفْسِهَا مِنْ يَوْمِ زَفَافِهَا ؟

وَفِي الْيَوْمِ السَّوَالِي لَمْ تَتَسَالَكِ « زُبَيْدَةُ » عَنِ اللَّقَاءِ مَرَّةً أُخْرَى مَعَ « عَادِلِ » الَّذِي تَشِيطُ نَشَاطًا لَمْ يَعْرِفْهُ مِنْ قَبْلُ وَقَرَّرَ أَنْ يُبْطِلَ طُقُوسَهُ الْجِنْسِيَّةَ الْأُخْرَى ، وَيَبْقَى عَلَى تِلْكَ الْحَالِ هُوَ وَ « زُبَيْدَةُ » خَمْسَةَ أَيَّامٍ إِنْتَفَقَ أَثْنَاءَهَا مَعَ خَلِيلَتِهِ الْجَدِيدَةِ أَنْ يَتَنَازَلَ فِي حَقِّهِ نَهْجًا « الطاهر » وَيَجْتَنِعَ إِلَى السَّمَاعِ .

وَرَجَعَ « الطاهر » مِنْ قَرْنَتَيْهِ وَصَلَحَ الْأَمْرَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ « عَادِلِ » وَلَكِنَّهُ أَحْسَنَ بِأَنْ أَلْجَأَ فِي الْقَصْرِ قَدْ تَبَدَّلَ ، وَأَنْ « عَادِلِ » قَدْ تَغَيَّرَ سُلُوكُهُ مَعَهُ وَأَنْ « زُبَيْدَةُ » أَصْبَحَتْ أَشَدَّ إِنْغِلَاقًا مِنْ قَبْلُ . وَعَزَا ذَلِكَ بَعْدَ اسْتَبَاحِ إِلَى أَنَّهَا حَامِلٌ . وَبَقِيَ فِي هَذِهِ السَّهَوَاجِسِ وَهُوَ يُكَذِّبُ ، وَيَتَّسِي خَاصَّةً عِنْدَمَا يَعْتَرِضُ « زُبَيْدَةُ » وَهِيَ نَازِلَةٌ مِنْ مَدْرَجِ « مَقْعَدِ » « عَادِلِ » فَتَقُولُ لَهُ : إِنَّهَا وَقَفَتْ فِي الثَّائِفَةِ الْمَقَابِلَةِ لِلْمَدْرَجِ لِتَنَاقِي الْجَنَانِ لِيَتَوَمَّ بِخِدْمَةِ لِمَالِ السَّطَنَةِ .

وَمَضَتْ تِسْعَةُ أَشْهُرٍ . وَوَضَعَتْ « زُبَيْدَةُ » طِفْلًا كَأَنَّهُ الْقَمَرُ مَدُورَ الْوَجْهِ ، بِشَرَّتِهِ بَيَاضًا نَاصِعَةً لَا يُشْبِهُ لَا أُمَّهُ وَلَا أَبَاهُ . وَسَمَّاهُ « عَادِلِ » « النَّاصِرِ » وَلَمْ يُنَافِعِ « الطاهر » وَلَكِنَّهُ يَتَّقَنَ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَيْسَ إِتْنُهُ .

وَلَمَّا مَرَّتْ أَرْبَعُونَ يَوْمًا عَلَى وَلَادَةِ « النَّاصِرِ » وَاسْتَعَادَتْ « زُبَيْدَةُ » قُوَاهَا جَاءَهَا « الطاهر » وَقَالَ لَهَا :

- بَعْدَ اسْتَبْرَاحِ ثَلَاثِ هَذَا الْقَصْرِ ... فَلْتَجْمَعِي كُلَّ أَثَائِكِ . وَأَلْتِ بَيْنَ خَلِيلَيْنِ إِثْنَيْنِ : إِمَّا أَنْ تَتَّبِعِيَنِي حَيْثُمَا أَذْهَبُ أَوْ أَنْ تَبْقَيَ فِي هَذَا الْقَصْرِ وَكُنْ تَلَرَجِي بِرُؤْيَايَ أَبَدًا .

- لِمَاذَا ... ؟ مَا هَذَا الْقَرَارُ ... ؟ وَسَيَبْدِي مُصْطَفَى عَلَى عِلْمٍ !

- « سيدك مُصطفى » على علمه وفؤاد الذي أعانني على التخصيص على وظيفتي في إدارة السالفة واكتريت « علوا » قرب حي نهج ألبافا .
 وأسقط في يدي « زبينة » ولم يسعها إلا أن تمتثل وتزل الخبر على أهل القصر كالصاعقة وظهر « الطاهر » ذلك المتفطرس الطاغية الذي لا يقدر أحد على الاتيزاب منه لا « علول » ولا أي ساكن من سكان القصر إلا « الفريك مصطفى » فقد بقي يتوذد إليه، ويرتجى أن يعود له « الطاهر » و « زبينة » بعد أشهر معتقدا أنها نزوة شباب ، وطيش رجل لم تؤذبه الحياة فهو عندما سيفطن إلى ضيق ذات يده ويقارن بين حياته الحاضرة والساحية يعود إليه رثده .
 وودع أهل القصر عائلة « الطاهر » وهم يكون ، وشبهوهم وقد رحلوا يستأجر فاحش وتغلب لا تعد ولا تحصى .

ورث « الطاهر » آثاءه في « العلو » وبات ليلته وكأله ألق من جب مظلم كان فيه . وانتهت بالنسبة إلى العائلة حياة وبدأت حياة أخرى ، أغلق فيها « باب العرش » بدون رجعة ، وتوارى عن أنظارهم باب « الحضرة » الذي رجع يفتح « ليعاود » كل صباح .

وتغير مجرى حياة العائلة رأسا على عقب : فأصبحت السكنى تقتصر على عرفتتين يفصلهما عن المطبخ مسر يفضي إلى مدرج طويل ملتصق لا تكاد قدم النازل أو الصاعد تطفئ مساحة تشك بها ، خوف السقوط إلا بجهد جهيد . نعم الثروة والعادة تتكفلان بحلق الصعود والنزول ، واليدان تساعدان على حفظ التوازن بلنسبات رقيقة على جذار البين وجدار اليسار .
 ويظهر أن هذا الطابق الأول هو جزء من قصر صغير كان لأحد الأغنياء في العاصمة ، فسم إلى منازل كثيرة للكراء ، ولم يبق واضحا منه إلا الاصطبل الذي

يَأْوِي « الْكَرَارِطُ » وَالطَّابِقُ الْأَوَّلُ الَّذِي مِنْهُ « الْعُلُو » أَلْسُكْتَرَى مِنْ « الطَّاهِر » وَمَقْعَدُ أَصْبَحَ دُكَّانًا يَبِيعُ الْخَبْزَ وَالتَّوَابِلَ . أَمَّا أَلْسَنَازِلُ الَّتِي تُشْرِفُ عَلَى الشَّارِعِ الْآخَرِ فَهِيَ غَيْرُ وَاضِحَةٍ . كُلُّ هَذَا لَا يُسْكِنُ فَهْمُهُ إِلَّا عِنْدَ تَبَيُّنِ التَّدْخُورِ الْأَقْتِصَادِيِّ الَّذِي أَصَابَ بَعْضُ الْعَائِلَاتِ الثُّونِيسِيَّةِ وَجَعَلَهَا تَجَرِي وَرَاءَ مَعْلُومِ الْكَرَّاءِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ تَنْعَمُ فِي الْحَوَارَاتِ .

وَلَكِنْ هَذَا لَيْسَ شَأْنَنَا ، وَلَسْكَتَفُ يُتَابَعَةُ « الطَّاهِر » فِي شَقِّهِ لِلْحَيَاةِ هُوَ وَعَائِلَتِهِ ، وَلَتَنْصَعِدُ مِنَ أَلْسَمَرِ دَرَجَاتٍ أُخْرَى ، بَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا لِيَجِدَ سِوَى عُرْفَةٍ لَعَلَّهَا كَانَتْ مُعَدَّةً لِلخَادِمِ وَلَكِنَّهَا تَحَوَّلَتْ إِلَى مَطْبُخٍ وَبَيْتٍ رَاحَةٍ . هِيَ صَغِيرَةٌ جِدًّا ، يُقَابِلُ الْمَذْرَجَ مِنْهَا بَابٌ يُفْضِي إِلَى فِنَاءٍ سَمُوهُ « السُّطْحُ » وَالْبَابُ « بَابُ السُّطْحِ » . وَمِنْ هَذَا السُّطْحِ ، يُسْكِنُ أَنْ يُطِلَّ أَمْرُهُ عَلَى سَقْفِ الْأَصْطَبِلِ وَعَلَى الطَّابِقِ الْأَوَّلِ مِنَ الْمَجْمُوعَةِ السَّكْنِيَّةِ . وَلَيْسَ لِلْعَائِلَةِ مُتَنَفِّسٌ إِلَّا السُّطْحُ أَوْ النَّافِذَتَيْنِ الْمُطْلَقَتَيْنِ عَلَى الشَّارِعِ . وَاللَّتَيْنِ يَجِبُ أَنْ تَبْقِيََا مَغْلَقَتَيْنِ خَوْفًا مِنَ الْعُيُونِ الْمَصُوبَةِ نَظَرَاتِهَا مِنَ الْمَنَازِلِ الْمَقَابِلَةِ أَوْ حَتَّى السَّارَةِ فِي الشَّارِعِ .

لَمْ يَكُنْ « لِزُبَيْدَةَ » مِنْ مُتَنَفِّسٍ إِلَّا السُّطْحُ وَالنَّافِذَةُ الْمَوْجُودَةُ فِيهِ ، أَلْسُطِلَةُ عَلَى الشَّارِعِ مِنْ دُونِ خَشِيَّةِ الْعُيُونِ الطَّافِلِيَّةِ .

أَحْسَتْ « زُبَيْدَةُ » بِالضِّيقِ جِسًّا وَمَعْنَى ، وَلَمْ تَتِمَكَّنْ مِنْ تَرْتِيبِ كُلِّ مَا لَدَيْهَا مِنْ أَثَابٍ فَأَقْتَرَحَ عَلَيْهَا « الطَّاهِر » بَيْعَ هَذِهِ التَّخَفِ وَالرُّسُومِ الَّتِي لَا مَعْنَى لَهَا فِي بَيْتٍ مِثْلِ هَذَا . وَلَيْسَ « لِزُبَيْدَةَ » فِي الْأَوَاقِعِ أَنْ تَقُولَ لَا . لِأَنَّ ضِيقَ أَلْيَدِهَا أَيْضًا فَرَضَ عَلَيْهَا أَنْ تَتَحَنَّنَ لِسَيِّئَةِ « الطَّاهِر » الَّذِي أَصْبَحَ لَا يَزِدُّهُ رَادِعٌ إِلَّا هَذَا التَّقْدِيرُ أَوْ لَيْسَ يَذَرِي مَا الَّذِي يَشُدُّهُ إِلَى هَذِهِ الْحَرَاةِ .

وَسَارَتْ الْأَيَّامُ الْأُولَى السَّليمةُ بِالشُّغْلِ الْمَنَزَلِيِّ ، خَفِيفَةُ الْوُطْءِ خَاصَّةً أَنْ « الْفَرِيكَ مُطْصَفَى » كَانَ مِنْ حِينَ إِلَى آخَرٍ يَزُورُ « زُبَيْدَةَ » وَكَانَ يَتَحَاشَى دَائِمًا أَنْ

يَلْتَقِي « بِالطَّاهِرِ » فَيَمُدُّ يَدَ الْإِعَانَةِ إِلَى هَذِهِ الْعَائِلَةِ الَّتِي بَدَأَتْ تُشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ الضَّيْقِ بَعْدَ السَّعَةِ الَّتِي عَرَفَتْهَا سَابِقًا .

أَرَادَتْ « زُبَيْدَةُ » أَنْ تَعْرِفَ لِمَاذَا سَاحَلَ « الْفَرِيكُ » مُصْطَفَى « وَتَرَكَهَا تَخْرُجُ مِنْ الْقَصْرِ بِسَهْوَةٍ ، وَهِيَ النُّقْطَةُ الْغَايِضَةُ وَالسُّرُّ الْمُغْلَقُ الْبَاقِيَانِ فِي صَدْرِهَا . وَكَانَتْ تَسْتَقْبِلُ « الْفَرِيكُ » فِي كُلِّ مَرَّةٍ بِالدُّمُوعِ الْمَتَرَقِرَةِ ثُمَّ الْبُكَاءِ ثُمَّ الشَّبِيحِ . وَتَجَرَّأَتْ مَرَّةً وَقَالَتْ لَهُ :

- يَا سَيِّدِي كَيْفَ تَرْتَكِنِي أَخْرُجُ مِنْ بَيْتِكَ إِلَى هَذَا السُّجْنِ الَّذِي لَا تَجِدُ فِيهِ عَاشَةً « فَسَحَّةٌ لِلْعَبْرِ وَالتَّرْوِيحِ .

- يَا بَيْتِي « زُبَيْدَةُ » سَأَلَنِي « الطَّاهِرُ » يَوْمًا عَنْ سَبَبِ تَوَاقِي الْبَاقِي فِي الدَّفَاعِ عَنْ مَصَالِحِ الشَّعْبِ فَأَجَبْتُهُ بِأَنِّي لَا أَذِي فَقَالَ : كَيْفَ لَا تَذِي وَأَنْتِ « فَرِيكُ » تَذْخُلُ قَصْرَ الْبَاقِي مَتَى تَشَاءُ وَتَخْرُجُهُ مَتَى تَشَاءُ ؛ لِمَاذَا لَا تُحَدِّثُهُ بِالْأَمْرِ هَذَا الشَّعْبِ وَالْفَسَادَ الْمُسْتَقْبَلِي فِي الْإِدَارَةِ مِنْ رَشْوَةٍ ، وَخُسُوفِيَّةٍ ، وَتَقْصِيرِ لِلطُّبَقَاتِ الْمُسَوَّرَةِ ، وَاسْتِغْلَالِ لِلْفِيئَاتِ الضَّعِيفَةِ ؟ قُلْتُ لَهُ حِينَ ذَلِكَ : الْبَاقِي لَا يَصِلُهُ إِلَّا الْقَلِيلُ مِمَّا يَبْقَى ، فَلَهُ وَزَرَاءُ وَنِظَامُ الْحَيَاةِ يَكْفِيهِ مَوْثِقَةُ النَّظَرِ فِي شُؤْنِ رَعِيَّتِهِ ، وَهُوَ لَا يَنْتَمُ هُوَ وَأَبْنَاؤُهُ إِلَّا بِمَا يُبَسِّرُ عَلَيْهِ الْحَيَاةَ ، وَنَحْنُ لَا يُكِنُّ لَنَا أَنْ نُبَاشِرَهُ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ ، خِيفَةُ إِبْعَادِنَا وَالتَّغْلُّلِ عَلَيْنَا . وَتَكْلِيْفُنَا مَا تُقَاسِيهِ مِنَ الْوَسَايَا ، وَالْأَحَابِيلِ ، وَالْمَكَاثِدِ الْمَحَاكَةِ فِي الظَّلَامِ وَالْمُهْدَدَةِ لِحَيَاتِنَا وَمَعِيشَةِ أَهْلِنَا . هَذَا هُوَ الْوَاقِعُ يَا « طَاهِرُ » وَلَا تَبْحَثْ عَنْ شَيْءٍ آخَرَ ، وَأَنَا فِي حَرِيفِ الْعُمُرِ أَتُرِيدُ أَنْ تُرَضَّعَ هَذِهِ اللُّعِيَّةُ فِي التُّرَابِ ؟ فَصَاحَ قَائِلًا : هَذِهِ حَيَاةُ الْعَبِيدِ وَالْمُتَوَعِّجِينَ ، حَيَاةُ الْعَبِيدِ الْمُرْكَبَةِ : الْبَاقِيَاتُ عِبِيدُ الْفَرَسِيِّينَ وَأَنْتُمْ عِبِيدُ الْبَاقِيَاتِ . أَنْتُمْ عِبِيدُ الْعَبِيدِ . يَا هَذَا مِنْ حَيَاةِ الدُّلِّ وَالْمَسْكَنَةِ ! أَتُرِيدُ مِنِّي أَنْ أَبْقَى مُرَبِّطًا بِرَجُلٍ يَمِيشُ فِي كَابُوسٍ مِنْ أَجْلِ الْفَحْطَةِ وَالنَّيَاشِينِ ؟ أَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَحْيَا حَيَاةَ الْعَبِيدِ وَلَا

أَتْرَكْتُ أَتْنَائِي يَعْيشُونَ بَعِيدًا عَنْ طَبَقَتِي وَبَعِيدًا عَنْ كَافَّةِ الشَّعْبِ . إِنْ صَمَّمْتُ أَنْ
أُجَاوِرَ قَصْرَكَ مَعَهُمَا كَانَتِ الشَّكَايَةُ وَجِبَتْ أَنْ تُعَيِّنَنِي عَلَى ذَلِكَ وَإِلَّا أَخَذْتُ أَمْرًا
سَتَحْدُثُ بِهِ الْأَجْيَالُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ . وَلَمْ يَكُنْ لِي إِلَّا أَنْ بَحَثْتُ لَهُ عَنْ هَذَا
الْوُطَيْفِ وَلِي أَمَلٌ أَنْ يَجِدَ فِي حَيَاتِهِ هَذِهِ بَعْضَ الصُّبْحِ فَيَرْجِعَ إِلَيَّ .

- أَنَا أَمَلٌ فِي ذَلِكَ يَا سَيِّدِي ؟ وَأَنَا إِذْ عَلِمْتُ الْحَقِيقَةَ فَلَا مَقَرَّ لِي مِنَ الْأَذْعَانِ
إِلَيْهِ . وَاعْتَبَرْتُ مِنَ الْآنَ فَصَاعِدًا « رُبَيْدَةُ » تِلْكَ الَّتِي مَلَأَتْ حَيَاتَكَ قُرْحًا ، وَغَيْظَةً ،
وَعَاشَتْ فِي كُتُبِ الْقَفَلَةِ قَدْ مَاتَتْ ، وَأَنْتَ لَنْ تَعْرِفَ مِنَ الْيَوْمِ مَلَجًا لَهَا إِلَّا
الْبُكَاءَ ، الْبُكَاءَ عَلَى نَفْسِي وَعَلَيْكُمْ يَا سَيِّدِي ذَهَبَتْ الْأَيَّامُ الْخُلُوءُ وَرَاحَتْ أَيَّامُ الْعُزِّ .
وَأَجْهَشْتُ بِالْبُكَاءِ ، وَلَمْ يُقْذِفْهَا مِنْ غِيُوبَتَيْهَا إِلَّا صِيَاحُ « عَائِشَةَ » الَّتِي
تَدَحْرَجُ مِنَ الْمَسْرَجِ . فَهَرَعَا إِلَيْهَا ، وَكَفَكْنَا مِنْ دُمُوعِهَا وَوَعَدَ الْفَرِيدُ
« عَائِشَةَ » بِأَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهَا « دُجَّةً » لِيُؤَسِّسَهَا فِي وَحْشَتِهَا .

وَخَرَجَ الْفَرِيدُ دَامِعَ الْعَيْنَيْنِ ، وَرَكِبَ عَرَبَتَهُ تَحْتَ أَنْطَارِ الْجَالِسِينَ فِي
السَّقْفِ الْمَقَابِلِ وَالسَّارَةَ الْمُتَمَلِّينَ فِي هَذَا يَوْمِ الْأَثْنَاءِ الْمُسَاوِرِ لِلْسَّالُوفِ فِي هَذَا
الْحَمَى الشَّغِيئِ . وَشَبِعَتْهُ « رُبَيْدَةُ » مِنْ رَأَى الشَّرْقَةِ وَغَيْثَهَا دَامِعَةً وَقَلْبَهَا يَتَقَاطَرُ
دَمًا ، وَالصُّبْحُ يُجِجُ بِمِلْأِ الشَّارِعِ وَيَخْمَرُ دُمَاغَهَا الثَّائِفَ .

مَضَتْ سَيُّونَ عَدِيدَةٍ وَعَائِلَةُ « الطَّاهِرِ » تُسْكُنُ ذَلِكَ الْبَيْتَ . فَالْعَائِلَةُ دَخَلَتْ
السَّنَدِلَ وَهِيَ تَضُمُّ بَنَاتَهَا وَلَدًا وَإِذَا بِهَا أَصْبَحَتْ تَجْمَعُ سِتَّةَ أَطْفَالٍ مِنْهُمْ مَنْ يَسْكُنُ
غُرْفَةَ الْوَالِدِ فِي رُكْنٍ مُظْلِمٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرْقُدُ فِي الْغُرْفَةِ الثَّانِيَةِ فِي فِرَاشٍ قُرْبَ
مَائِدَةِ الْكَمَلِ . وَ« دُجَّةً » فِي إِقَامَتِهَا يُوسِعُ لَهَا مَكَانٌ بَيْنَ الْكَرَاسِيِّ وَقُرْبَ
الْحِزَانَةِ وَفَرَشٌ فِرَاشَهَا عَلَى الْأَرْضِ .

لَمْ يَبْقَ مِنَ الْأَنْثَاءِ الْفَاحِشِ إِلَّا الْقَلِيلُ إِذْ كَانَ يَذْهَبُ عَلَى النَّسَقِ الَّذِي تَنْهَجُ بِهِ
مُوعُ « رُبَيْدَةُ » فَهِيَ إِذَا هَرَعَا الشُّوقَ إِلَى قَصْرِ « الْفَرِيدِ » وَبَكَتْ بُكَاءَ أَقْلَقِ

« الطاهر » دَفَعَهَا دَفْعًا إِلَى زِيَارَةِ أَهْلِ « سِيْدِي مُصْطَفَى » فَتَبَقَى ثَلَاثَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ أَيَّامٌ يَخْتَارُ فِيهَا « الطاهر » مِنَ الْأَثَاثِ مَا يُكْنُهُ مِنْ إِرْضَاءِ شَهْوَاتِهِ . وَشَهْوَاتُهُ أَصْبَحَتْ لَا تَخْصِي وَلَا تَعُدُّ : مَلَاهِي وَنَحَالِسَ أُنْسٍ وَمَسَرَّحًا وَسِيَّيًّا وَمُعَاشَرَةً لِأَهْلِ الذُّوقِ وَاللَّحْنِ مِنْ أَصْحَابِ « خَالٍ عَلِي » . وَكَثُرَ مِنْ هَذَا فَهُوَ يُقْبِي بِالرُّسُومِ الْمُسَجَّلَةِ حَيَاتُ أَهْلِ الْقَصْرِ فِي الْقَصْعَةِ الْمَمْلُوءَةِ مَاءً وَتَنْحَلُّ الْأَصْبَاغُ كَمَا يَشْتَهِي « الطاهر » أَنْ تَنْحَلُّ أَجْسَامُ الْأَشْخَاصِ الْمُرْتَبَةِ بِمَا فَيَرْتَاحُ إِلَى فِعْلِهِ وَيَسْتَفِي حِفْظَهُ فَيُرْضِي عَاطِفَةَ الشَّاقَّةِ إِرْضَاءً غَرِيْبًا .

وَكُلَّمَا رَجَعَتْ « رُبَيْدَةُ » إِلَى بَيْتِهَا ، أَحَسَّتْ بِأَنَّهَا دَفَعَتْ ثَمَنَ شَوْقِهَا غَالِيًا . وَلَكِنْ لَا مَفْرَاحَ لَهَا مِنْ ذَلِكَ . فَخِطُّ حَيَاتِهَا مُرْتَبِطٌ بِسِيْدِي مُصْطَفَى وَعَائِلَتِهِ حَتَّى جَاءَهَا يَوْمًا نَعِيْهُ فَخَرَجَتْ كَالْمَيْتَةِ فِي « كُرُوسَةٍ » وَمَشَتْ مُقْتَرِشَةً دُمُوعَهَا فِي رَدَاهَاتِ الْقَصْرِ وَذَخَلَتْ الْفُرْقَةَ الْمُسْجَى فِيهَا . وَفَهِمَتْ مَعْنَى الصَّنْتِ الَّذِي يُحْيِمُ عَلَى الْجَالِسَاتِ وَالْجَالِسِينَ فَلَمْ تَرْفَعْ صَوْتَهَا وَلَمْ تُقَيِّرْ عَلَى الْبُكَاءِ وَسَقَطَتْ أَرْضًا وَأَسْعَفَتْهَا الْحَاضِرَاتُ .

وَكَانَ « عَادِلٌ » فِي غِيُوبَتِهِ الْمَعْرُوفَةِ ، وَفِي لَأْمَبَالَتِهِ الْمَعْهُودَةِ يَنْظُرُ إِلَى وَالِدِهِ الْمُسْجَى ، وَهُوَ يَشْعُرُ بِأَنْ عَالِمًا قَدْ رَحَلَ بِدُونِ رَجْعِهِ ، وَأَنْ خُيُوطَ الْعَنْكَبُوتِ الَّتِي كَانَتْ تَجْمَعُ أَفْرَادَ الْعَائِلَةِ وَكُلَّ سَاكِنِي الْقَصْرِ قَدْ تَقَطَّعَتْ بِمِدَى الْقَدَرِ ، فَهُمْ إِلَى الْفُرْقَةِ وَالضِّيَاعِ وَالتَّلَاقِ .

وَكَانَتْ « رُبَيْدَةُ » عِنَّمَا أَفَاقَتْ تَنْظُرَ إِلَى « عَادِلٍ » وَكَأَنَّهُ خَرَجَ مِنَ الْقَبْرِ وَتَشْعُرُ أَنْ لَا مَلْجَأَ لَهَا بَعْدَ الْيَوْمِ إِلَّا دَفَنُ نَفْسِهَا فِي أَحْرَاقِهَا ، لِأَنَّهَا أَحَسَّتْ أَنَّ الدُّمُوعَ فِي عَيْنَيْهَا قَدْ جَمَدَتْ ، وَتَوَرَّ بِصَرِّهَا قَدْ حَبَا ، فَهِيَ كَالشَّمْعَةِ الذَّائِلَةِ لَيْسَ لَهَا إِلَّا أَنْ تَنْتَظِرَ مَصَاتِبَ الدُّغْرِ وَأَرْزَاءَهُ .

وَلَمْ تَفُتْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا حَتَّى بَدَأَتْ يَدُ الدُّغْرِ تَعْبُثُ بِالْقَصْرِ بَلْ بِالْأَحْرَى يَدُ

« عَادِل » تَجُولُ فِي الضِّيَاعِ وَالْأَمَلَاكِ . فَقَسَمَ الْقَصْرَ مَنَازِلَ وَاکْتَرَاهَا ثُمَّ بَاعَهَا إِلَى أَحَدِ الْفَرَسِيِّينَ وَأَلْقَطَعَ أَحْبَارُهُ عَنْهَا .

وَتَنَزَّهَ « الطَّاهِر » عِنْدَ ذَلِكَ وَأَصْبَحَ يَعْتَبِرُ « زُبَيْدَةَ » مُجْرَدَ خَادِمَةٍ لَا يُكَلِّمُهَا إِلَّا فِي الْقَلِيلِ النَّادِرِ وَلَيْسَ لَهُ فِي الْبَيْتِ مَنْ يُحَدِّثُهُ وَيَتَبَسِّطُ مَعَهُ إِلَّا « عَائِشَةُ » .

فَعَائِشَةُ تَذْهَبُ مَعَهُ إِلَى السَّيْنِمَا وَالْمَسْرَحِ وَتَخْرُجُ صُحْبَتَهُ وَهِيَ « يَلْخَفُتُهَا الْمِصْرِيَّةُ » السُّودَاءُ وَ« حَامَتِهَا » جِجَابِيَا إِلَى شَوَارِعِ الْعَاصِمَةِ وَتَتَفَسَّحُ مَعَهُ فِي الْمَسْتَنْزَهَاتِ ، وَيَقْدِمُهَا إِلَى أَصْدِقَائِهِ إِعْجَابًا بِهَا وَبِذَكَائِهَا .

أَمَّا النَّاصِرُ فَهُوَ « قَطُوسَةُ الرَّمَادِ » بِالْمَنْزِلِ . « فَالطَّاهِرُ » لَا يَخَاطِبُهُ إِلَّا بِالْكَلِمَةِ الثَّابِتَةِ ، أَوِ الصَّرِيحَةِ الْعَابِرَةِ ، وَحَذَارٍ إِذَا هُوَ أَخْطَأَ خَطَأً أَوْ لَمْ يَقُمْ بِمَا أُمِرَ بِهِ فَالْعَصَا تَأْكُلُ أَجَنَابَهُ أَكْلًا وَالسُّبُّ وَالشَّتْمُ نَصِيبُهُ . فَكَأَنَّ إِكْرَامَ « الطَّاهِرِ » « لِعَائِشَةِ » هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْإِثْقَامِ مِنَ « النَّاصِرِ » وَحَتَّى إِزْسَالُهُ إِلَى الْمَدْرَسَةِ ، مَدْرَسَةِ الْخُلَفَاوِينِ الْبَعِيدَةِ عَنِ أَلْمِي لَا الْفَرَعِ الصَّادِقِي هُوَ ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ التَّشْكِيلِ بِهِ ، وَتَغْرِيبُهُ إِلَى مَغْرِبَاتِ الشَّارِعِ وَالشَّكْحِ فِي مُنْعَرَجَاتِ الْأَحْيَاءِ . أَمَّا « عَائِشَةُ » فَهِيَ الْمُدَلَّلَةُ ، الْمَحْجَبَةُ ، الْمَسْتَوْرَةُ ، الْمَمْنُوعَةُ حَتَّى عَنْ غَنَاءِ الْعِلْمِ وَالتَّغْلِيمِ .

وَإِذَا كَانَ لِلطَّاهِرِ جَوْلَاتٌ فِي مَدِينَةِ ثُونَسَ الَّتِي أَصْبَحَ يَرُودُ الْكَثِيرَ مِنْ نَوَابِهَا وَمَقَاهِئِهَا ، وَمَلَاهِيهَا ، فَإِنَّ الْعَائِلَةَ لَيْسَ لَهَا إِلَّا « بَابُ السُّطْحِ » تَتَفَسَّحُ يَفْتَحُهُ عَنْ الضِّيْقِ الْمَحِيطِ بِهَا .

مِنْ « بَابِ السُّطْحِ » تَخْرُجُ « عَائِشَةُ » وَتَنْتَصِبُ وَرَاءَ النَّافِذَةِ الْمَسْتَوْرَةِ ، فَيَسْرَحُ نَظَرُهَا فِي الْجَالِسِينَ بِالْمَقْهَى الْمَقَابِلِ عَلَى حَافَةِ طَوَارِ لَا يَفُوتُ عَرْضُهُ أَلْسِنَتَيْنِ . فَتَنْتَظِرُ إِلَى أَشْخَاصٍ لَا حَرَكَةَ بِهِمْ ، تَوْضَعُ أَمَامَهُمْ إِمَّا كُؤُوسَ الشَّايِ أَوْ الْقَهْوَةِ . فَيَقِفُونَ السَّاعَاتِ يَنْظُرُونَ إِلَى الرَّائِحِ وَالْعَاقِبِ ، وَيَتَرَشَّمُونَ مَا فِي

الْكُؤُوسِ بِطَعْمٍ شَدِيدٍ ، ثُمَّ يَنْصَرِفُونَ لِيَجْلِسَ آخَرُونَ ، وَالتَّادِلُ يَقِفُ أَمَامَهُمْ ، وَيَسْحُ مَرَّةَ الطَّائِلَةِ وَمَرَّةً يَأْخُذُ الْكَاسَ كَأَنَّهُ يَخْطِفُهُ خُطْفًا عِنْدَمَا يَشْعُرُ بِأَنَّ الْحَرِيفَ قَدْ شَرِبَهُ حَتَّى الثَّمَالَةِ ، وَمَرَّةً أُخْرَى يَنْظُرُ شَزْرًا إِلَى صَاحِبِهِ الْمُتَنَاقِلِ فِي الدُّعَابِ أَوْ الْمُسْمِلِ بِصَدِيقٍ لَهُ وَاقِفٍ أَمَامَهُ فَلَا هُوَ يَدْعُوهُ إِلَى الْجُلُوسِ وَلَا هُوَ يَصْرِفُهُ عَنْهُ .

كُلُّ تَسَافُحٍ الْبِطَالَةِ مَشْهُورَةٌ أَمَامَ السَّنْفَى وَخَاصَّةً فِي الصَّبَاحِ . أَمَّا دَاخِلُ السَّنْفَى فَلَا تَلْمَحُ شَيْئًا لِكَثْرَةِ الدُّخَانِ الْمُتَصَاعِدِ وَلَا تَسْمَعُ إِلَّا ضَجِيجًا مُتَعَالِيًا ، يَتَخَلَّلُهُ صَوْتُ الرَّادِيُو فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ .

وَجَذُو الْمَقْهَى مَصْنَعٌ صَغِيرٌ لِصَنْعِ «الْقَوَّةِ» وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الْجُبْنِ الطَّرِيّ وَكَانَ يَغْمَلُ بِالصَّنْعِ رَجُلٌ أَنْبَكُمُ سُمِّيَ «الْبُكُوشُ» وَهُوَ مُرَابِطٌ لَيْلًا نَهَارًا لَا يَبْرَحُ السِّكَّانَ ، لَهُ عُرْفَةٌ مَلْأَصِيفَةٌ لِلْمَصْنَعِ يَضَعُ أَمَامَهَا كُرْسِيًّا فَتَرَاهُ جَالِسًا يَوْمَهُ كُلَّهُ إِلَّا قَلِيلًا . كُلُّ شَعْلَةٍ فِي الْأَخِيرِ مِنَ اللَّيْلِ . وَأَهْلُ الْحَيِّ يَهْمُومُونَهُ بِسَهُولَةٍ يَدُونُ أَنْ يَصْرَحَ وَإِذَا هُوَ صَرَخَ عَالِيًا فَذَاكَ إِذْ أَرَادَ بِخُرُوجِ «الناصر» مِنْ بَابِ الْمَنْزِلِ فَتَنْتَبِهُ أُمُّهُ «رُبَيْدَةُ» وَتُرْسِلُ إِلَيْهِ «عَائِشَةُ» لِتَجْمَعَهُ مِنَ الْخُرُوجِ . فَكَانَ «الْبُكُوشُ» صَارَ أَجِيرًا «لِلطَّاهِرِ» يَفْتَتِصِرُ عَمَلَهُ فِي النَّهَارِ عَلَى حِرَاسَةِ الْبَيْتِ وَمَعْرِفَةِ الدَّاخِلِ وَالْخَارِجِ . أَمَّا نَزْجِيَّاتُهُ فَهِيَ الْعَمُّ «صَوَيْلِحُ» صَاحِبَةُ الدُّكَّانِ السُّخَاوِي لِلْبَيْتِ ، فَهِيَ الْمُنْصَبُ عَنْ لِسَانِ «الْبُكُوشِ» إِذَا عَجَزَ «الطَّاهِرُ» عَنْ فَهْمِ إشاراتِ «أَجِيرِهِ» .

وَكُلُّ هُمْ «الطَّاهِرِ» عِنْدَمَا يَدْخُلُ الْبَيْتُ هُوَ تَصْنِيفِيَّةٌ أَلْيَسَابِ مَعَ «الناصر» وَ«رُبَيْدَةُ» هَذَا «الناصر» أَقَلَّتْ مِنَ الْبَيْتِ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَّا بَعْدَ سَاعَةٍ وَرَأَتْ «الْبُكُوشُ» يَلْعَبُ بِالْخُذْرُوفِ مَعَ أَصْحَابِهِ ثُمَّ أَخْفَاهُ فِي جَنِينِهِ . فَتَنْصَبُ بِحِكْمَةٍ لِمَعْرِفَةِ مَصْنَدِ الْخُذْرُوفِ أَوَّلًا ثُمَّ يَصْرَحُ بِالْحُكْمِ ثَانِيًا وَفِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ يَكُونُ

« النَّاصِر » قَدْ أُولَّجَ يَدَهُ فِي جَنْبِ أَبِيهِ وَهُوَ غَارِقٌ فِي قَيْلُولَتِهِ أَوْ تَحْيَلٍ عَلَى أُمِّهِ فِي شَرَايِهِ لِبَعْضِ الْمَوَادِّ . وَتَكُونُ الْكَارِثَةُ فِي أَلْبَيْتٍ إِذْ يُطْرَحُ « النَّاصِر » أَرْضًا وَيَنْهَالُ عَلَيْهِ أَبُوهُ ضَرْبًا بِحِزَامٍ مِنَ الْجِلْدِ يُطْرِفُهُ صَاحِبَةً ثُمَّ يَطْوُهُ بِأَقْدَامِهِ وَيَجِيبُ عَلَى « النَّاصِرِ » أَلَّا يَصِيحَ وَلَا يَصْرُخَ إِذْ كُلَّمَا صَاحَ وَصَرَخَ إِلَّا وَأَهْوَى عَلَيْهِ « الطَّاهِرُ » بِمَا هُوَ أَذْهَى وَأَمْرٌ وَلَا يَفْكُهُ مِنْهُ أَيُّ إِنْسَانٍ لَا أُمُّهُ وَلَا زَوْجَتُهُ فَإِذَا سَكَتَ « النَّاصِرُ » فَذَاكَ نَهَايَةُ الْفَرْجِ لِلْعَائِلَةِ وَالْبُعْثَةِ لِلنَّاصِرِ .

وَلَا يَطْنُنُ أَحَدٌ أَنْ قِسْمَةَ « النَّاصِرِ » مِنْ أَبِيهِ أَخَذَتْ فِي بَدَنِهِ عَاهَةً ، أَوْ صَدَنَةً عَنْ الْمُخَالَفَاتِ فَكَأَنَّهُ خُلِقَ مِنْ أَجَلٍ هَذَا وَأَصْبَحَ فِي حَصَانَةٍ لَا تُؤَثِّرُ فِيهِ لَا الضَّرَبَاتُ وَلَا الْكَاسِيحَاتُ . فَيَقُومُ مِنْ حِصْنِهِ الْأُسْبُوعِيَّةِ وَكَأَنَّهُ سَلِيمٌ مُعَافٍ ، وَكَأَنَّهُا تَزِيدُهُ مَتَاعَةً مِنْ كَوَارِثِ أَبِيهِ . أَمَّا إِخْوَتُهُ وَأُمُّهُ فَإِنَّ أَقْصَى مَا يُصَابُونَ بِهِ هُوَ تِلْكَ الْهَيْئَةُ الْعَظِيمَةُ الْمَصَاحِبَةُ لِتَنْفِيذِ الْحُكْمِ فَيَخْتَلِطُ صَرَاحُ « النَّاصِرِ » بِتَهْدِيدِهِ « الطَّاهِرُ » :

- أَسْكُتْ ... أَسْكُتْ ... يَا كَلْبُ ... يَا وَلَدُ ... وَاللَّهِ لَا أَقْتُلُكَ ... وَلَأُطْفِئَنَّ لَكَ رُوحَكَ ...

وَلَكِنْ « النَّاصِرُ » لَمْ يَسْكُتْ وَلَوْ تَدَخَّلَتْ أُمُّهُ وَصَكَّهَا « الطَّاهِرُ » صَكَّةً هَوَتْ بِهَا عَلَى الْأَرْضِ أَمَّا الْإِخْوَةُ فَإِنَّهُمْ وَرَاءَ الْأَبْوَابِ أَوْ تَحْتَ الْأَيْدِي كَالْفِئْرَانِ الْمُتَرَبِّصِ بِهِمْ قِطٌّ : قُلُوبُهُمْ تَدُقُّ وَأَبْصَارُهُمْ خَاسِئَةٌ يَنْتَظِرُونَ سَقُوطَ الْكَارِثَةِ . ثُمَّ يَهْدَأُ كُلُّ شَيْءٍ وَيَلْبَسُ « الطَّاهِرُ » طَرَبُوشَهُ ، وَيَخْرُجُ وَخَدَهُ ، أَوْ يَأْمُرُ « عَائِشَةَ » بِمَصَاحِبَتِهِ ، وَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ مُتَهَيِّئَةً وَإِلَّا خَرَجَ وَتَرَكَهَا . وَ« الطَّاهِرُ » قَرَّرَ مِنْذُ أَنْ تُوِفِّي « الْفَرِيكَ مُصْطَفَى » أَنْ يُطْلَقَ اللَّبَاسُ الْاِفْرَنْجِي وَيَلْبَسَ الْحَبِيَّةَ التُّونِسِيَّةَ مَعَ الْبِذْعِيَّةِ وَالْأَبْرُسِ وَالطَّرَبُوشِ الْمَجِيدِيِّ .

وَتَصْنِفِيَةُ الْحِسَابِ مَعَ « زُبَيْدَة » تَبْدَأُ ذَاتِهَا بِتَدْمُوعٍ مِنْ فِرَاحِ أَلْبَيْتِ مِنَ اللَّوَاظِمِ
وَيَنْتَهِي بِتَسْأُولِهِ حَوْلَ الزَّائِرَاتِ اللَّوَاتِي ثَانِيْنَ مِنْ حِينَ إِلَى آخَرٍ وَيُقْضَى كُلُّ ذَلِكَ
إِلَى السَّبِّ وَالشَّتْمِ وَالتَّهْدِيدِ ثُمَّ أَلْمَقَاطِعَةُ الْكَلَامِيَّةِ عِنْدَ أَيَّامٍ .

وَعَالِيَا مَا تَخَذْتُ هَذِهِ أَلَهْنَعَاتُ فِي أَلْعَشِيَّةِ قَبْلَ الْمَغْرِبِ بِقَلِيلٍ فَيَتَيَقَّنُ أَهْلُ
أَلْبَيْتِ أَنَّ « الطَّاهِرَ » لَنْ يَعُودَ إِلَّا بَعْدَ مُتَتَصِفِ اللَّيْلِ فَيَنْفَتِحُ عِنْدَ ذَلِكَ « بَابُ
السُّطْحِ » وَتُطْلَقُ « زُبَيْدَة » مِنْ فَوْقِ الْجِدَارِ عَلَى جَارَتِهَا ، وَيَدُومُ الْحَدِيثُ طَوِيلًا لَا
يَقْطَعُهُ إِلَّا عِرَاكُ بَيْنِ الْأَخَوَةِ أَوْ دُخُولُ زَوْجِ الْجَارَةِ .

أَمَّا « عَائِشَة » فَلَمَّا جُؤِهَا هُوَ النَّافِذَةُ لِتُسْرِخَ نَظَرُهَا فِيمَا يَحْدُثُ بِالشَّارِعِ :
فَأَصَوَاتُ الْبَاعَةِ أَلَسْتَجَوِّينَ لَا تَفْتُرُ ، هَذَا يَتَقَوَّلُ بِالزُّعُرُورِ :

- زَعُرُورُ يَا إِلِي الدَّوَايِ أَلْقَلْبُ أَلْمَعْلُورُ .

وَهَذَا « حَلَاوَةُ حُرُوبِ » بَاتِعِ شَرَابِ هَلِوِ الثَّبَتَةِ وَهَرِ مِصْرِي بِقَامَتِهِ الطُّوِيلَةِ ،
وَجُحْتِهِ أَلْعَظِيمَةِ الَّتِي زَادَهَا عِظْمًا مَا يَحْمِلُهُ عَلَى بَطْنِهِ مِنْ إِبْرِيْقٍ ضَحْمٍ مُجَلِّبٍ
بِالْثَّحَاسِ وَخُفُوفٍ بِالْكُؤُوسِ . وَسُمِّيَ « حَلَاوَةُ حُرُوبِ » لِأَنَّهُ لَا يَتَعَرَّفُ عَنْهُ إِلَّا
بِهَذِهِ أَلْعِبَارَةِ عِنْدَ مُرُورِهِ بِالشَّارِعِ :

- حَلَاوَةُ حُرُوبِ ... حَلَاوَةُ حُرُوبِ

وَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ تَلْبِيَّتِهِ رَغْبَةُ الْحَرِيفِ إِلَّا أَنْ يَأْخُذَ الْكَاسَ وَيَنْحَنِي شَيْئًا مَا فَيَذْنَعُ
بَطْنُهُ الْإِبْرِيْقَ وَيَسِيلُ شَرَابُ « الْحُرُوبِ » كَالشَّايِ يَطْفُو عَلَى سَطْحِهِ زَهْدٌ شَهْوِيٌّ .
وَكَمْ كَانَتْ « عَائِشَة » تَتَمَتَّى أَنْ تَشْرَبَ مِنْهُ كَأْسًا وَلَكِنْ دُونَ ذَلِكَ حَرَتْ أَلْفَتَادُ ،
أَوْ شَرَبَ مَاءِ الْحُرُوبِ . إِلَّا « النَّاصِرَ » فَهَوُ يَتَحَيَّلُ ذَاتِيًا لِیُرْضِي رَغْبَاتِهِ وَيَقْصُ
عَلَى أَخِيهِ ذَلِكَ مُتَشَفِّيًا مِنْهَا وَمِنْ وَالِدِهِ . وَيَقُولُ لَهَا :

- أَبُوكَ يَحْمِلُ وَلَكِنَّهُ لَا يُعْطِيكَ مَا تَرْغِبِينَ وَأَنَا أَفُكُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَيْنِي .

- وَجَزَائِكَ « الْمَسْبُطُ » أَمَّا أَنَا فَإِنَّهُ لَا يَرْضَى لِي أَنْ أَشْرَبَ ذَلِكَ الْمَاءَ الْقَلِيلَ .

وَيَجْرُ بَائِعٌ « أُمُ الْفَلَاحِلِ » أَيْضًا وَهُوَ مِصْرِيٌّ وَ « عَائِشَةُ » لَا تُعْرَفُ مِنْ هَذَا
الْبَائِعِ إِلَّا صَوْتُهُ وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تُسَمَّى هَذَا الطَّعَامُ الَّذِي تَطْهُمُ مَرَّةً شَبِيهَا بِالْكَتَابِ
وَمَرَّةً أُخْرَى « بِالْكَفْتَاجِي » وَعَلَى كُلِّ فَهْرٍ يُعَمَّرُ الشَّارِيعُ بِصَوْتِهِ ، وَيَذْفَعُ عَرَبَتَهُ
بِكُلِّ فَنٍّ جَارًا عِبَاءَتَهُ وَرَافِعًا عَقِيرَتَهُ لِلتَّغْنِي بِبِضَاعَتِهِ .

وَيُظْهِرُ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْآخِرِ وَجْهَ « الطَّرَاحِ » وَهُوَ حَامِلُ الْخَبَزِ إِلَى الْفَرْنِ : يَتَرَدَّدُ
عَلَى الدُّورِ الَّتِي لَا تَرْضَى بِخَبْزِ السُّوقِ وَتُفَضِّلُ صَنْعَهُ بِتَفْسِيهَا . وَ « الطَّرَاحُ » فِي
غَالِبِ الْأَخْيَانِ لَا يُعَدُّ رَجُلًا بَائِمٌ مَعْنَى الْكَلِمَةِ إِذْ أَنْ عَمَلَهُ وَصِيعٌ وَيَكُونُ لَهُ عَاهَةٌ
كَالْعَوْرِ أَوْ الْعَرَجِ أَوْ الْبَلَعِ فَيُسْتَحْ لَهُ بِالْدُّخُولِ إِلَى الْمَنَازِلِ وَتَحَاطَبَةِ النِّسَاءِ بِدُونِ
حَرَجٍ . وَلَكِنَّهُ لَا يَتَوَقَّفُ كَثِيرًا بِسَنَدِلِ « الطَّاهِرِ » إِذْ صَوْتُ « الْبَكْوَشِ » يَقْلَعُهُ
قَلْعًا مِنْ أَمَامِ أَلْبَابِ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ النَّادِرِ عِنْدَمَا يَتَوَارَى هَذَا الْحَارِسُ الْأَمِينُ
لِقَضَاءِ بَعْضِ شُؤْنِهِ .

ثُمَّ تَغِيِبُ الشَّمْسُ عَنِ الشَّارِيعِ ، وَتَبْزُغُ الْفَوَانِيسُ الْبَاهِتَةُ ، وَيَغِيْفُ الضَّجِيجُ إِلَّا
صَوْتَ بَادِيُو الْمَفْهَى فَإِنَّهُ أَلْسَحَبُ عِنْدَ الْجَمِيعِ وَهُوَ الزَّائِرُ الْمَفْضَلُ عِنْدَ كُلِّ
الْبَبُوتِ الْمَجَاوِرَةِ ، أَلْعَاجِزَةِ عَنْ شِرَاءِ هَذِهِ آلَاةِ الْجَدِيدَةِ .

وَتَقِفُ « عَائِشَةُ » أَمَامَ هَذِهِ النَّافِذَةِ بَعْدَ تَقْطِيعِ « بَابِ السُّطْحِ » السَّاعَاتِ
الطَّوَالَ لَا تَنْقَطِعُ إِلَّا لِأَكْلِ لُقْمَةِ الْعِشَاءِ مَعَ إِخْوَتِهَا حَوْلَ أَيْتَةِ الطَّعَامِ
الْمُسْتَرْكَةِ .

وَيَسْرَحُ بِخَاطِرِهَا عِنْدَ فَرَاحِ الشَّارِيعِ مِنَ الْمَارَةِ لِيَتَذَكَّرَ طُغُولَهَا فِي قَصْرِ
« الْفَرِيكِ » وَجَرَّتِهَا فِي الْأُبُسْتَانِ بَيْنَ الْأَشْجَارِ وَالْأَزْهَارِ وَسَاعَهَا لِصَوْتِ الْعُودِ
وَعِنَاءِ بَعْضِ الْجَوَارِي فِي حَضْرَةِ سَيِّدَةِ الْقَصْرِ ثُمَّ يَقْطَعُ عَنْهَا شَرِيْطَ ذِكْرِيَاتِهَا
مُرُورَ سَكَرَانَ يَتَأَمَّلُ مِنْ شِدَّةِ السُّكْرِ فَيُغْنِي غِنَاءً نَاشِيزًا وَيَنْطِقُ كَلَامًا نَائِبًا لَا تَفْهَمُ
مَدْلُولُهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَخْيَانِ وَتُضْطَرُّ إِلَى مُغَادَرَةِ النَّافِذَةِ بِنَدَاءِ مُلِحٍّ مِنْ أَمْهَا .

وَعِنْدَمَا يَنْزِلُ السَّطَرُ ثُمَّ يَكْفُ تَقِفُ أَيْضًا « عَائِشَةُ » أَمَامَ الثَّانِيَةِ ، وَقَدْ تَعَوَّدَتْ
عِنْدَمَا كَانَتْ صَغِيرَةً أَنْ تَخْرُجَ بَعْدَ نَزُولِ السَّطَرِ إِلَى الْبُسْتَانِ لِتَلْتَقِطَ الْحَلْزُونَ . أَمَّا
الْيَوْمَ فَهِيَ تَخْرُجُ إِلَى السَّطَرِ لِتَنْتَظِرَ بَعِيَّ حَلْزُونٍ كَبِيرٍ ، حَلْزُونٍ أَدِيمٍ .
لَقَدْ تَعَوَّدَ هَذَا الْحَلْزُونُ أَنْ يَخْرُجَ فِي اللَّيْلِ وَبَعْدَ نَزُولِ السَّطَرِ . هُوَ رَجُلٌ لَهُ
قَامَةٌ طَوِيلَةٌ وَحَيْثُ كُنْتُ فِي الْأَرْبَعِينَ مِنَ الْعُمْرِ ، لَا تَرَاهُ قَائِمًا بَلْ هُوَ يَسْتَنِي كَمَا
تَسْتَنِي الْفَرْدَةُ ، وَهَمُّهُ هُوَ الْبَقَاطُ الْأَوْسَاخُ أَوْ الْقُطُطِ الْمَيْتَةِ أَوْ الْجِرَاءِ الْمَقْتُولَةِ ثُمَّ
الرُّجْحُ بِهَا فِي أَفْوَاهِ الْبَالُوعَاتِ وَهُوَ يَصْبِيحُ مُقْلَدًا الثَّيَرَاتِ الْأُولَى مِنْ تَبَاحِ الْكَلْبِ :
- أَوْ ... أَوْ ... مَا وَقُلْتُ لَكَ : « مَسْكُوكَةٌ » .

وَفِي أَغْلَبِ الْأَحْيَانِ يَكُونُ عَارِيًا وَهَمُّ الْبُرُودِ إِلَّا مِنْ إِزَارٍ لَا يَسْتُرُ عَوْرَتَهُ عِنْدَمَا
يُنْحَضِي لِلْقِيَامِ « بِعَمَلِهِ » ...

وَكَانَتْ « عَائِشَةُ » لَا تَتَمَسَّكُ مِنَ الْبُكَاءِ عِنْدَمَا تَرَاهُ لِأَنَّهَا تَتَذَكَّرُ قِصَّتَهُ : كَانَ
مِنْ الْأَغْنِيَاءِ فَاصَابَهُ الدَّهْرُ بِبَيَالِهِ فَافْقَدَهُ عِيَالُهُ وَمَالُهُ وَعَقْلُهُ وَبَرَكَةُ سِحْرِيَّةِ أَمَامَ
النَّاسِ .

هَذِهِ هِيَ حَيَاةُ الْعَائِلَةِ لَا هُذُوءَ إِلَّا عِنْدَمَا يَكُونُ « الطَّاهِرُ » خَارِجَ الْبَيْتِ أَوْ لَيْلَةَ
الْخَمِيسِ . فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ يَعُودُ « الطَّاهِرُ » إِلَى الْبَيْتِ مُبْكَرًا وَيَتَهَيَّأُ لِسَاعِ حَفَلَةِ
الرُّشِيدِيَّةِ الْآتِيَةِ مِنْ رَادِيُو السَّقْفَى . وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ السُّكُونُ تَامًا ، فَلَا آيَةَ
يُسْمَعُ صَوْتَهَا وَلَا حَدِيثَ يُعَكِّرُ صَفْوَ السَّعَاحِ اللَّهُمَّ إِلَّا دُخُولَ « الْكَرِيمَةِ » إِلَى
« الْفُلْدَى » . وَلَكِنْ صَوْتُ الْعَجَلَاتِ الْمُسْتَلِمَةِ وَالْمَزَلْزَلَةِ لَا يَدُومُ طَوِيلًا مِنْ
حُسْنِ حِفْظِ الْعَائِلَةِ . وَتَرَى « الطَّاهِرَ » عِنْدَمَا يَسُرُّهُ الطَّرَبُ يَضْرِبُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ
ضَرْبَاتٍ خَفِيفَةً مُوقِعًا الثُّوبَاتِ وَالْبِرَاوِلَ وَيُعْطِي بِصَوْتِ خَافِتٍ مَرَّةً وَعَالٍ مَرَاتٍ
مُتَشَابِهًا لِأَصْوَاتِ السَّجْجُوعَةِ .

أَمَّا أَفْرَادُ الْعَائِلَةِ فَكُلُّ لَهُ مَا يَشْغَلُهُ . الْأُمُّ تُغْنِي وَتَقْتَنِي وَصِحَّتُهَا فِي الشُّؤُونِ

السَّخَرِيَّةُ وَالْأَوْلَادَ مِنْهُمْ النَّائِمَ وَمِنْهُمْ الْمُسْتَحْفِي فِي مَكَانٍ مَعَ أَخِيهِ يَضْرِبُهُ أَوْ يُلْكُمُهُ فِي صَنْتٍ غَرِيبٍ خَوْفًا مِنْ تَقَطُّنِ الْوَالِدِ . إِلَّا « عَائِشَةُ » فَهِيَ الْوَجِيدَةُ السَّيَّالَةُ إِلَى السَّاعِ وَالْجَاهِلَةُ فِي دَلَالِ قُرْبِ « الطَّاهِرِ » . وَتَنْتَوِي السَّهْرَةَ بِسَلَامٍ فِي أَغْلَبِ الْأَحْيَانِ ، وَيَدْخُلُ رَبُّ الْعَائِلَةِ إِلَى عَرْفَتِهِ لِيُخْرِجَ « السَّبْيِي » الْمُسْجَلِبَ بِالْفِضَّةِ وَيَتَنَاوَلُ حِصَّتَهُ مِنْ « الثَّكْرُورِي » فِي شِبْهِ ظُلْمَةِ الْعَرْفَةِ . وَهَذَا يَقَعُ فِي غَيْبَوَةِ الْحَشِيشِ فِي صَنْتٍ مُوجِسٍ لَا يَنْقُصُ عَلَيْهِ سُكُونُهُ إِلَّا عَجَلَاتُ « الْكَرَارِطِ » الدَّاجِلَةِ إِلَى الْفَتْنَى .

وَلَمْ تَكُنِ الْعَائِلَةُ فِي عَزَلَةٍ عَمَّا يَجْرِي فِي الْمَدِينَةِ وَخَاصَّةً فِي بَغْضِ الدُّورِ عَلَاوَةَ عَلَى الشَّرِيطِ الْيَوْمِيِّ الْمَعْرُوضِ مِنْ وَرَاءِ « بَابِ السُّطْحِ » فِي الشَّارِعِ : صَحْبُ ، وَغِرَالُ ، وَنِدَاءُ ، وَغِنَاءُ ، وَجَوَارُ بِصَوْتٍ عَالٍ . كَانَ فَرِيقٌ مِنَ الْعَجَائِزِ يَتَرَدَّدُ عَلَى مَنْزِلِ « الطَّاهِرِ » يُبْذُو عَنْ أَفْوَادِ الْعَائِلَةِ الْعَرْفَةَ الَّتِي ضَرَبَهَا حَوْلَهُمْ عَائِلَتُهُمْ . فَهَذِهِ أُمُّ « الطَّاهِرِ » أَصْبَحَتْ تُفَارِقُ قَرِيْبَتَهَا كُلَّ سِتَمَةٍ لِتَقْضِيَّيَ وَقْتَا بَجَانِبِ ابْنَتِهَا فِي ثَوْبٍ وَهِيَ امْرَأَةٌ فِي الشَّابَيْنِ حَتَّكَتْهَا الشَّجَارِبُ وَعَرَفَتْ مِنَ الدَّهْرِ حُلُوهُ وَمَرَّةً وَعَجَمَتِ النَّاسَ وَلَكِنَّهَا لَا حَوْلَ لَهَا وَلَا قُوَّةَ أَمَامَ رُوحِهَا « أَبِي مُحَمَّدٍ » وَابْنَتِهَا « الطَّاهِرِ » . هِيَ قَصِيْرَةُ الْقَامَةِ زَادَهَا ثِقَلُ الْأَيَّامِ قِصْرًا ، مَلَأَ عَلَيْهَا رَقِيْقَةُ وَصِيْعَتُهَا جَيْدَةً تُصْرِفُهَا فِي إِعَانَةِ « رُبَيْدَةِ » عَلَى الْقِيَامِ بِشُؤْنِ الْعَائِلَةِ إِلَّا عَيْتَهَا فَقَدْ أَثَرُ فِيهَا الدَّهْرُ بِأَقَاتِهِ وَأَحْزَانِهِ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا بِصِيصًا تَزِيدُهُ الدُّمُوعُ حُفُوًا وَصَبَابًا .

تَلْبَسُ أُمُّ « الطَّاهِرِ » نَوْعًا مِنَ السَّلَامَةِ تُسَمَّى « التَّحْلِيلَةَ » تُشَدُّهَا إِلَيْهَا « بِالْخِلَالِ » وَتَمْتَنَّقُ بِسَمَلَةٍ وَتَضَعُ عَلَى رَأْسِهَا « قُوْفِيَّةً » كَانَتْهَا قَارِبُ مَقْلُوبٍ وَتَلْبَسُ فِي أَذُنَيْهَا أَحْرَاصًا وَفِي يَدَيْهَا حَوِيدَتَيْنِ مِنَ الْفِضَّةِ ، وَفِي رِجْلَيْهَا أَهْلَاجِلَ .



الأم حفصية

لَمْ تَكُنْ لَهَا مِنْ عَيْنَايَ إِلَّا التَّخْصِيلُ عَلَى « الثَّقَةِ » لِلتَّفْرِيجِ عَلَى النَّفْسِ ،
وَالدَّوَاءِ لِتَطْيِيبِ عَيْنَيْهَا ، وَالصَّرَّةَ لِتَكْبِيرِهَا مَا امْكَنَ لِتَوْزِيعِ مَحْصُولِهَا عَلَى
أَبْنَائِهَا فِي الْفَرِيَّةِ مِنْ ثِيَابٍ ، وَأَيَّامٍ ، وَنَزَرٍ قَلِيلٍ مِنَ الْأَسَالِ .
وَالظَّفَرُ بِهِذِهِ الْكُثُورُ هُوَ سَبَبُ فَرْجِهَا وَانْشِرَاحِهَا ، وَدَعْوَاتِهَا الصَّالِحَةِ ، وَجَكَائِلِهَا
الْحَلَوَةِ ، وَفِكَاهَاتِهَا الْمَتَوَاصِلَةِ . أَمَّا إِذَا انْقَطَعَ رَافِدٌ مِنْ هَذِهِ الرُّوَادِفِ فَإِنَّهَا تَنْصِيبُ
« مِثْلَيْهَا » حِينَئِذٍ عَلَى رَأْسِهَا وَتُخْتِصُّهُ تَحْتَهُ لَا تُكَلِّمُ إِنْسِيًّا وَلَا تَسْمَعُ مِنْهَا إِلَّا شَيْئًا
تُسَبِّحُ لَا يَعْرِفُ السَّامِعُ هَلْ هُوَ بُكَاءٌ أَوْ اسْتِشْقَاقٌ قَوِيَّةٌ لِنَفْسِهَا الْمَعْطَرَةِ .
أَمَّا أُخْتُ « زَيْنَةُ » فَلَا تَذْهَبُهَا الْعَائِلَةُ إِلَّا بِاسْمِ « خَالَتِي » . وَأَصْبَحَتْ تَتَرَدَّدُ
كَثِيرًا عَلَى زَوْجَةِ « الطَّاهِرِ » عِنْدَمَا قَرُبَتْ إِلَى ثَوْنٍ وَاعْتَبَرَتْهَا غَيْرَ هَانِئَةِ الْبَالِ مِثْلًا
كَانَتْ فِي الْقَدِيمِ .

وَهِيَ امْرَأَةٌ لَا يَعْرِفُ شَيْئًا عَنْ عُمْرِهَا إِلَّا أَنَّهَا مَتَقَدَّمَةٌ فِي السَّنِّ ، عَجُوزٌ مَا فِي
ذَلِكَ شَكٍّ وَلَكِنْ خُطَوَاتِهَا تَشْبِهُ كَحُطُورَاتِ امْرَأَةٍ فِي مُقْتَبَلِ الْعُمُرِ ، وَحَرَكَاتِهَا
رَشِيقَةٌ كَالْغَايَةِ الْمُسْتَفْتَحَةِ : أَثَرُ فِيهَا الدَّهْرُ حَتَّى أَصْبَحَتْ جِلْدًا عَلَى عَظْمٍ ، وَأَكَلِ
الزَّمَانِ مِنْ عَيْنَيْهَا فَتَرَهَّلَتِ الْأَجْفَانُ وَتَاكَلَتِ الْأَهْدَابُ وَلَكِنْ فِي نَظَرِهَا بَرِيقًا يَحْيِي
الْمُسْتَفْصَلَ لِهَذَا الْوَجْهِ الشَّيْبِ بِفَرْقِ الْحُرُوبِ .

إِكْتَسَبَتْ مِنْ صُوءِ جَسَدِهَا أَمَامَ آفَاتِ الزَّمَانِ إِزَادَةً فُلُؤَافِيَّةً ، وَصَوْنًا لِحَاسِيَّهَا ،
وَلَسَانًا قَرِيبًا لَهُ وَقَعُ السُّوْطِ فِي لَدَغَتِهِ . لَا تُتَكَلَّمُ إِلَّا لِتُصَدِّرَ أَمْرًا ، أَوْ تُقَوِّمَ مَغْفُوجًا ،
أَوْ تُؤَلِّبَ مَخَالِفًا أَوْ تُسَبِّ مُشَاكِسًا أَوْ تُسْتَقِيمَنَّ بِضَعِيفِ هَادِي الطَّنْبِ .

فِي بَيْتِهَا ، هِيَ رَبَّةُ الْعَائِلَةِ ، الْأَمْرَةُ النَّاهِيَةُ ، تَقُودُ زَوْجَهَا وَأَبْنَاءَهَا وَبَنَاتِهَا كَمَا
يَقَادُ الْعَمِيدُ ، وَتَهْلِكُ فَلَا يَشْكُو أَحَدٌ ، وَتُدَلُّ الْمُنْتَحِيلَ وَالْمَرَاوِعَ فَلَا يُشْعِرُهَا قَرْدٌ مِنْ
الْعَائِلَةِ بِتَنَكُّبِهَا عَنْ أَصُولِ التَّرْبِيَةِ أَوْ الْإِبْنَاءِ الْعَدَالَةِ .

إِكْتَسَبَتْ هَذَا الطَّنْبَ أَخَذًا مِنَ الْمَعْمَرِ الَّذِي سَلَّمَ لَهَا الضَّيْعَةُ الصَّغِيرَةُ

الْمُحِيْمَةُ فِيهَا هِيَ وَأَوْلَادُهَا ، وَشَرَطَ عَلَيْهَا أَلَّا تَنْصَرِفَ فِي الْعَمَلَةِ إِلَّا بِأَسْلُوْبِهِ
فَأَطَاعَتْهُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ مُكْرَهَةً مُتَذَمَّرَةً ضَمَانًا لِلْقَسَةِ الْغَيْشِ ثُمَّ ارْتَبَحَتْ لِهَذَا
الدُّوْرِ ، وَتَعَوَّدَتْ الطَّاعَةَ الْغَمِيَاءَ مِنَ الْغَيْرِ .

عِنْدَمَا تَسْمِي فِي الطَّرِيقِ وَهِيَ مُلْتَحِفَةٌ «بِالسُّفْسَارِي» لَا «عَجَازَ» الْعَجَازِ
يَلْتَقِئَتْ إِلَيْهَا السَّارَةُ مُعْجَبِينَ بِرِشَاقَتِهَا ، وَمِشِيَّتِهَا الْمُسْتَعْجِلَةِ . وَكَمْ مِنْ مَرَّةٍ
يُسَافِرُهَا أَحَدُ الْخَبَاءِ مِنْ أَهْلِ الدَّعَاوَةِ وَوَرَاهُ أَحْدَانُهُ يَنْتَظِرُونَ الْغِيْمَةَ فَتُغْرِيهِ
بِإِطَاعِهِ فِيهَا حَيْثَا مِنَ الزَّمَنِ ثُمَّ تَكْثِيفُ لَهُ بَعْنٍ وَجْهَهَا فَصَبِيحٌ مَذْعُورًا :
عَجُوزٌ ... عَجُوزٌ ... وَاللَّهِ عَجُوزٌ ! وَتَنْهَالُ عَلَيْهِ سَبًّا وَشَتًّا وَلَعْنًا وَتَحَاوِلُ الْأَحْذَ
بِتَلَايِيْبِهِ فَيَمُوتُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا رَاحِيًا مِنَ الْغِيْمَةِ بِالنَّظَرِ إِلَى الْوَجْهِ الْقَبِيحِ وَسَاعِ
فَاجِشِ الْقَوْلِ .

وَهِيَ ، إِنْ دَخَلَتْ بَيْتَ «رُبَيْدَةَ» فَلِلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَقَوْلِ «الْحَقِّ» كَمَا يَحُلُّوهَا
تَأْكِيْدُهُ ، فَهِيَ لَا تَرَى فِي الْبَيْتِ غَيْرَ الْأَعْوِجَاجِ فِي الْأُنْثَى وَالْيَبَادِ إِلَّا مَعَ
«الطَّاهِرِ» فَهِيَ لَا تَنْدِرِي لِمَاذَا لَا تَسْلُكُ مَعَهُ نَفْسَ السُّلُوكِ ؟ وَلَكِنَّهَا تَحَاوِلُ أَنْ
تَقُولَ مَعَهُ «الْحَقُّ» مَرَاوِعَةً مَا أَمَكَنَ لَهَا الْمَرَاوِعَةُ وَلَعَلَّهَا كَانَتْ تَتَيْقِنُ أَنْ
«الطَّاهِرِ» لَا يَسْتَنْكِفُ مِنْ طَرْدِهَا مِنَ الدَّارِ وَجِرْمَانِهَا مِنْ رُؤْيَا أَحْنِيهَا .

كُلُّ مَا تَشْرَبُهُ مِنْ شَرَابٍ فَهُوَ مَاسِطٌ أَوْ مَرَأُولاَ طَعْمٌ لَهُ وَلَا لَكَهَةٍ وَمَعَ هَذَا فَهِيَ
لَا تُحْسِنُ الطَّيْعَ وَلَا تَقُومُ بِشُؤْنِ السَّنَدِلِ مَهْمَا وَاجَهَتْهَا الطُّرُوفُ . لَقَدْ حَلَقَهَا اللَّهُ
وَعَلَّمَهَا السُّعْمَرَ أَنْ تَكُونَ الْأَمِيرَةَ وَالنَّاهِيَةَ لَا غَيْرَ .

و «دُوجَةُ» الْمَلَكَةُ صَبِيحَةٌ فِي سَنَوَاتِ الْخِصْبِ ، اضْطَرَّتْ بَعْدَ ثَلَاثِي قَصْرِ
الْفَرِيكِ إِلَى الْعَمَلِ فِي مَعْمَلٍ «لِلْكُسْكُمِي» عِنْدَ مُعْمَرٍ وَإِلَى السُّكْنَى هِيَ
وَأَوْلَادُهَا فِي كُنُوزٍ بِسْتَارِفٍ بَارِزٍ وَإِلَى الرُّجُوعِ إِلَى لِيَاسِيهَا الْبَدْوِيِّ الْقَدِيمِ .
أَصْبَحَتْ «دُوجَةُ» لَا تَأْتِي إِلَّا فِي الْقَلِيلِ النَّادِرِ إِلَى «رُبَيْدَةَ» وَتَدْخُلُ بَابَ

الدَّارِ وَالْأَكَاثُ مُتَّبِعَةٌ مِنْ صَدْرِهَا وَالظُّهُرُ مَنَحْنُ وَالْخُطَوَاتُ وَبَيْدَةُ يَحَالُهَا الشَّاطِرُ
 أَنَّهُا سَتَمُوتَ غَدًا أَوْ أَنَّ مُصِيبَةً نَزَلَتْ عَلَيْهَا فِي يَوْمِهَا .
 وَإِذَا هِيَ رَجَعَتْ لَهَا أَنْفَاسُهَا ، وَشَرِبَتْ قَهْوَتَهَا وَأَكَلَتْ نَصِيبًا مِنَ الزَّيْتِ وَالْخُبْزِ
 وَالزُّيْتُونِ تَفَشَّتْ فِيهَا الْحَيَاةُ بِسُرْعَةٍ مُذهِشَةٍ وَرَجَعَتْ إِلَى حَيَوِيَّتِهَا وَتَهَضَّتْ بِعَمَلِ
 أَيَّامٍ مِنْ غَسَلٍ وَصَفَلٍ وَغَيْرِهَا ثُمَّ قَصَّتْ قِصَصَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِمَّا يَرُوعُ
 الصَّغَارَ وَالْكِبَارَ ، وَيَبْعَثُ الرُّعْبَ فِي الْقُلُوبِ ، فَيَتَرَفَّعُ مِنْ أَمَامِهَا مَنْ نَجَا بِتَقْوِيهِ
 وَيُنْتَجِي إِلَى الصَّرَاحِ مَنْ بَقِيَ فِي قَبَضَتِهَا .

وَأَمَّا « غَزِيرَةُ » ، وَهَكَذَا تَدْعُوهَا الْعَائِلَةُ ، نازعةٌ مِنْهَا يَأَةُ النَّسَبَةِ ، وَرَامِيَةٌ بِهَا
 إِلَى الْغَيْرِ ، مَلْجُؤُهَا فِي ذَلِكَ كَافُ الْمَخَاطِبِ ، هِيَ لَيْسَتْ مِنْ فَصِيلَةِ الْإِنْسَانِ وَلَا
 الْحَيَوَانِ ، هِيَ بَيْنَ بَيْنٍ ، أَخَذَتْ مِنَ الْإِنْسَانِ الْقُدْرَةَ عَلَى الْقُوفِ عَلَى سَاقَيْنِ ، وَمَلَكَتْ
 الْكَلَامَ ، وَلَكِنْ مِنَ الْأَكْثَرِ فَقَط . وَاسْتَعَارَتْ مِنَ الطَّيْرِ الْجَوَارِحِ قُوَّةَ الْبَصَرِ وَجِدَّةَ
 وَاسْتِدَارَةِ الْحَذَقِ . وَاسْتَعَاهَذَتْ عَنِ الْحَنْقَارِ بِأَنْفٍ مُدْبِجٍ بِطَرَفِهِ شَعْرَةٌ قَوِيَّةٌ فِي
 مَضَايِ الْأَسْبَلِ يَكَادُ يَلْتَقِي بِذَقَنِ غَارٍ مِنَ الْأَكْثَرِ فَشَاكَلَهُ اسْتِزْفَاقًا وَصَلَابَةً شَغَرِ ،
 أَمَا أَلْجِئِينَ فَلَا جِئِينَ وَقَاءَ رُئْسًا لِلْقُرْدِ جَدَّ الْإِنْسَانِ ، وَالْوَجْتَانِ ، فَحَدَّثَ عَنْ غُورٍ مِنْ
 الْأَغْوَارِ فِي صُورَةِ اللَّقْمِ غَيْرِ وَاضِحَةٍ ، وَاللَّحْيَةِ ، لِأَنَّهَا لَحْيَةٌ وَيَا لِلْقَرَابَةِ ! فَهِيَ
 بِلَحْيَةِ النَّيْسِ أَشْبَهُ ، وَالْيَدَانِ ، فَالْسَيْنَهُمَا - وَأَعْرَبُ مَا فِيهِمَا الْأَصَابِعُ - إِلَى مَخَالِبِ
 جَارِحٍ مِنَ الْجَوَارِحِ . أَمَا الْبَشَرَةُ فَهِيَ لَيْسَتْ بِالسُّودَاءِ وَلَا السَّرَّاءِ وَلَا الْبَيْضَاءِ
 وَإِنَّمَا لَهَا مِسْحَةٌ مِنْ سَوَادِ الْقُدُورِ .

وَأَمَّا « غَزِيرَةُ » ثَلِثُ الْبَاسِ الْبَدَوِيِّ الَّذِي لَا يَكْشِفُ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْبَدَنِ ،
 وَحَسْبُكَ مِنَ الْوَجْهِ عَيْتَةُ تَكْثِيكَ مَغْبَةِ الْفُضُولِ . وَلَوْ تَنَبَّهَ الْعُلَمَاءُ لِهَلَاكِ الْفَصِيلَةِ
 الْفَرِيدَةِ لِاسْتَرْوَاهَا بِالنَّهْلِ الْقَوِيرِ . وَلَوْ وَضَعُوهَا فِي مَنَحَفٍ مِنْ مَتَاجِفِ الْعَالَمِ أَوْ
 غَطَّيَ لِلْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ لَكَانَتْ سَبَبًا فِي تَسْوِيدِ الْأَلْفِ الْمَوْلُفَةِ مِنَ الْأَوْزَاقِ .

وَلَا تَزْنَقُ مِنْهَا أَلْسِنَاتُ مِنْ عِبَالِ السَّطَاحِ ، وَازْدَهَرَ النُّشْرُ فِي الْعَالَمِ وَخَرَجَتْ
الصَّعَافَةُ مِنْ أَرْصَتِهَا . وَلَكِنَّ الْعَالَمَ فِي غَفْلَةٍ عَنْهَا وَهِيَ الَّتِي تَحْرُكُهُ فِي سُرْعَةٍ فَائِقَةٍ
وَيُدَوِّنُ انْقِطَاعَ كَرَوَاقِصِ السَّاعَةِ بَيْنَ السَّطَاحِ وَالنُّقْطِ الْأُخْرَى مِنَ الْبَيْتِ : هَذِهِ
قَهْوَةُ تُطْبَخُ فِي لَسَنَةِ الْبَصَرِ وَتُعْرَضُ فِي كَأْسِ مَسْمُوكٍ بِقَبْضَةِ الْيَدِ وَمَسْدُودٍ
بِوَاسِطَتِهَا الْمَغْمُوسَةِ إِلَى الظُّفْرِ ثَدَائِبُ الْمَشْرُوبِ اللَّذِيذِ . وَهَذَا فَلَقْلُقُ مَقْلُ
يُسْمَعُ تَشْيِيشُهُ وَيُخَضَّرُ فِي بَرْهَةٍ مِنَ الزَّمَنِ وَجِيذَةٍ ، وَهَذِهِ بَطَاطَا تُقَطَّعُ بِسُرْعَةٍ
الْبَرَقِ وَتُرْمَى فِي الزَّيْتِ الْمَسْتَنَائِرِ إِلَى السَّقْفِ . وَهَكَذَا اخْتَصَّتْ أُمْلَكُ « عَزِيْزَةٍ »
فِي الطَّبْخِ السَّرِيعِ وَلَرَبَّمَا النُّظِيفِ وَهَذَا يَحْتَاجُ إِلَى تَجَرِبَةٍ وَبُرْهَانٍ .

غَيْرَ أَنْ أَكْثَرَ الصِّفَاتِ الَّتِي بَرَزَتْ بِهَا الْإِنْسَانُ وَالْحَيَوَانُ هِيَ تَرْوِيدُ الْكَلَامِ
وَالسَّحَاكَةِ وَهِيَ بِهَذَا دَلَّتْ عَلَى إِجْدَادِهَا مِنْ فَصِيلَةِ الْفَرِدِ وَالْبَيْغَاءِ . وَلَعَلَّهَا اخْتَدَتْ
كُلَّ مِيزَانِهَا أَفْخَافِيَّةً وَأَخْطَلِيَّةً مِنْ هَذَا الطَّائِرِ إِلَّا زِينَةَ رِيَشِهِ أَوْ عَفْوًا هِيَ لِلثَّوْمَةِ
أَقْرَبُ وَبِهَا الْوَسَقُ ، وَاعْلُزُونِي إِذَا أَنَا لَمْ أَمْلِكْ قَلْبِي فِي هَذَا الْوَصْفِ وَلَمْ أَدْقُقْهُ ،
وَلَمْ أَكُنْ فِيهِ مُوقِفًا نَظَرًا إِلَى أَنَّ « أُمْلَكُ عَزِيْزَةٍ » حَازَتْ فِي حُطُوطِ أَوْلِيَّتِهِ سَرِيعَةً كُلَّ
مَا انْصَفَ بِهِ الْإِنْسَانُ وَالْحَيَوَانُ . وَلَعَلَّهَا تَذَكِيرُ مُعَاصِرٍ مِنَ الطَّبِيعَةِ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ
أَصْلُ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ .

فَهِيَ تُمَاشِي مَخَاطِبَهَا فِي الْكَلَامِ وَطَبِيعُهُ إِلَى أَنْهَدِ حُدُودِ الطَّاعَةِ وَتَذَهَبُ مَعَهُ إِلَى
مَسَارِفِ الْوَهْمِ وَالْإِهْيَامِ بِمَا يُحْيِرُ كُلَّ عَاقِلٍ . فَإِنْ أَنْتِ أَوْهَمْتَهَا أَنَّ الْإِلَهَ أَمَامَهَا هُوَ
الْأَيُّ بِتَقْسِيهِ فَإِنَّهَا بَعْدَ بَرْهَةٍ تَعْتَقِدُ أَنَّهُ وَاقِفٌ فَتَقُومُ بِإِدْرَافِهِ لَاتِقًا بِمَقَامِهِ . وَإِنْ أَنْتِ
أَوْهَمْتَهَا أَنَّهَا أَمَامَ زَوْجِهَا الَّذِي طَلَّقَهَا بِالثَّلَاثِ فَهِيَ لَا تَلْبِثُ أَنْ تَرْتَقِيَ فِي عَيْقِكَ
وَتَدْعُوكَ إِلَى الْقِيَامِ بِوَاجِبِكَ الزَّوْجِيِّ ، وَحَذَارِ أَنْ تَتَمَلَّصَ مِنْ ذَلِكَ ، فَسُرْعَةَ الْإِهْيَامِ
يُعَاقِبُهَا بِطَمَ فِي نَزْعِ مَا عَلِقَ بِالذَّهْنِ . وَهِيَ لَا تَقْلَعُ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا بِقَهْوَةٍ مِنْهَا أَوْ
طَبِخَةٍ سَرِيعَةٍ تَوْثُرُ بِتَهْيِئَتِهَا .



الربيع والشتاء

حياة

وَالْأُمُّ « حَفْصِيَّة » وَهِيَ الْعَجُوزُ الْخَامِسَةُ لَمْ تَدْخُلِ الْمَنْزِلَ إِلَّا بِفَضْلِ ابْنَتِهَا « سَكِينَةَ » الَّتِي عَزَلَهَا « الطَّاهِرُ » فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ وَهِيَ مُعْتَاجَةٌ إِلَى قَضَاءِ شَأْنٍ مِنَ الشُّؤُونِ فِي إِدَارَةِ السَّالِ ، فَسَاعَدَهَا عَلَى ذَلِكَ ، وَهِيَ مِنْ قَرِينَتِهِ تَحْتُ إِلَيْهِ بِغَضِ الْقَرَابَةِ وَهِيَ الْأَزْمَلَةُ الْمُسْتَحْفِظَةُ بِجَهْلِهَا رَغْمَ ابْنَتَيْهَا الثَّلَاثَةِ الْكِبَارِ .

تَعَوَّدَتِ الْأُمُّ « حَفْصِيَّة » هِيَ وَابْنَتُهَا التَّنْقُلُ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ ، وَتُدَوِّمُ ضِيَّافَتَهَا عَلَى حَسَبِ مَا يَمْتَنِّيه الْحَالُ ، وَهِيَ عَجُوزٌ قَصِيرَةٌ الْقَامَةِ ، مُدَوَّرَةُ الْوَجْهِ ، دَرْدَاءُ الْقَلَمِ ، يَلْتَقِي فَمُهَا مَعَ ذَقْنِهَا فِي احْتِشَامٍ قَلِيلٍ ، وَلَمْ يَبْقَ لَهَا مِنَ الشَّبَابِ إِلَّا مِيزَانٌ : صِحَّةُ الْعَيْنِ وَالْإِفْرَاطُ فِي الْأَكْلِ رَغْمَ ضَيَاعِ الْأَسْنَانِ ثَنَائًا وَرَبَاعِيَاتٍ وَنَبَاتًا وَطَوَاجِنَ . وَلَكِنَّهَا حَفِظَتْ مِنَ الْخُرَافَاتِ مَا يَحَارُ لَهُ اللَّبُّ وَهِيَ تَحْكِيهَا عِنْدَمَا يَثْرُكُ لَهَا الْعَجَائِزُ الْآخِرِيَّاتُ الْمَسْرُوحُ فَارِعًا مُتَرَشِّفَةً قَهْوَةً فِيهَا لُقْمَةٌ مُتَرْجِرَةٌ مِنَ السَّمَنِ .

أَمَّا « سَكِينَةُ » ابْنَتُهَا فَهِيَ الْبَارِعَةُ فِي الْكَلَامِ الْوَاجِدَةُ ذَائِبًا ذَرِيعَةً لِدُخُولِ الدَّارِ طَالِبَةً مِنَ الطَّاهِرِ مُسَاعَدَةً لِلتَّدْخُلِ لَدَى مَسْئُولٍ فِي هَذِهِ الْإِدَارَةِ أَوْ تِلْكَ . وَهِيَ لَا تَفْتَأُ ، عِنْدَ رُجُوعِ « الطَّاهِرِ » إِلَى الْمَنْزِلِ تَتَوَسَّلُ إِلَيْهِ ، وَتَعْرِضُ لَهُ عَلَى مَرَأَى وَمَسْمَعٍ مِنْ « زُبَيْدَةَ » وَتَقْضِي فِي تَقْبِيلِ الْقَبْلَاتِ الْحَارَّةِ الْبَرِيَّةِ فِي الطَّاهِرِ ، الْأَخَوِيَّةَ طَبْعًا ، فَيَلِينُ جَانِبُ « الطَّاهِرِ » وَيَعِدُّهَا الْوَعْدَ الْكَثِيرَ وَتَتَرَقَّصُ عَيْنَاهُ شَهْوَةً فَتَقِرُّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَتَتَرَكُّهُ كَالْفَرَسِ الْفَعْلِ قَدْ كَبَّحَ جِمَاحُهُ .

وَلَكِنَّهَا ، بَعْدَ خُرُوجِ « الطَّاهِرِ » تَتَنَزَّرُ وَتَصِيرُ الْأَمْرَةَ ، النَّاهِيَّةَ فِي الْبَيْتِ تَوَدُّبُ الصِّغَارِ ، وَتَحْرِمُهُمْ مِنَ الْخُبْزِ وَالْخُلُوصِ وَتُلَوِّمُ « زُبَيْدَةَ » عَلَى إِسْرَافِهَا ، وَتُذَوِّبُهَا ، وَتَصْنُحُ كَأَنَّهَا صَاحِبَةُ الْبَيْتِ .

وَإِذَا كَانَ جَمْعُ هَؤُلَاءِ النِّسَاءِ الْمُسَيَّاتِ مُتَفَرِّقًا أَثْنَاءَ النَّهَارِ فَإِنَّهُ لَا تَأْتِي الْعَشِيَّةُ حَتَّى يَلْتَقِيَتْ بِجُلُوسِ الْعَجَائِزِ فِي بَيْتِ الْقَطُورِ إِلَى الْخُرُوجِ الْآخِرِ مِنَ اللَّيْلِ ، فَهُنَّ إِلَى الذِّكْرِيَّاتِ وَالْخُرَافَاتِ مَا دَامَ الْأَوْلَادُ مُسْتَيْقِظِينَ ثُمَّ إِلَى الْخِصَامِ أَوْ الْحِسْكَانَاتِ

الشَّبَقِيَّةَ وَالْحَرَكَاتِ الْمُرِيَّةِ بَعْدَ نَوْمِ الصَّغَارِ . وَكَانَ « الطَّاهِرُ » يُشْجَعُهُنَّ عَلَى ذَلِكَ إِذَا قَرَّرَ السَّهَرُ فِي الْبَيْتِ وَخَدَّتُهُ نَفْسُهُ بِقِلِّ وَطَرٍ مِنْ « سَكِيلِهِ » الَّتِي كَانَتْ تَتَمَنَعُ جِيَالَهُ وَتُحَدِّثُ نَفْسَهَا بِتَنْفِيذِ حُطَّةٍ بَعِيدَةٍ الْمَدَى .

ثُمَّ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ تَفْتَرِشُ الْعَجَائِزُ مَا وَجَدَتْهُ مِنَ الْفِرَاشِ وَتَتَمَنَّى الْوَاحِدَةَ جِذْوِ الْأُخْرَى وَكَأَنَّهُنَّ خَرَجْنَ مِنْ مَعْرَكَةٍ حَرِيْبَةٍ ضَارِبَةٍ وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُنَّ الثَّعْبُ وَلَيْسَ لِهُنَّ مِنْ أَمَلٍ إِلَّا التَّجَارِي فِي الْقِيَامِ مَبْكِرًا لِلطُّفْرِ بِأَكْلِهِ أَكْبَرَ وَأَدْسَمَ .

هَكَذَا تَعِيشُ الْعَائِلَةُ حَيَاةً مَفْرُوضَةً عَلَيْهَا فَرَضًا ، لِأَنَّ « رُبَيْدَةَ » أَصْبَحَتْ كَأَنَّهَا الْحَاصِرَةُ الْعَائِلَةَ لَا يَمْنَحُهَا مِنْ أَحْيَاؤِ شَيْئًا إِلَّا سَيَرَهَا كَمَا اتَّفَقَ وَجَرِيَانُهَا عَلَى حَسَبِ مَشِيقَةِ أَيْ كَانُ وَجِدَ فِي الْبَيْتِ . وَمَا هِيَ قِيَسَةُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْعَيْشِ فِي قَصْرِ « الْفَرِيكِ مُصْطَفَى » وَقَدْ ضَاعَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ .

أَمَّا « عَائِشَةُ » وَهِيَ الَّتِي لَا حَوْلَ لَهَا وَلَا قُوَّةَ فِي هَذَا الْخِصْمِ فَلَقَدْ لَجَّتْ إِلَى « بَابِ السُّطْحِ » لَا تَسْمَعُ مِنْ أَحْبَابِ الْمَنْزِلِ إِلَّا الْقَلِيلَ وَلَا يَنْهَيَانَهَا مِنَ الْقِيَامِ بِشُؤُونِ الْمَنْزِلِ إِلَّا الْهَيْئُ الطَّيِّفُ . وَلَكِنَّهَا كَانَتْ دَائِمًا حَرِيْبَةً عَلَى سَمَاعِ الْعَجَائِزِ وَحَفِظَ أَحْبَابُهَا وَالشَّجَسُ عَلَيْهِنَّ أَثْنَاءَ حِكَايَاتِهِنَّ الشَّبَقِيَّةِ .

وَلَكِنْ « عَائِشَةُ » كَانَتْ قَحْرُصُ عَلَى سَمَاعِ شَيْخٍ يَنْضَمُّ إِلَى مَجْلِسِ الْعَجَائِزِ هُوَ « أُبَيْكُ صَالِحٌ » . وَهَوَاؤُهُ « الطَّاهِرُ » كَثِيرٌ فِي السَّنِ تَعَوَّدَ أَنْ يَأْتِيَ إِلَى ثُونَسَ مِنْ حِينَ إِلَى آخَرٍ وَخَاصَّةً فِي الصَّيْفِ . وَيَلْذُّ لَهُ أَنْ يَتَمَدَّدَ فِي الْعَشِيِّ فِي فَنَاءِ السُّطْحِ وَيَضَعُ أَمَامَهُ مَا يُسَمِّيهَا « جَيْشَهُ » وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْفِلَالِ الْمَصْطَفَةِ مِنْ ثَفَاحٍ ، وَإِجَاصٍ وَغَضَبَاتٍ مِنَ الثَّغْنِ وَالْحَبَقِ ثُمَّ يَنْصُبُ « الْمَعْدَ وَخُرُجَ » الْبَشَقِيَّ وَيَبْذَأُ فِي تَرْقِيقِ الشُّكْرُورِيِّ (سَوْعٍ مِنَ الْحَشِيشِ) عَلَى صُورَةِ رَكَايِبِ إِنْسَالِهِ . ثُمَّ يَسْتَلُّ مِنْ جَيْبِهِ « سِهْنِيَا » وَيُعْبِئُ فَوْقَهُ حَشِيشًا وَيُسْنِعِلُهُ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ تَنْحَلُّ عُقْدَةُ لِسَانِهِ ، وَيَخْجَكِي لِلصَّغَارِ رَحَلَاتِهِ الْقَبِيْمَةَ وَمُحَاوَلَاتِ

قَتْلِهِ مِنْ قُطَاعِ الطَّرِيقِ فِي مَسِيرَتِهِ إِلَى الْحَجِّ وَتَجَاتِهِ بِأَعْجُوبَةٍ مَرَّاتٍ عَدِيدَةٍ .
وَهُوَ فِي هَذِهِ الْقِصَصِ يُبَالِغُ وَيَخْتَرِعُ وَلَكِنَّهُ لَا يَبَالِي بِذَلِكَ وَالْأَطْفَالُ أَنْفُسُهُمْ
يُسَبِّحُونَهُ عَلَى هَذِهِ النَّزْعَةِ الْخَيَالِيَّةِ ثُمَّ يَسْكُتُ قَلِيلًا وَيَتَتَوَلَّى إِلَى الْغَنَاءِ فَيَقْنِي :
« ذَقَنْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَانِ فَجَاوَبَنِي وَرَقُ الثَّوْتِ

وَقَالَ لِي : حَبِيبُكَ يَوْمَ الْخَمِيسِ يَمُوتُ » .
وَفِي الْأَغْنِيَةِ الْوَحِيدَةِ الَّتِي يَرُدُّهَا دَائِبًا وَثَنِيَّةً بِنَهَايَةِ الْخِصَّةِ . ثُمَّ يَسْكُتُ
وَيَطْرُدُ عَنْهُ الْأَطْفَالُ وَلَا يُطِيقُ أَيُّ إِزْعَاجٍ .

وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ بَيْنَمَا كَانَتِ الْعَائِلَةُ مُتَصَرِّفَةً إِلَى شَوْنِهَا وَالْبَابُ يَطْرُقُ
لِتَدْخُلَ عَجُوزٌ مِنْ تِلْكَ الْعَجَائِزِ إِذْ يَوَالِدُهَا يَصْنَعُدُ الدَّرَجَ لَاهِقًا وَيَقُولُ :
- الْحَرْبُ أَتَتْ إِلَى ثُونَسْ .

وَتَغْيَرُ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ كُلُّ شَيْءٍ . فَلَقَدْ أَحَسَّتِ الْعَائِلَةُ بِفَقْدَانِ الْمَوَادِّ الْغِذَائِيَّةِ
الضَّرُورِيَّةِ وَعَرَفَتِ التَّفْسِيطَ فِي كُلِّ شَيْءٍ : فِي الْخُبْزِ وَالشَّايِ وَالْقَهْوَةِ وَكُلِّ مَا لَمْ
يَكُنْ لِيَحْسُ بِوُجُودِهِ أَحَدٌ مِنْ قَبْلِ نَظَرِهَا إِلَى الرَّخَاءِ النَّسَبِيِّ الْمُنْجَرِّ عَنْ مُرْسَبِ
« الطَّاهِرِ » وَكَثْرَةِ أَوْلَادِهِ وَارْتِفَاعِ الْمُنْحَةِ الْغَائِلِيَّةِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ .

وَأَحَسَّتِ الْعَائِلَةُ بِالْجُوعِ نِسْبًا وَهِيَ شُعُورٌ لَمْ تَكُنْ لِتَعْرِفَهُ « زُبَيْدَةُ » وَلَا
« عَائِشَةُ » وَلَا الْأَوْلَادُ . وَتَقْنَنَ « الطَّاهِرُ » أَنْ كَثْرَةَ السَّالِ وَقَلَّتُهُ لَا تُفِيدَانِ لَا قَلِيلًا
وَلَا كَثِيرًا لِأَنَّ أَلْسِنَهُمْ هُوَ إِجْبَادُ الْمَوَادِّ الْغِذَائِيَّةِ وَحَتَّى السُّوقِ السَّوْدَاءِ فَهِيَ عَادُودَةٌ
الْإِمْكَانِيَّاتِ لِإِفْقَادِ الْمَقْنُونَاتِ الضَّرُورِيَّةِ لِلْحَيَاةِ .

شُعُورٌ بِالْجُوعِ وَبِالْخُرْمَانِ لَمْ تَكُنْ « زُبَيْدَةُ » لِتَحْسِبَ لَهُ جِسَابًا مِنْ قَبْلِ بَلِّ إِنِّهَا
لَمْ تَتَصَوَّرْ وَجُودَهُ بِهَذَا أَلْعَنُفِ الْمُدْمَرِ الَّذِي يَجْعَلُهَا تَرْفَعُ يَدَيْهَا أَمَامَ الْعَجَائِزِ لِتَقُولَ
لَهُنَّ :

- لَا قَهْوَةَ وَلَا شَايَ وَلَا سَكَّرَ وَلَا ...

وَأَحْسَبَتِ الْعَائِلَةُ أَيْضًا بِشَيْءٍ آخَرَ هُوَ الْخَوْفُ مِنَ الْمَوْتِ ، لَا الْخَوْفُ مِنَ « الطَّاهِرِ » وَمِنْ هِيَئَاتِهِ فَهِيَ لَا تُقْبَلُ وَلَا تُفْنَى بَلْ الْخَوْفُ مِنْ سَقُوطِ الْبِنَايَةِ كُلِّهَا .
مَرَّتَانِ فِي الْيَوْمِ نَحْسُ الْعَائِلَةِ هَذَا الْإِحْسَاسُ : فِي الْحَادِيَةِ عَشْرَةِ مِنَ الصَّبَاحِ
وَفِي الثَّاسِعَةِ أَوْ الْعَاشِرَةِ لَيْلًا .

فَفِي الصَّبَاحِ تَسْمَعُ الْعَائِلَةُ فَوْقَهَا دَوِيًّا يَزْحَفُ زَحْفًا ، تَرْتَجُّ لَهُ الْبِنَايَةُ وَتَسُوجُ
كَأَنَّهَا مَرْكَبٌ تَتَقَادَفُهُ اللَّجَجُ ثُمَّ تَتَلَوُ ذَلِكَ أَصْوَاتُ الْمَدَافِعِ الْمُسْتَادُّو لِلطَّائِرَاتِ
وَهِيَ تَتَّبِعُ بُنَاحًا مُتَكَرِّرًا تَطِيرُ لَهُ الْقُلُوبُ مِنَ الصُّدُورِ .

وَبَعْدَ بَرْهَةٍ تَطُولُ أَوْ تَقْصُرُ يُسْمَعُ هَزِيمٌ كَهَزِيمِ الرُّعْدِ وَلَكِنَّهُ أَشَدُّ وَأَفْوَى
تَنْزَلُ بِهِ الْأَرْضُ زَلْزَالًا وَتَتَحَرَّكُ لَهُ فِي الْبَيْتِ الْفَوَائِيسُ وَتَتَنَاطَحُ الْكُؤُوسُ
وَالْأَوَانِي ، وَتَعْتَالَى عِنْدَ ذَلِكَ أَصْوَاتُ الصَّغَارِ بِتِلَاوَةِ آيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ وَتَقِفُ فِي
الْحُلُوقِ دَعَوَاتُ الْكِبَارِ وَتَنْظُرُ الْعُيُونُ شَاحِصَةً إِلَى السَّمَاءِ فِي الْإِظْطَارِ سَقُوطِهِ .

لَقَدْ حَرَّمَ « الطَّاهِرُ » عَلَى الْعَائِلَةِ أَنْ تَخْرُجَ إِلَى الْحَتَائِقِ الْمَحْفُورَةِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ
صَفَارَاتِ الْإِنْدَارِ وَحُرُصِ الصَّغَارِ عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ ، وَاعْتَقَدَ الْجَمِيعُ أَنَّ اللَّهَ حَظَّيْهُمْ
مِنْ شَرِّ الْقِتَابِلِ الَّتِي كَانَتْ تَسْقُطُ قَرِيبًا مِنَ الْبِنَايَةِ مَرَّةً بِبَابِ الْعُلُوجِ وَأُخْرَى
« بِخَوَانِتِ عَاشُورَ » وَبِسِيْدِي « الْبَشِيرِ » . وَكَانَتْ الطَّائِرَاتُ تَأْتِي عَالِيَةً وَتَصُبُّ
قِتَابِلَهَا عَلَى مَحْطَةِ السُّكُوكِ الْحَدِيدِيَّةِ وَمِيزَانِ ثُونِسَ بِالْخُصُوصِ .

وَبَعْدَ أَنْ يَكْفُ هَذَا الْأَوَّلُ مِنَ الْقِتَابِلِ تَسْمَعُ الْعَائِلَةُ مِنْ أَجِيرَانِ وَمِنْ السَّارَةِ
أَخْبَارًا تَذْمِي لَهَا الْقُلُوبُ وَتَرْتَأَعُ مِنْهَا النُّفُوسُ وَخَاصَّةً إِذَا كَانَتْ الضُّحَايَا مَعْرُوفَةً
مِنَ الْعَائِلَةِ : فَهَذِهِ أُمِّي « نَفِيسَةُ » سَقَطَ عَلَيْهَا السَّمَاءُ وَهِيَ تُصَلِّي فَوْجَدُوهَا تَحْتَ
الرُّكَامِ مُهْتَمَّةَ الرَّأْسِ ، وَهَؤُلَاءِ أَطْفَالُ « بِي عِلِّي » وَجَدُوهُمْ تَحْتَ الْفِرَاشِ كَأَنَّهُمْ
فِي غَلَبَةِ مُصْبَرَاتٍ وَهَذِهِ دَارُ « بِي عَبْدِ السَّلَامِ » تَهْدَمُ كُلِّهَا وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْ
السَّكِينِ بِدَارِهِ إِلَّا كَلْبٌ صَغِيرٌ وَهَذَا صَدِيقُ « الطَّاهِرِ » « سِي الزَّيْنِ » كَانَ ذَاهِبًا

إِلَى حَمَامِ الْأَنْفِ وَرَأَوْهُ فِي مَحْطَةِ السُّكُلِ الْحَدِيدِيَّةِ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَى أَهْلِهِ فَبَدُلُ
« الطَّاهِرِ » رَجَالَ الْإِسْعَافِ إِلَى عَرَصَةٍ تَرَكُهُ مُحْتَبًا تَحْتَهَا فِي الْمَحْطَةِ فَبَدَلُوهُ
كُثْلَهُ مُهَشَّمَةً .

وَيَتَّبِعُ هَذِهِ الْأَخْيَارَ مِنَ الْعَجَائِبِ مَا يُحِيرُ الْعُقُولَ وَخَاصَّةً مَا يَتَعَلَّقُ بِتَجَاوِزِ الْكَبِيرِ
مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ يَخْرُجُونَ مِنَ الرُّكَّامِ أَصِحَّاءَ ، سَالِمِينَ بِفَضْلِ « سَيِّدِي بِلَحْسَنَ »
أَوْ « سَيِّدِي عَيْدِ الْقَاوِرِ » أَوْ غَيْرَهَا مِنَ الْأَسَاطِيرِ الَّتِي تُبْعَثُ الْأَمَلُ فِي نَفْسٍ لَيْسَ
لَهَا مِنْ رَجَاءٍ فِي خِصْمِ هَذِهِ الْحَرْبِ الضَّرُّوسِ إِلَّا إِسْمَانُهَا بِاللَّهِ وَبِالرُّسُولِ وَالْأَوْلِيَاءِ
الصَّالِحِينَ .

وَلَمْ تَشْعُرْ «عَائِشَةُ» بِأَلْيَاسِ شُعُورِهَا فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا مِنْ مَلَجٍ إِلَّا
التَّوَجُّهُ إِلَى اللَّهِ لِابْعَادِ الشَّرِّ عَنْهَا . وَبَدَأَتْ تَسْتَقْبِلُ الْحَيَاةَ بِصُورَةٍ لَمْ تَعْرِفْهَا مِنْ
قَبْلُ : هِيَ مَزِيحٌ مِنْ حُرَاقَاتِ مَجْلِسِ الْعَجَائِزِ وَمِنْ أَصْدَاءِ كَانَتْ تَنْفُذُ إِلَى أُذُنِهَا فِي
مُصَاحَبَتِهَا لِوَالِدِهَا سَوَاءً مِنَ الْأَفْلَامِ السَّنَائِيَّةِ وَالْمُسَرَّجِيَّاتِ أَوْ حَدِيثِ وَالِدِهَا مَعَ
مَنْ اسْتَوْفَقَ فِي الطَّرِيقِ مِنْ أَصْحَابِهِ .

كُلُّ مَا فِي الْحَيَاةِ غَامِضٌ عِنْدَهَا وَلَيْسَ مِنْ أَمَلٍ لَدَيْهَا إِلَّا بِرَيْقٍ مِنْهُ تَرَاهِي لَهَا
أَثْنَاءَ زِيَارَاتِ « سُكَيْلَةَ » الْمُتَكَرِّرَةِ وَمَعَهَا أَوْلَادُهَا : « سَالِمٌ » وَ « فَاطِمَةُ » وَ
« الْهَادِي » .

كَانَ « سَالِمٌ » فِي عُمْرِهَا هِيَ تَقْرِيبًا وَكَانَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا نَظَرَاتٍ مَلُؤَهَا الشُّوقُ
وَاللَّهْفَةُ . وَلَمْ تَعْرِفْ «عَائِشَةُ» لِمَذَا كَانَ وَالِدُهَا يَتْرُكُ هَذَا الْأَعْرَبَ يَدْخُلُ دَارَهُ وَلَا
يَحْتَرِزُ مِنْهُ مِثْلًا دَرَجَ عَلَيْهِ مَعَ الْآخَرِينَ .

وَلَكِنَّهَا فَهَمَّتْ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ أَنَّ الْأَمْرَ أَظْهَرَ مِمَّا تَتَصَوَّرُ إِذْ عَلِمَتْ مِنْ
أُمِّهَا مَا تُدَبِّرُهُ « سُكَيْلَةُ » فِي سَبِيلِ الزَّوْاجِ « بِالطَّاهِرِ » . فَكَانَتْ الصَّدْمَةُ كَبِيرَةً
وَلَكِنْ مَا حِيلَتْهَا هِيَ وَأُمُّهَا أَمَامَ غَطْرَسَةِ « الطَّاهِرِ » وَعَجَزِ « زَيْنَبَةَ » عَنْ مُوَاجَهَتِهِ



عائشہ

وَالْأَسْتِنْجَاوِ بِمَنْ هُوَ أَقْوَى مِنْهُ فِي عَائِلَتِهِ : لَا حَوْلَ لَهَا وَلَا قُوَّةَ أَمَامَ رَحْبِ
 « سَكِينَةَ » وَأَبْنَائِهَا وَأَمَامَ تَصْنِيمِ « الطَّاهِرِ » عَلَى إِرْضَاءِ شَهَوَاتِهِ وَتَعْدِيدِ مَوَارِدِهِ
 عَنْ طَرِيقِ الْمَنَحِ الْعَائِلِيَّةِ الَّتِي سَتَزِدُّهُ بِكَفَالَتِهِ لِابْنَائِهِ « سَكِينَةَ » وَمَا سَتُنْجِيهِ
 مِنْهُ .

وَنَزَلَتْ الصَّاعِقَةُ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ عَلَى الْعَائِلَةِ وَجَعَلَتْهَا فِي ذُحُولٍ مِنْ أَمْرِهَا
 وَصَادَفَ ذَلِكَ ذُحُولَ جُيُوشِ الْخُلَفَاءِ بِشُونَسَ . وَكَانَتْ هَذِهِ الصَّاعِقَةُ لَهَا ضَرْبَاتُ
 ثَلَاثُ : قَرَارُ « الطَّاهِرِ » بِالتَّحُولِ إِلَى قَرْبَتِهِ لِأَنَّهُ عَيْنٌ بِعَبَاضَتِهَا مِنْ قِبَلِ إِدَارَتِهِ
 وَتَبَأُ سِجْنِ « النَّاصِرِ » إِثْرَ جَرِيمَةِ أَخْلَاقِيَّةٍ وَقَرَارُ رَبِّ الْعَائِلَةِ الْمُسْتَمْتَلِ فِي زَوَاجِهِ
 « سَكِينَةَ » .

كَيْفَ يُسْكِنُ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَضْعِفِينَ أَنْ يَقِفُوا أَمَامَ هَذِهِ الزُّلْزَلِ . كُلُّ شَيْءٍ
 إِنْ قَلَبَ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ : الْبِلَادُ بِالتَّحْرِبِ الدَّائِرَةِ فِيهَا ثُمَّ بِتَشْكِيلِ الْفِرَاسِيِّينَ
 بِالتَّوْنِسِيِّينَ سِجْنًا وَتَقْتِيلًا وَتَشْرِيدًا عِنْدَ ذُحُولِ الْخُلَفَاءِ وَالْعَائِلَةِ بِتَصَرُّفِ « الطَّاهِرِ »
 الْأَخْرَقِ الَّذِي لَمْ يَرَاعَ مَا يَحْدُثُ حَوْلَهُ مِنْ أَهْوَالِ تَصِيبِ مُوَاطِنِيهِ وَأَقَارِبِهِ وَحَتَّى
 إِيَّاهُ « النَّاصِرِ » ؟

كُلُّ هَذَا زَلْزَلٌ فِي عَائِشَةِ إِسْمَانَتِهَا بِالْحَيَاةِ وَبِالنَّاسِ وَبِالْقَدَرِ ، وَزَادَهَا تَشَاؤُمًا عَلَى
 تَشَاؤُمِهَا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ تِلْكَ الْفَتَاةَ الضَّحُوكَ ، السِّمْرَاحَةَ الْمُسْتَقْبِلَةَ لِلْحَيَاةِ بِكُلِّ
 تَفَاوُلٍ وَفَرَحَةٍ .

وَلَقَدْ زَادَ قَلْبُهَا عَمًا عَلَى عَمٍ عِنْدَمَا زَارَتْ مَعَ أُمِّهَا أَخَاهَا « النَّاصِرِ » فِي السِّجْنِ
 وَرَأَتْهُ فِي حَالَةٍ يُرْتَمَى لَهَا مِنَ الْيَأْسِ وَالتَّشَاؤُمِ وَالثَّقَمَةِ عَلَى حَظِّهِ الْكَبِيرِ .
 أَمَّا أُمُّهَا « رُبَيْدَةُ » فَقَدْ هَزَّتْهَا الزِّيَارَةُ الْأُولَى إِلَى السِّجْنِ هَزَّةً مُرِيعةً وَخَرَجَتْ مِنْ
 لَأْمِبَالِهَا وَبَكَتْ بِالْدمَاءِ عَلَى ابْنِهَا وَعَلَى « عَلَولِ » الَّذِي وَجَدَهُ « النَّاصِرِ » فِي
 السِّجْنِ .

لَمْ يَبْقَ « عَادِلٌ » ذَلِكَ الْمُقَرَّبَ مِنْ عَائِلَةِ السَّلَاحِ بَعْدَ تَفْهِمِ « الْمُنْصِيفِ بَابِي »
عِنْدَ دُخُولِ الْخُلَفَاءِ وَبَعْدَ ضَيَاعِ تَرَوُّبِهِ فِي الْقِيَارِ . وَكَانَ يُدْبِعُ أَصْحَابَهُ الْقَطُوفُونَ
عَلَيْهِ أَنَّهُ سَجَنَ لِأَنَّهُ وَطِنِيٌّ وَتَغَلَّى عَنْهُ الْبَابِيُّ الْجَدِيدُ خَوْفًا مِنْ فِرْنَسَا وَالْحَقِيقَةُ
هُوَ تَوَرُّطُهُ فِي قَضِيَّةِ قِيَارٍ وَقَسَاوٍ .

وَهَكَذَا خَلَا الْجَوُّ لِلطَّاهِرِ « وَأَرْضَى شَهَوَاتِهِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ الْمُسْتَظْرَبَةِ الَّتِي لَمْ
يَبْقَ فِيهَا أَيْ ثُونِسِيٌّ غَيْرُ مَشْغُولٍ بِعَنْتِ أَصَابِهِ أَوْ مُصِيبَةٍ حَلَّتْ بِهِ أَوْ ضَيْقٍ لَزِمَهُ
وَحَيْرٌ عَقْلُهُ .

وَكَانَ « الطَّاهِرُ » يَخْشَى رُغْوَةَ « النَّاصِرِ » وَلَكِنْ الظُّرُوفُ سَاعَدَتْهُ ، وَأَلْقَتْ بِأَيْدِيهِ
فِي السَّجْنِ فَلَمْ يَعْمَلْ وَالِدُهُ شَيْئًا لَأَخْرَاجِهِ مِنْهُ بَلْ كَانَ نَائِمًا عَلَيْهِ وَمُتَحَامِلًا أَشَدَّ
التَّحَامَلِ ، وَلَا يَأْمُرُ إِيَّاهُ عَلَى هَذِهِ الْوَرُطَةِ الَّتِي رَجَّحَ بِنَفْسِهِ فِيهَا .

وَرَحَلَ الْجَمِيعُ مِنْ ثُونِسَ فِي يَوْمٍ مُسَطَّرٍ ، مُكْفَهَرِ السَّمَاءِ مُرْعِدٍ ، مُبْرِقٍ وَتَوَجَّهُوا
نَحْوَ الْقَرْيَةِ لِسُكْنَى بَيْتِ جَدِيدٍ سَيَجِدُونَ فِيهِ « سُكْنَلَةَ » الَّتِي بَنَى بِهَا « الطَّاهِرُ »
مُنْذُ أَيَّامٍ وَكَذَلِكَ أَبْنَاهَا : « سَالِمٌ » وَ « الْهَادِي » وَ « قَاطِمَةُ » .

* * *

بَابُ الْجَنَانِ

تَزَلَّتِ الْعَائِلَةُ فِي مَنْزِلٍ قَدِيمٍ ، اِكْتَرَاهُ « الطَّاهِرُ » بِمَنْزَرٍ زَهِيدٍ وَلَيْسَ بِهِ إِلَّا
 عُزْفَتَانِ كَبِيرَتَانِ وَمَدْخَلٌ يُقْضَى إِلَى بَهْوٍ بِهِ ذِكَاةٌ وَبَابٌ لِشِبْهِ عُزْفَةٍ بِلاَ تَأْلُفَةٍ .
 وَلَكِنْ لِلْمَنْزِلِ فِتَاءٌ وَاسِعٌ تَرَكُّضٌ فِيهِ الْخَيْلُ ، وَمَطْبُحٌ وَبَيْتٌ خَلَاءٌ ، وَفِي رُكْنٍ
 مِنْ أَلْسَطِخٍ « بَابُ الْجَنَانِ » يَفْتَحُ عَلَى مَا يُسَمِّيهِ أَهْلُ الْقَرْيَةِ « جَنَانٌ » وَهُوَ عِبَارَةٌ
 عَنْ بُسْتَانٍ فَرَسِيحٍ الْأَرْجَاءُ فِيهِ شَجَرُ الثُّفَاحِ وَالْإِجَاصِ وَالرُّمَانِ وَاللُّوزِ وَفِيهِ بَعْضُ
 الْكُرُومِ وَالْخَضِرِ وَشَجَرِ التَّيْنِ .

وَهَكَذَا لَمْ يَكُنْ لِلْعَائِلَةِ فِي الْوَاقِعِ إِلَّا عُزْفَتَانِ مُتَقَابِلَتَانِ مِنَ الشَّطِئِ الْقَدِيمِ ،
 ذَاتُ « قَبْرِ وَمَقَاصِرٍ » ضَاعَتْ مِنْهَا « أَلْمَقَاصِرُ » يَسْكُنُ فِي الْأُولَى « الطَّاهِرُ »
 مَعَ زَوْجَتِهِ وَأَبْنَائِهَا وَفِي الثَّانِيَةِ « زُبَيْدَةُ » وَصَحْبَتُهَا أَبْنَاؤُهَا .

وَكَانَتْ عُزْفَةُ « الطَّاهِرِ » مَتَرَامِيَةِ الْأَطْرَافِ بِهَا فِرَاشَتَانِ عَالِيَانِ مِنَ الْخَشَبِ تَحْتَهُمَا
 عِلْبَانٌ لِلْأَكَاثِ ، وَشَتِيتِ الْأَشْيَاءِ يُنْفَذُ إِلَى السَّحْبِ الَّذِي بِهِ فِرَاشُ الْأَبْنَاءِ مِنْ بَابٍ
 صَغِيرٍ يَفْتَحُ عِنْدَ الْحَاجَةِ لِلْخُرُوجِ إِلَى الْفِنَاءِ .

وَلَا يَدْرِي أَنَّ الْعُرْفَةَ كَانَتْ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا مُخَفَّةً فَتِيَةً بِالنُّفُوسِ الْمَوْجُودَةِ ، وَأَجْزَاءِ
 الرُّسُومِ الظَّاهِرَةِ عَلَى الْأَخْطَابِ ، وَلَكِنْ الزَّمَنُ السَّرْفُوقُ بَاقِيَ الْعُقَلَّةِ وَالتَّهَاقُوتِ أَصْرُ
 بِالْعُرْفَةِ وَأَفْسَدَ وَجْهَهَا وَطَعَنَ وَسَامَتْهَا بِخَنْجَرِ الْأَهْمَالِ ، فَانْقَلَبَتِ الطُّعْنَاتُ ضَغَائِرَ
 تَلْحَلُ فِي صَمْتِ الْإِهْيَابِ ، وَتَتَهَافَتُ تَحْتَ لَمَسَاتِ رَفِيقِ الثَّلَاثِي وَمَيِّتِ الْإِهْيَابِ
 فَتَتَيْنُ بِأَيِّنِ حَسْبِهَا ، وَتَدْمَعُ عَيْنُهَا بِدَفْقِ رُطُوبَتِهَا ، وَبِتَثَائِرِ جُلُودِهَا فِي أُنَاوِ ضِيْقِهَا
 بِالْحَيَاةِ وَتَعْمَا أَلِيمَا .

أَمَا شِبْهُ الْغُرْفَةِ فَبِخْتَلِي فِيهَا الذُّكُورُ مِنَ الْإِخْوَةِ وَالْأَرْبَةِ مِنْ حِينَ إِلَى آخِرٍ ،
فَيَلْتَمِسُ جَمْعُهُمْ شِجَارًا ثَارَةً ، وَلَعِبًا بَرِيئًا وَغَيْرَ بَرِيءٍ ثَارَةً أُخْرَى . فَهِيَ كَقِدْرِ
« النَّبُوشِ » (الْحَلْزُونِ) يَأْكُلُ بَعْضُهُ بَعْضًا .

وَلَمْ يَكُنْ « لُزَيْدَةً » وَأَبْنَائُهَا ، عَدَا « النَّاصِر » الْمَوْجُودِ فِي السُّجْنِ ، إِلَّا أَنْ
يَنْسَجِمُوا مَعَ الْحَيَاةِ الْجَدِيدَةِ : « زُبَيْدَةً » أُحِيلَتْ عَلَى التَّقَاعِدِ الزُّوجِيِّ وَجُوبًا ،
وَأَصْبَحَتْ عِلَاقَاتُهَا مَعَ « الطَّاهِر » عِلَاقَاتِ جَوَارٍ ، فِيهَا التَّقْدِيرُ وَالسَّحْبَةُ جِينًا ،
وَالسُّخْطُ وَالْإِحْقَارُ وَعَدَمُ الْمَبَالَاةِ أحيانًا أُخْرَى .

فَحَالَةً جَوَّ الْعِلَاقَاتِ بَيْنَ « الطَّاهِر » وَ« زُبَيْدَةٍ » رَهِيْنَةُ التِّيَّارَاتِ الْبَارِدَةِ وَالْحَارَةِ
الَّتِي تُهْبُ بَيْنَ الزُّوجَةِ الْقَدِيمَةِ وَصَرَّتِهَا ، فَهِيَ إِمَّا أَنْ تَكُونَ لُغْبَةً لِلْعَوَاصِفِ
الْكَاسِبَةِ ، الْمُرْلِلَةِ ، الْمُخْرِقَةِ أَوْ نُهْبَةَ الرِّخَاءِ مِنَ الرِّيَّاحِ الدَّافِعَةِ عَلَى الضَّحِكِ
وَالسُّخْرِيةِ مِنْ « الطَّاهِر » وَزَوَّاتِهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .

أَمَّا « عَائِشَةُ » فَهِيَ ، وَقَدْ شَارَفَتِ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمرِهَا ، تَسْمُرُ بِالْمَرْحَلَةِ
الثَّالِثَةِ مِنْ حَيَاتِهَا : فَطَوْرُ قَضْنَتِهِ فِي قَصْرِ « الْفَرِيك » تَحُبُّ بِهَا النُّعْمَةَ مِنْ كُلِّ
جَانِبٍ وَيَغْمُرُهَا جَوْ مِنْ أَلْفَنْ وَالسُّمُورِ ، وَالرَّفْعَةِ وَالتَّقْوَى جَعَلَ مَلَاحِيهَا تَتَرَبَّسُ عَلَى
الرَّفْعَةِ وَالثَّظَرَةِ الْمَلِيَّةِ حَتَّى إِذَا ذَكَاءَ . وَطَوْرُ قَضْنَتِهِ فِي حَيٍّ قُرْبَ نَهْجِ الْبَاشَا ، تَشْهَدُ
وَفِي صَامِتَةٍ شَرِيطَ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ الشَّعْبِيَّةِ بِحُلُومِهَا ، وَمَرَّهَا ، بِسُفْرِجِهَا وَمُحْزِنِهَا ،
بِسَفْسَافِهَا وَعَمِيقِهَا ، وَتَعِيشُ سَيْرَ الزَّمَنِ فِي « الْعُلُو » بَيْنَ جَمَالِيسِ الْعَجَائِزِ ،
وَهَيْعَاتِ وَالِدِهَا وَزَوَّاتِ أَخِيهَا « النَّاصِر » .

لَقَدْ عَلِمَتْهَا الْحَيَاةُ أَنْ تَسْكُتَ وَلَا تَتَبَسَّ بِكَلِمَةٍ مِمَّا يَدُورُ بِحُلُومِهَا . فَهِيَ دَانَهَا
تُظْهِرُ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا يَشْغُلُ بَالِ أَهْلِهَا ، فَلَا تَصِيحُ وَلَا تَفْرَحُ ، وَلَا تَهْتَرُ لِنَبَا مِنْ
الْإِتْلَاءِ ، وَلَا حَادِثَةٍ مِنَ الْأَحْدَاثِ ، مَلْجُؤُهَا الْمُسَاهَدَةُ وَالْأَمَلُ ، ثُمَّ مِنْ وَقْتٍ إِلَى
آخِرٍ ، الْبُكَاءُ لِتَفْرِجَ عَنْ نَفْسِهَا كُرْبَةً ، أَوْ تَقْتُلَ رَغْبَةً مِلْحَاحَةً لَمْ تَدْرِ مَا هِيَ ،

تَذَكَّرُهَا فِي مَصَدْرَهَا بِمَا كَانَتْ الْعَجَائِزُ يَجِدْنَهُ مِنْ ارْتِيَاكِ عِنْدَ حَدِيثِهِنَّ الشَّهَوَانِي .
وَهَا هِيَ الْيَوْمَ تَدْخُلُ طَوْرًا آخَرَ مِنْ حَيَاتِهَا لَا تَرَى فِيهِ الْحَيَاةَ الْخَضِرِيَّةَ الْمَلِيَّةَ
بِحُلَسَاتِ الْعُشَايَا ، وَالتَّحْفَلَاتِ ، وَزِيَارَاتِ الْأَحْبَاءِ وَالْأَصْدِقَاءِ وَلَا زِحَامَ الشَّارِعِ
وَضَوْضَاءَ الْمَدِينَةِ . فَهِيَ مُسْجُونَةٌ فِي هَذِهِ الدَّارِ لَا خُرُوجَ وَلَا دُخُولَ اللَّهُمَّ إِلَّا
الْمُتَنَفِّسَ الْوَحِيدَ : « بَابُ الْجَنَانِ » الَّذِي أَصْبَحَ بِسَمَانَةِ بَابِ الْجَنَّةِ مِنْهُ تَنْفُذُ النِّسَاءِ
إِلَى فَسْحَةٍ فِيهَا الْخَضِرَةُ وَالْجَرِيُّ وَالرُّقْصُ وَاللَّعِبُ وَتَعَاطِي الْفِلَاحَةِ .

وَبَقِيَتِ الْعَائِلَةُ فِي هَذِهِ مَدَّةَ شَهْرَيْنِ ، إِنَّقَلَتْ إِثْرَهَا إِلَى الْأَصِيفِ فِي بَيْتِ
يَكَادُ يَكُونُ عَلَى نَفْسِ النَّمِطِ ، وَلَكِنَّهُ وَسَطُ بُسْتَانٍ كَبِيرٍ فِيهِ مِنَ الْغُلَّالِ مَا لَدَّ وَطَابَ وَبِهِ
أَيْضًا « بَابُ الْجَنَانِ » يَنْتَشِرُ مِنْهُ أَفْرَادُ الْعَائِلَةِ بَيْنَ الْكُرُومِ وَأَشْجَارِ التِّينِ وَاللُّوزِ وَالرُّمَانِ
وَالْتَّفَاحِ وَالْإِبْجَاصِ .

* * *

وَكَانَ « أَبِي مُحَمَّدٌ » الَّذِي بَلَغَ مِنَ الْكِبَرِ عُتِيًّا لَمْ يَبْقَ ذَلِكَ الرَّجُلَ الْقَمَرِيَّ
الْمُطْلِعَ عَلَى الْأُمُورِ ، الْمُسَيِّطِرَ عَلَى أَهْلِهِ ، وَالنَّافِذَ الْكَلِمَةَ بَلْ أَصْبَحَ يَخْلُطُ دَائِمًا
الْجِدُّ بِالْهَزَلِ وَالْحَقِيقَةَ بِالْخَيَالِ حَتَّى تَفَرَّقَتْهُ الْكِبَارُ وَاسْتَطَابَ حَدِيثُهُ الصِّغَارُ .
وَلَكِنَّهُ اخْتَفَظَ بِسِرِّهِ وَاحِدٍ بَقِيَ يَهَابُهُ مِنْ أَجْلِهِ الْجَمِيعِ وَهِيَ الْقَوْلَةُ « حَلِيمَةٌ » .
لَأَنَّ « أَبِي مُحَمَّدٌ » لَهُ حَلِيمَتُهُ أَيْضًا وَهِيَ حَارِسَةُ « الْجَنَانِ » خَاصَّةً فِي الْقِيلُولَةِ
وَاللَّيْلِ . وَمِنْ غَرِيبِ الْأَمْرِ أَنَّ الْكِبَارَ وَالصِّغَارَ اعْتَقَدُوا ذَلِكَ إِعْتِقَادًا بَاطِلًا وَأَصْبَحَ
يَخْشَى الْوَاحِدَ مِنْهُمْ الْخُرُوجَ إِلَى « الْجَنَانِ » وَخَدَهُ .

وَالْقَوْلَةُ « حَلِيمَةٌ » تُسَكَّنُ شَجَرَةَ التِّينِ الْعَظِيمَةَ وَهِيَ تَظْهَرُ فِي صُورَةِ عَجُوزٍ
تُكْثِرُ عَنْ أَنْيَابِهَا ، وَتُتَقَلُّ بِسُرْعَةٍ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ ، وَلَا يَشْعُرُ الْإِنْسَانُ إِلَّا
بِحَقِيفٍ قَلِيلٍ أَوْ هَفَةٍ عَابِرَةٍ أَوْ خَشْخَشَةٍ مُرِيَّةٍ .

وَيَجْعَ « أَبِي مُحَمَّدٌ » أَكْبَرَ نَجَاحٍ فِي نَفْسِ هَذِهِ الْأُسْطُورَةِ فِي الْأَذْهَانِ ، لِيَمْتَعَ

الصُّغَارَ وَالْكِبَارَ مِنْ جَنَى الشَّهَابِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، وَيَتِمَكَّنَ مِنَ الْاِخْتِلَاءِ بِنَفْسِهِ بِدُونِ أَيِّ
إِزْعَاجٍ . إِذْ « لِلْعَوْلَةِ حَلِيمَةٌ » الْقُدْرَةُ عَلَى الْقَتْلِ مِمَّنْ يُوقِظُ « أَبِي مُحَمَّدٌ » وَهُوَ نَائِمٌ
تَحْتَ الشَّجَرَةِ أَوْ يُفْلِقُهُ بِالسُّؤَالِ عَنْ دَوَاءٍ مِنْ الْأَدْوِيَةِ أَوْ مَرَهَمٍ مِنْ الْمَرَاهِمِ لِأَنَّهُ
عُرِفَ بِامْتِلَاقِهِ بَعْضِ الْأَسْرَارِ الطَّبِيبَةِ .

وَكَانَتْ « الْعَوْلَةُ حَلِيمَةٌ » تُزْجِي وَفَتْهَا بِعُزْلِ الصُّوفِ فَوْقَ رَأْسِ « أَبِي مُحَمَّدٍ »
وَهُوَ يَغُطُّ فِي نَوْمِهِ أَوْ يَتَمَلَّى تَنْقَلُ الْعَصَافِيرُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ أَوْ يَرْقُبُ حَزَمَ النَّبْلِ
الْمُنْتَشِرِ أَمَامَهُ .

ثَاثِلَتٌ « عَائِشَةُ » مَعَ هَذِهِ الْحَيَاةِ وَلَيْسَتْ الْمَلَأَةُ فِي بَعْضِ الْأَخْيَانِ وَوَجَدَتْ
فِيهَا رَاحَةً وَفُرْصَةً لِلْإِتْقَاءِ خَاصَّةً مِنْ نَظَرَاتِ « سَالِمٍ » أَلَسْتُ حَصَّةً لِقَوَائِمِهَا فِي
الْفُسْتَانِ ، وَأَلَسْتُ لَهْفَةً لِاسْتِشْفَافِ مَقَاتِلِهَا ، وَخَوْفًا مِنْ مَلَاخِطَاتِ « أَبِي مُحَمَّدٍ »
الْعَامِضَةِ .

وَلَكِنْ « أَبِي مُحَمَّدٌ » لَمْ يَلْبَثْ فِي ذَلِكَ الصَّنِيفِ أَنْ غَادَرَ هَذِهِ الدُّنْيَا رُبَّمَا أَسْمَاً
وَحُزْناً عَلَى مَا آلَ إِلَيْهِ « الطَّاهِرُ » أَوْ كِبَرًا فَقَطْ . وَالْمَوْهُمُ أَنَّ الْعَائِلَةَ لَمْ تَسْمَعْ شَيْئاً مِنْهَا
تَعَوُّدَهُ « أَبِي مُحَمَّدٌ » مِنْ صَرَاحَةٍ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ بَلْ كَانَ يَكْتَفِي بِالْقَوْلِ إِلَى
« الطَّاهِرِ » :

- اِعْمَلْ مَا بَدَأَ لَكَ الْآنَ فَلَمْ يَبْقَ لِي فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ إِلَّا أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ .

فِيُجِيبُهُ « الطَّاهِرُ » :

- اللَّهُ يَطْوِلُ فِي عُزْلِكَ يَا وَالِدِي ، وَلَا يُرِيكَ مَكْرُوهًا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الْمُسْتَقْبَلَةِ
الصَّعْبَةِ الْيَوْمَ .

وَحَلَّا أَلْجَوْهُ لِلطَّاهِرِ بِمَوْتِ وَالِدِهِ ، وَأَصْبَحَ طَائِعِيَةً فِي تَصَرُّفَاتِهِ مَعَ أَهْلِهِ ، لَا
يَسْمَحُ بِالْإِصْدَاعِ بِأَيِّ رَأْيٍ وَلَا آيَةٍ مَلَاخِطَةٍ حَتَّى « سَكِينَةٌ » فَهِيَ تَرْتَعِشُ مِنْهُ
إِرْتِعَاشًا ، وَيَتَغَافُ مِنْ أَنْ يَنْتَلِظَ لَهَا بِجِلْدِكَ الْكَلِمَةَ الثَّارِلَةَ عَلَى رَقَبَةِ كُلِّ امْرَأَةٍ



كَالسَّيْفِ الْمَسْلُوقِ :

- أَنْتِ طَالِقٌ .

وَرَأَحَتْ « سَكِيلَةُ » ثَقُلْتُ مِنَ النَّزَاعَاتِ ، وَتَخَشَّى عَلَى أَبْنَانِهَا أَنْ يُلْقِيَ يَوْمُ
« الطَّاهِرِ » فِي الشَّارِعِ . فَلَا تَسْمَعُ مِنْهَا إِلَّا :

- إِيهَ يَا سُوَيْدِي ... نَعَمْ يَا سُوَيْدِي ... اللَّهُ يُبَارِكُ يَا سَيِّدِي ، وَلَكِنَّهَا بِهِدُو
الطَّرِيقَةَ اللَّيْتَنَةَ عَرَفَتْ كَيْفَ تَصِلُ إِلَى مَبْتَغَاهَا مِنْ « الطَّاهِرِ » بِدُونِ ضَجَّةٍ كَبِيرَةٍ
وَلَا هَيْعَةٍ مُبِيرَةٍ لِلْعُبَارِ .

وَتَنْظُمُ « الطَّاهِرِ » حَيَاتَهُ بَيْنَ الْعَمَلِ فِي الْإِدَارَةِ الصَّغِيرَةِ وَالْمَثَلِي مَسَافَاتٍ
طَوِيلَةٍ مَعَ عَامَّةِ النَّاسِ ، هُرُوبًا مِنَ الْأَعْيَانِ وَكَذَلِكَ الْأَكْلِ الطَّيِّبِ وَقَدْ تَحَسَّنَ
الرَّائِبُ مِنْ جِرَاءِ الزِّيَادَاتِ وَالسُّنَحِ الْعَائِلِيَّةِ ، وَاهْتَمَّ « بِالْجَنَانِ » يُغْدِقُ عَلَيْهِ
الْأَمْوَالَ الطَّائِلَةَ مِنْ دُونِ مَرْدُودٍ كَبِيرٍ ، وَأَكْثَرَ مِنْ شِرَاءِ الْكُتُبِ لِلْمُطَالَعَةِ
وَالْمُذَاكِرَةِ .

فَحَيَاةُ « الطَّاهِرِ » أَصْبَحَتْ مَلَأَى لَا تَشْكُو فَرَاغًا ، وَلَا تَعْطَلُ فِي الطَّاهِرِ . وَلَكِنْ
تَسْكُنُ فِيهَا بَوَادِرُ الْإِحْرَافِ النَّاقِيَةِ عَنِ الثَّقَرِ بِالرَّأْيِ وَالْإِنْبِعَادِ عَنْ كُلِّ مَنْ
بِإِمْكَانِهِ أَنْ يُعْرِفَهُ بِوَجْهِ آخَرٍ لِلْحَقِيقَةِ كَمَا يَرَاهَا ، فَهُوَ يَتَحَاشَى الْمُتَقَفِّينَ وَالْأَعْيَانَ
وَلَا يُسَاسِيهِمْ ، وَهُوَ الَّذِي لَا يُرِيدُ الْجُلُوسَ فِي الْمَقَاهِي وَالْأَمَاكِنِ الْعَامَّةِ ، إِلَّا
مَعَ السُّلُجِ مِنَ النَّاسِ الْقَانِعِينَ بِسِقَارَةٍ يَبْتَرِزُونَهَا أَوْ الطَّامِعِينَ فِي أَكْلَةِ دَسِيمَةٍ
شَهْوِيَّةٍ مِنْ أَيْدِي « الثَّوْنِيَّةِ » يُشْبِعُونَ بِهَا بَطُونَهُمْ الْجَائِعَةَ ، وَكَانَ يَلْذُّ لَهُ أَيْضًا أَنْ
يُرَافِقَ الشُّبَّانَ فَيَبْهَرُهُمْ بِمَا حَفِظَهُ مِنْ جَيْدِ الشَّعْرِ وَصَبَقِ الْأَخْبَارِ الْأَدَبِيَّةِ .

أَمَّا « سَالِمٌ » فَكَانَ لَيْنَ الْعَرِيكََةِ ، أَيْقًا فِي « بُلُوْزِيَّةِ » تَتَدَفَّقُ مِنْ عَيْنَيْهِ طَبِيبَةٌ
يَطْمَتِنُهَا النَّاطِرُ وَيُغْدِقُ بِهَا الْعَاقِلُ . أَظْهَرَ لِلْعَائِلَةِ كُلِّهَا تَقْدِيرًا قَانِعًا ، وَتَمَيَّزَ فِي نَظَرِ
« الطَّاهِرِ » بِحُبِّهِ لِلْكَتُبِ وَالْمُطَالَعَةِ وَأَنْعِكَافِهِ عَلَى التَّذَاكُرَةِ . وَاشْتَهَرَ بِذَلِكَ ،

وَمَالَتْ إِلَيْهِ « عَائِشَةُ » وَأَصْبَحَتْ تَسْمَعُ مِنْهُ الْحِكَايَاتِ ، وَهُوَ يَقْصُصُهَا أَمَامَ « زَيْنَةَ » وَأُمِّهِ « سَكِينَةَ » . وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ يَتَّخِذُ مِنْ شَجَرَةِ التَّيْنِ الْكَبِيرَةِ الْمَظْلَلَةِ ، الْقَوَاعِيَةِ أَمَامَ بَابِ « الْجَنَانِ » مَوْطِنًا لِلرَّاحَةِ وَالْمُطَالَعَةِ . وَمِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ كَانَ « سَالِمٌ » يُشْرِفُ عَلَى كُلِّ مَا فِي الدَّارِ إِذَا كَانَ بَابُ « الْجَنَانِ » مَقْفُولًا . وَتَعَوَّدَتْ « عَائِشَةُ » أَنْ تَرْكَنَ عَلَى مَرَأَى وَمَسْمَعٍ مِنَ الْجَمِيعِ إِلَى الْجُلُوسِ قُرْبَ « سَالِمٍ » لِتَسْتَمِيعَ إِلَى الْحِكَايَاتِ وَالْخَرِافَاتِ . وَحَرِصَ « سَالِمٌ » عَلَى تَجْمِيعِ النُّصُوصِ الشَّبَقِيَّةِ فِي كُرْسِيِّ أَحَدَهَا مِنَ الْفَلَكِ لَيْلَةً وَلَيْلَةً ، وَالذَّوَابِ مِنَ الشَّعْرِيَّةِ ، وَالنَّوَادِرِ وَالْمَلَحِ . وَأَخَذَ مِنْهُ هَذَا الْعَمَلُ وَقَفًا طَوِيلًا أَكْسَبَهُ شَهْرَةً الْمُنْكَبِ عَلَى الْكُتُبِ ، أَلْوُوعَ بِالْمُطَالَعَةِ وَالْمَذَاكِرَةِ . وَكَمِ مِنْ صَاحِبِ شَهْرَةٍ لَيْسَ لَهُ مِنْهَا غَيْرُ بَرِيْقٍ أَلْفِصْرَةٍ أَمَّا اللَّبُّ فَهِيَ مِنْهُ حَوَاءٌ . وَعَلَى كُلِّ قَفْذٍ أَتَاخَتْ لَهُ هَذِهِ الثَّرْعَةُ أَنْ يَطْلُعَ عَلَى عَشْرَاتِ الْكُتُبِ مِنْ أُمّهَاتٍ وَغَيْرِهَا حَتَّى الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَمْ يَسْلَمْ مِنْ هَذِهِ الثَّرْعَةِ وَالْأَخَاوِثِ النَّبَوِيَّةِ سَلَحَهَا سَلَحًا لِيَجِدَ فِيهَا مُبْتَغَاهُ . وَيُظْهِرُ أَنَّهُ ظَفَرَ بِمَطْلُوبِهِ وَبِأَكْثَرِ مَا كَانَ يَتَوَقَّعُ .

وَأَحْتَالَ « سَالِمٌ » عَلَى الْجَمِيعِ فَوَضَعَ الْكُرْسِيَّ فِي كِتَابٍ يَفْتَحُهُ عِنْدَ إِرَادَتِهِ التَّضَلُّيلِ . أَمَّا إِذَا احْتَلَى « بِعَائِشَةَ » فَحَتَّ شَجَرَةَ التَّيْنِ فَإِنَّهُ يَسْرُدُ عَلَيْهَا الْحِكَايَاتِ الَّتِي تَثِيرُ فِي نَفْسِهَا تَطْلُعًا كَبِيرًا ، وَتَجْعَلُهَا مَرَّةً ضَاحِكَةً ، وَمَرَّةً سَاهِمَةً أَمَامَ هَؤُلَاءِ مَا يَقُولُهَا ، وَمَا يَتَلَفُظُ بِهِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ، تَغْلِيْقًا عَلَى الْخَبَرِ ، مِنْ كَلَامٍ بَلَوِيٍّ .

وَأَصْبَحَتْ « عَائِشَةُ » سَجِيَّةً « لِسَالِمٍ » وَهِيَ حَبِيسَةٌ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ الشَّبَقِيَّةِ . فَقَدْ كَانَ مَجْلِسُ الْعَجَائِزِ أَقْلَ فُحْشًا وَأَكْثَرَ إِشَارَةً وَتَلْمِيحًا . وَاسْتَطَابَتْ « عَائِشَةُ » هَذِهِ الْجَلِيسَاتِ فِي آخِرِ الْأَمْرِ ، وَتَعَوَّدَتْهَا وَزَالَتْ عَنْهَا الثَّرْعَةُ وَأَطْمَأْنَنْتَ لِعَيْتِي « سَالِمٌ » وَأَحْبَبْتَهُ فِي آخِرِ الْأَمْرِ ، وَبَادَلَهَا الْحُبَّ وَالْوَعْدَ بِالزَّوْاجِ .

واعتادت النساءَ عندما تنتقلُ العائِلَةُ إلى المَصِيفِ أن يذهبنَ إلى البَحرِ في الليلِ للسَّباحَةِ أو يَومَ الجُمُعَةِ ، عندما يَنتَقِلُ الرِّجَالُ في الصَّبَاحِ إلى سَوقِ القَرِيَةِ . فتنثشرُ النساءُ والبَنَاتُ على شاطئِ البَحرِ لَا يَرُوبُهُنَّ أَحَدٌ إِلَّا بَعْضُ الشُّبُوحِ النِّهَيرِيْنَ مِنْ بَعِيدٍ .

أما فيَ اللَّيْلِ فَإِنَّ النِّسَاءَ يَرافِقُهُنَّ شَيِّخٌ كَبِيرُ السِّنِّ وَأَخْتَارُ « الطَّاهِر » لِحَرِيمِهِ « أَلْعَمَ صَالِح » الَّذِي كَانَ يَسْتَطِيبُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ مُعْرَمٌ مُجَالِسَةُ النِّسَاءِ وَمُحَادَثَتُهُنَّ وَالْمَزْحَ مَعَهُنَّ . وَاسْتَعَانَ هَذَا الشَّيْخُ « سَالِم » الشَّابُّ الَّذِي مَا زَالَ لَا يَخْشَى مِنْهُ عَلَى النِّسَاءِ كَثِيرًا فِي الطَّاهِرِ .

والتَّهَرَّ « سَالِم » هَذِهِ الْفُرْصَةَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي لَيْلَةٍ ظَلَمَاءَ مَعَ « عَمَ صَالِح » لِيُعَرِّزَ يَدَهُ عَلَى سَاقِ « عَائِشَةَ » وَهِيَ وَاقِفَةٌ تُحَاطِبُهُمَا وَيَتَوَعَّلُ صُعْدًا فِي مَقَاتِلِيهَا . وَأَحْسَتُ « عَائِشَةَ » بِلَذِّ لَمْ تَعْرِفْهَا مِنْ قَبْلُ تَدَاعَتْ لَهَا بِجَوَارِحِهَا كُلِّهَا ، وَحَقَّقَتْهَا بِسَاهِمَةٍ لَا تُحِيرُ جَوَابًا وَلَا تَعْرِفُ بِمَ سَتُوجِهُ هَذِهِ الْجُرْأَةُ الْمَرْغُوعَةُ لِكَيْفَانِهَا . وَأَقْبَلَتْ صَوْبِجَاتِهَا ، وَابْتَعَدَتْ « عَائِشَةَ » وَرَجَعَ الْجَمِيعُ فِي ضَجْكِ وَجَرِي وَرُكُضٍ إِلَّا « عَائِشَةَ » فَقَدْ ثَقُلَتْ رِجْلَاهَا ، وَبَقِيَتْ مُجَارِي « أَلْعَمَ صَالِح » فِي حُطُوتِهِ .

لَمْ تَتَمْ « عَائِشَةَ » فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ كَعَادَتِهَا ، وَهِيَ الَّتِي ارْتَبَطَتْ مَعَ رَبِيبَتِهَا « فَاطِمَةَ » فَاصْبَحَتَا مُتَلَاذِمَتَيْنِ وَرَضِيَتْ أُمُّهَا « رُبَيْدَةَ » وَ « سَكِينَةَ » بِأَنْ تَبِيتَ مَعَ « فَاطِمَةَ » فِي الْفَرَّاشِ الْمُنْقَابِلِ لِفَرَّاشِ « الطَّاهِرِ » بَيْتًا تَعُودُ الْأَوْلَادُ وَالْفَصْلُ صَيْفٌ أَنْ يَنَامُوا عَلَى دَكَّةِ الْبُهِوِ .

كَانَ النَّوْمُ قَبْلَ هَذَا أَلْوَمَ يَغْشَى عَيْنَيْهَا بِسُرْعَةٍ هِيَ وَرِيبَتُهَا . وَلَكِنْ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ كَانَ عَسِيرًا عَلَيْهَا أَنْ تَنْسَى مَا ذَاقَتْهُ مِنْ لَذِّ وَكَانَ مِنَ الصَّغْبِ أَنْ تُكَلِّمَ مَا أَثَارَتْهُ فِيهَا مِنْ رَغْبَةٍ مُلِحَةٍ فِي السَّمْعَاوَةِ .

وَزَادَ فِي حَيْرَتِهَا مَا سَمِعَتْهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ مِنْ أَصْوَاتٍ وَحَرَكَةٍ وَهَمْسٍ وَخَنَخَةٍ
وَأَنفَاسٍ مَلْهُوفَةٍ حَارَّةٍ وَهَزْهَزَةٍ لِلْخَشَبِ ، يَبِينُ تَحْتَ وَطْأَةِ صَهْلٍ اللَّذَّةِ الْآتِيَةِ مِنْ
الْفِرَاشِ الْمَقَابِلِ .

وَتَقَلَّبَتْ فِي فِرَاشِهَا إِلَى بُزُوعِ الْفَجْرِ بَعْدَ أَنْ سَكَتَتِ الْأَصْوَاتُ ، وَهَذَاتِ
الْأَنفَاسُ وَأَخَذَ عَيْنَيْهَا النَّوْمَ وَجَمَّ عَلَيْهَا وَلَمْ تُفِقْ إِلَّا عَلَى صَوْتِ « فَاطِمَةَ » وَهِيَ
تَصِيحُ :

- قُمْ يَا « عَائِشَةَ » ... هَلْ أَلَكِ مَيِّتَةٌ أَمْ مَاذَا ؟ مَا هَذَا النَّوْمُ ! أَمْكُ ثَنَائِيكَ مِنْذُ
زَمَانٍ ... هَيَّا ... إِنِّهْضِي .

وَبَدَأَتْ تُدْعِيهَا وَتُذَاعِبُهَا فَقَامَتْ « عَائِشَةُ » وَبَدَأَتْ تَتَلَاَعَبَانِ كَالْقُطْعَتَيْنِ
الصُّغِيرَتَيْنِ فِي بَرَاءَةٍ وَطَبِيبَةٍ نَفْسٍ .

وَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ وَقَفَتْ « عَائِشَةُ » صَائِحَةً فِي فَاطِمَةَ :

- يَكْفِي لَقَدْ تَجَاوَزْتَ الْحَدَّ هَذَا لَيْسَ بِاللَّعِبِ هَذَا عَمَلٌ قَبِيحٌ .

.. مَا مَعْنَى هَذَا ... نَحْنُ نَلْعَبُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ هَذَا اللَّعِبِ مَا الَّذِي طَرَأَ عَلَيْكَ يَا
« عَائِشَةُ » ؟

وَأَفْتَرَقْنَا .

* * *

وَبَعْدَ ذَلِكَ بِيَوْمَيْنِ دَخَلَ « الطَّاهِرُ » إِلَى الْمَسْجِدِ مُرْعِدًا ، مُزِيدًا ، مُزْجِرًا ،
صَائِحًا :

- ذَاكَ الْكَلْبُ خَرَجَ مِنَ السَّجَنِ وَهُوَ آتٍ الْآنَ .

وَأَحْسَتْ « زَيْنَبُ » كَأَنَّ خُنْجَرًا غَرَسَ فِي قَلْبِهَا وَبَقِيَ أَفْرَادُ الْعَائِلَةِ فِي سَهْمٍ نَامٍ
ثُمَّ تَفَرَّقُوا كَأَنَّهُمْ يَتَوَقَّعُونَ شَرًّا سَيَجْلُ بِوَجْهِهِ وَكَأَنَّهُمْ قَطِيعُ مِنَ الْغَنَمِ أَحْسُ بِقُدُومِ
الذِّئْبِ .

وَدَخَلَ « النَّاصِر » بَعْدَ دَقَائِقَ وَهُوَ وَاجِمٌ وَتَوَجَّهَ رَأْسًا إِلَى عُرْفَةِ أُمِّهِ ، وَلَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا الْبُكَاءَ بِصَوْتٍ عَالِمٍ تَحْوَلُ إِلَى شَهيقٍ . وَبَكَى كُلُّ مَنْ فِي الدَّارِ إِلَّا « الطَّاهِر » الَّذِي نَادَى « سَكِينَةَ » وَصَاحَ بِصَوْتٍ عَالِمٍ بِحَيْثُ يَسْمَعُهُ كُلُّ مَنْ فِي الْبَيْتِ :

- أَنْتَ طَالِقٌ ثَلَاثًا إِنْ أَنْتِ خَاطَبْتِ أَوْ خَاطَبَكَ هَذَا الْكَلْبُ الْكَرَّاكِي .
وَسَكَنَ كُلُّ شَيْءٍ فِي الْبَيْتِ ، وَبَدَأَ أَفْرَادُهُ يَتَقَاطَرُونَ عَلَى « النَّاصِر » وَهُوَ فِي الْغُرْفَةِ ، وَيُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ وَيَتَعَرَّفُونَ إِلَى أَبْنَاءِ « سَكِينَةَ » الَّتِي بَقِيَتْ فِي غُرْفَتِهَا لَا تَتَحَرَّكُ ، وَلَا تَنْبَسُ بِنَسْفَةٍ .

ثُمَّ شَعَرَ الْجَمِيعُ بِحَرَكَةٍ فِي الْفِنَاءِ وَإِذَا بِزَيْنَبَ « تَجَرَّ مَعَهَا » النَّاصِرُ مِنْ يَدِهِ وَكَتَبَهُ إِلَى دُكَّةِ الْبُهِوْحِ حَيْثُ كَانَ « الطَّاهِر » جَالِسًا يُطَالِعُ كِتَابًا ، وَأَمَامَهُ عُدَّتُهُ مِنْ عُلَبِ سَفَائِرٍ مُتَوَعِّةٍ وَغِلَافَاتٍ لَهَا ، وَ« مَبْسَمٍ » مُزُوقٍ بِالْفِيضَةِ وَحَقِيقَةِ نَفْسٍ مُفَضَّضَةٍ وَقَارُورَةٍ عَطِرَةٍ كَانَ يُعْطَرُ بِهَا نَفْتُهُ وَبِجَانِبِ كُلِّ هَذَا طُرْبُوشُهُ .
قَالَتْ زَيْنَبُ :

- هَذَا إِبْنُكَ جَاءَ يَبُوسُ يَدَكَ وَيَطْلُبُ مِنْكَ السَّهَاحَ .
وَلَمْ يَحْرُكْ « الطَّاهِر » سَاكِنًا وَأَطْرَقَ مُتَمَتِّيًا كَلِمَاتٍ فِيهَا السُّخْطُ الْوَاضِحُ وَمَذَّ يَدُهُ فَقَبَّلَهَا « النَّاصِر » وَخَرَجَ بِأَكْبَى .

وَأَسْتَقَرَّ « النَّاصِر » فِي غُرْفَةِ أُمِّهِ وَأَخْرَجَ مِنْهَا كَافَّةَ إِخْوَتِهِ وَصَارَ يَتَصَرَّفُ فِي الدَّارِ بَعْدَ خُرُوجِ « الطَّاهِر » تَصَرَّفَ الطَّاعِيَّةِ مَعَ اسْتِعْمَالِ أَسَالِيبَ تَعَلُّمِهَا فِي السُّجْنِ وَحَدِّقَهَا وَزَادَ عَلَيْهَا نَظْرًا إِلَى « ثِقَافَتِهِ » النَّسِيبَةِ .

وَأَعْتَقَدَ الْجَمِيعُ أَنَّ « النَّاصِرَ » انْحَرَفَ عَنِ الْجَادَةِ وَأَصْبَحَ لَا يَتَوَرَّعُ مِنْ اسْتِعْمَالِ كُلِّ الْوَسَائِلِ لِلْوُصُولِ إِلَى رَغْبَاتِهِ ، وَأَدْخَلَ الْقَهْرَ إِلَى الدَّارِ ، وَجَعَلَ الْقُرْفَةَ مَحَلًّا لِتَذْخِينِ « التَّكْرُورِيِّ » وَأَشَاعَ الرُّغْبَ فِي الذُّكُورِ وَالْأُنَاثِ وَتَأَوَّأَ « سَالِمٌ »

الشيخ
الشيخ



الناس

وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجُلُوسَ تَحْتَ شَجَرَةِ التِّينِ ، وَالْخُرُوجَ مَعَ « أَلْعَمِّ صَالِحٍ » لِحِرَاسَةِ النِّسَاءِ فِي الشَّاطِئِ وَالْمُطَالَعَةَ بِالْقِرَاءَةِ الْعَلَنِيَّةِ أَمَامَ الْجَمِيعِ .

وَالْتَزَمَ « النَّاصِرُ » الْقَبُوعَ فِي الدَّارِ لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ وَخَوْفًا مِنَ التَّعْرِضِ بِهِ وَالسُّخْرِيَّةِ مِنْهُ فَكَانَ يَبْقَى فِي الْفِرَاشِ مُتَمَدِّدًا طَوْلَ النَّهَارِ عَارِيًا مُلْتَقًا بِسِلْحَقَةٍ وَإِذَا أَرَادَ الْخُرُوجَ مِنَ الْغُرْفَةِ لِقَضَاءِ بَعْضِ الْحَاجَةِ أَوْ التَّذَخُّلِ فِيمَا لَا يَغْنِيهِ لَيْسَ جُتَّةً وَأَطْلُ يُسْتَعْرِضُ عُضَلَاتِهِ فَيَتَحَاشَاهُ كُلُّ أَفْرَادِ الْعَائِلَةِ .

أَمَّا فِي اللَّيْلِ فَإِنَّهُ يَسْهُرُ فِي الْفَنَاءِ يَعْدُو النَّجُومَ وَيُدَحْنُ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ مِنْ قَارُورَةٍ يَحْفِيهَا تَحْتَ جُبَّتِهِ ، وَيَتَنَاوَلُ حَشِيشَةَ « الثُّكْرُوبِيِّ » وَهُوَ لَا يَتَوَارَى عَنِ الْأَنْظَارِ إِلَّا إِذَا جَاءَ « الطَّاهِرُ » فَيَتَحَوَّلُ مِنْ تِلْكَ النَّارِ الْمَوْقِدَةِ إِلَى رَمَادٍ وَهَشِيمٍ .

وَفِي رَاقِعِ الْأَمْرِ فَإِنَّ « الطَّاهِرَ » كَانَ يَحْفَى « النَّاصِرَ » وَيَعْرِفُ أَنَّهُ لَا يَتَوَرَّعُ فِي ارْتِكَابِ آيَةٍ جَرِيمَةٍ تَحْطُرُ بِهَا . وَلِهَذَا فَهُوَ يَتَحَاشَاهُ وَيَحْشُرُ كُلَّ الْبَنَاتِ فِي « السُّدُورِ » الْمُسْقِطَةِ لَهُ وَيُقْبِلُ الْأَبَابَ بِالْمِفْتَاحِ ، وَيَعْلَقُهُ بِسَارٍ قَرِيبٍ مِنْهُ . وَإِذَا اضْطُرَّ أَحَدٌ إِلَى الْخُرُوجِ بِاللَّيْلِ فَإِنَّ الْأَبَابَ لَا يُفْتَحُ إِلَّا بِصُعُوبَةٍ وَيُخْدِثُ حَسَبِجًا وَجَلْبَةً يَسْتَتِيقُ عَلَى إِفْرِهَا « الطَّاهِرُ » وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ مُنَادِيًا وَيَتَعَرَّفُ إِلَى الْخَارِجِ وَيَنْتَظِرُهُ حَتَّى يَرْجِعَ وَيَأْخُذَ مَكَانَهُ مِنْ جَدِيدٍ .

أَمَّا الْأَبَابُ الصَّغِيرُ الْمَوْجُودُ فِي السَّحْبَةِ وَالْمُسْفُضِي إِلَى الْفَنَاءِ فَهُوَ مُقْفَلٌ دَائِمًا مِنَ الدَّاخِلِ . وَلَا تَدْخُلُ « سَكِينَةُ » إِلَى هَذَا السَّحْبَةِ إِلَّا مِنْ مَتَفَذِّ كَاتِنٍ يَغْرِفُهَا وَهُوَ مُوصَدٌّ فِي الْأَغَالِبِ وَيَفْتَحَاهُ عِنْدَهَا لِأَنَّ هَذَا الْمَكَانَ هُوَ مَسْتَوْدَعٌ سِرًّا فِيهِ حَلِيَّتُهَا وَنِيَابَهَا الْعَالِيَةِ الثَّمَنُ وَأَنَابُهَا وَيَوْمَ تَنْسَرُّ فِي اللَّيْلِ بَعْدَ أَنْ يَسْرَحَهَا « الطَّاهِرُ » مِنَ الْفِرَاشِ ، لِيُطْفِئَ نِيَابَ الْغَرَائِيسِ .

وَكَانَ « الطَّاهِرُ » يَحْبُذُ تَشَاطُ « سَكِينَةَ » فِي السَّحْبَةِ بِاللَّيْلِ ، وَيَعْتَبِرُهُ مَوْزِدًا مِنْهَا يَنْتَرُهُ لَهَا رَغَمَ تَسْمِعِهَا وَتَعْمَلُهَا بِأَنَّ ذَلِكَ مُعَذِّ لِيَتَجَهَّزَ إِنْتِهَاهَا « فَاطِمَةُ » وَمَنْ

سَيَاتِي بَعْدَهَا .

وَلَكِنَّهَا تَضْطَرُّ إِلَى تَسْلِيمِ أَمْرِهَا لِلَّهِ فَتُعْطِيهِ مِنْهُ التَّصِيبَ الَّذِي يُرِيدُو وَهِيَ
مُبَيَّنَةٌ الْخِذَاعِ وَالْتَحِيلِ إِذْ لَا تَسْرُ أَيَّامٌ حَتَّى تَسْتَرْجِعَ أَعْصَافَ ذَلِكَ السِّقْدَارِ بِحِيلِهِ
لَا تُقَدِّرُ عَلَيْهَا إِلَّا هِيَ .

وَقَعِيرُ « النَّاصِرِ » مِنَ الثَّوْرِ الْمُنْبَعِثِ مِنْ بَابِ الْمَحْجَا إِلَى الْهَزِيعِ الْأَخِيرِ مِنَ
الْلَيْلِ ، وَحَاوَلَ أَنْ يَتَيَّنَّ السَّرَّ فَلَمْ يَتِمَّكُنْ مِنْ رُؤْيَايَ أَيَّ شَيْءٍ مِنَ الشُّقُوقِ
السُّوْجُودِ . فَبَيَّتَ الْأَمْرَ وَاشْتَرَى ثِقَابَةً صَغِيرَةً وَفِي اللَّيْلَةِ السَّوَالِيَةِ ثَقَبَ بِدُونِ أَنْ
يَنْطَلِقَ أَحَدُ ثِقَبَةٍ كَشَفَتْ عَنْ كُلِّ مَا فِي الْمَحْجَا .

لَمْ يَتَصَوَّرْ أَنَّ الْمَحْجَا مَهْيَأٌ بِذُوقٍ عَلَى تِلْكَ الشَّاكِلَةِ قَارِضُهُ مَفْرُوشَةٌ بِحُلُودِ
الْخِرْقَانِ الْبَيْضَاءِ النَّاصِعَةِ الَّتِي تَزْدَادُ بَرِيقًا عَلَى ضَوْوِهِ مِصْبَاحِ الْبُشْرُولِ ، وَعَلَى
الْجُذْرَانِ غُلَقَتْ تَحْفٌ كَثِيرَةٌ مَنْسُوجَةٌ بِالْقَصَبِ أَوْ مَصْنُوعَةٌ مِنَ الْخَشَبِ الرَّيِّعِ ،
وَعَلَى السَّرَافِعِ السَّرُوقَةُ بِالْأَلْوَانِ الزَّاهِيَةِ وَضِعَتْ أَوَانٌ مِنَ الْخَزَفِ مَرْبُوبَةٌ تَرْتِيبًا يَأْخُذُ
بِالْأَلْبَابِ . وَشَدَّتْ إِلَى الْمَسَانِيبِ الْخَشَبِيَّةِ الْجَمِيلَةِ ثِيَابٌ مُطَرَّزَةٌ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ .

أَعْجَبَ « النَّاصِرِ » بِهَذَا الْمَخْدَعِ الشَّيْءِ بِخَادِعِ أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ وَلَكِنَّهُ
إِذْ هَشَّ عِنْدَمَا رَأَى « سَكِيلَةَ » فِي مَبَاذِلِهَا وَشَعْرَهَا مُنْسَدِلٌ وَهِيَ مُنْكَبَةٌ عَلَى
مَنْسَجِهَا تُطَرِّزُ فِي أَنَاةٍ وَتَثْبَتُ كَيَرَيْنَ وَيَغْلِبُهَا الثَّعْبُ فَتَضَعُ الْمَنْسَجَ وَتَتَمَدَّدُ
فَتَتَكَلِّفُ مَقَاتِلَهَا مُشِيرَةً إِلَى بَقَايَا شَتَابٍ قَادِرَةٍ عَلَى الذَّهَابِ بِالْعُقُولِ .

وَجَنَّ جُنُونُ « النَّاصِرِ » وَهُوَ الْمُسْتَعْوَى عَلَى الْجُرَاةِ وَحَتَّى الْاِغْتِصَابِ ، وَفَكَرَ فِي
طَرَقِ الْأَبَابِ وَلَكِنَّهُ أَحْجَمَ عَنْ ذَلِكَ ، خَوْفًا مِنَ « الطَّاهِرِ » وَاعْتِقَادًا مِنْهُ أَنَّ الْمَرْأَةَ لَنْ
تَفْتَحَ لَهُ الْأَبَابَ أَبَدًا ، وَأَنَّهَا قَدْ طَلَقَتْ حَيَاتَهَا السَّابِقَةَ بِدُونِ رَجْعَةٍ وَصَمَّمَتْ عَلَى أَنْ
تَعْكِفَ عَلَى تَرْبِيَةِ أَبْنَائِهَا ، وَتُكَوِّنَ عَائِلَةً مِنْ جَدِيدٍ تَلِيَّةٍ لِرَغْبَةِ « الطَّاهِرِ » الْمَوْلَعِ
بِالْأَكْفَارِ مِنَ النَّسْلِ لِلتَّجَاهِي ، وَبِنِعِ الْمَنْعِ الْعَائِلِيَّةِ . وَبَعْدَ هَذِهِ قَامَتْ

« سَكِيلَةَ » فَكَشَفَتْ عَنْ حَبَائِهَا أُخْرَى لَمْ يَرَهَا « النَّاصِرِ » ثُمَّ أَخَذَتْ الْمَصْبَحَ وَخَرَجَتْ مِنَ الْمَحْجَا وَسَمِعَ صَوْتُ الْوَسْطَانِ يَدُورُ فِي الْقَفْلِ فَهَضَّ سَاجِطًا غَاضِيًا .

وَكَانَ « النَّاصِرِ » جَمِيلَ الطَّلَعَةِ كَامِلَ الْجِسْمِ ، قَوِيَّ الْبَنِيَّةِ ، يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ لَنْ يُسْكِنَ لِأَيِّهِ إِمْرَأَةً أَنْ تُصَدَّهُ عَنْ نَفْسِهَا مَهْمَا كَانَتْ وَأَيَّا كَانَتْ . وَلَهُ فِي ذَلِكَ حَوَاضٌ عَرَضَ نَفْسُهُ فِيهَا لِلْمَوْتِ فِي بَعْضِ الْأَخْيَانِ وَالسَّجْنِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَرَاتِ .

صَنَمَ « النَّاصِرِ » عَلَى إِخْضَاعِ هَذِهِ الْمَرَأَةِ الَّتِي تَسَبَّيْتُ فِي قَهْرِ وَالِدَتِهِ وَالْإِسْتِثَارِ بِكُلِّ شَيْءٍ فِي السَّمْنِ ، وَجَعَلَتْ مِنْ إِحْوَاهِ وَأَحْوَاتِهِ خَدَمًا لَهَا وَلَا تَنَائِيًا : هَؤُلَاءِ لَهُمُ الْمَأْكَلُ الطَّيِّبُ وَالْمَسْتَبَسُّ الْحَسَنُ ، وَأُولَئِكَ تُصِيبُهُمُ الْفَضَلَاتُ . وَرَغَمَ هَذَا ، فَهِيَ تَتَجَبَّحُ بِعَدَائَتِهَا وَبِحُبِّهَا « لِزَيْنَبَةَ » وَلَا تَنَائِيًا وَبَنَائِيًا : سِيَّاسَةً فِيهَا مِنَ الدَّقَاءِ مَا أَغَاضَ « النَّاصِرِ » وَزَادَهُ تَصْغِيرًا عَلَى تَصْغِيرِهِ .

وَكَانَتْ « سَكِيلَةَ » رَغَمَ سَهَرِهَا ، مُرْغَمَةً عَلَى التَّهْوُسِ مُبَكَّرَةً لِإِعْدَادِ طَعَامِ الْفُطُورِ لِزَوْجِهَا وَلَوْ أَحْضَرْتُ فِيمَا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْعَوْدَةِ إِلَى النَّوْمِ . فَأَصْبَحَ « النَّاصِرِ » يَتَرَصَّدُهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فِي الْمَطْبَخِ مُوَهَّبًا أَنَّهُ دَاخِلٌ إِلَى بَيْتِ أَخْلَاءِ ، وَيَقِفُ لَهَا فِي رُكْنٍ ، وَيَكْشِفُ لَهَا عَنْ عَوْرَتِهِ كَمَا فَعَلَ ذَلِكَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ عِنْدَمَا تَبَارَزَا ، فَلَمَّا خَافَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ مِنَ ضَرْبَةِ سَيْفِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، كَشَفَ لَهُ عَنْ عَوْرَتِهِ ، فَأَغْضَى عَلَيْهِ بِبَصَرِهِ ، وَكَفَّ عَنْهُ ، فَوَقَّتْ وَأَوْ عَمْرُو هَذَا الدَّاهِيَةَ أَكْثَرَ مِمَّا سَمَّاهُ سَيْفُهُ وَلَوْ أَرَادَ عَلِيُّ أَنْ يَجْعَلَهُ مَقْعُولًا بِدِلَالِ الْأَوَّهِ وَأَرَاخَهُ مِنَ الْوُجُودِ .

وَلَمْ يَقْنَعْ « النَّاصِرِ » بِمَا فَعَلَهُ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ لِيَنْتَصِرَ عَلَى عَلِيٍّ وَيُغْلِبَ مِنْ

قَبْضَتِهِ بَلْ كَانَ فِي بَعْضِ الْأَخْيَانِ يَتَنَقَّنُ فِي إِطَالَةِ شَيْئِهِ إِلَى أَنْ يَزْدَرَعَ أَرْضَ
الْمَطِيخِ بِذَوْرِهِ ثَمَّ يَرْوِعُ « سَكِيلَةَ » وَيُجْبِرُهَا عَلَى الْخُرُوجِ .
وَيُصَادِفُ أَنْ يَأْتِي فِي بَعْضِ السَّرَاتِ « الطَّاهِرِ » فَيَلْمَحُهُ « النَّاصِرِ » مِنْ
بَعِيدٍ فَيَدْخُلُ بَيْنَ الرَّاحَةِ فَيَتَضَايِقُ مِنْ ذَلِكَ « الطَّاهِرِ » وَيُعْبِرُ عَنْ سُخْطِهِ لِأَنَّهُ لَا
يُرِيدُ الْإِظْطَارَّ وَلِأَنَّهُ يَتَخَوَّفُ مِنْ « النَّاصِرِ » وَمِنْ أَغْيَالِهِ الذَّيْبَةِ .
وَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا فِي خِصَامٍ مَعَ « سَكِيلَةَ » وَغَضَبٍ عَلَى جَمِيعِ أَفْرَادِ الْعَائِلَةِ .
وَلَكِنَّ « النَّاصِرَ » لَا يَزْعَوِي بَلْ هُوَ مُصَمَّمٌ عَلَى الْإِثْقَامِ مِنْ هَذِهِ السَّرَاوِ وَمِنْ
« الطَّاهِرِ » .

وَصَادَفَ أَنْ كَانَ ، فِي لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيَالِي الْمَظْلَمَةِ ، قَائِمًا فِي رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْبَيْتِ ،
مُتَمَدِّدًا وَإِذَا بِسَابِ الْمَحْبَا يُفْتَحُ بِرَفْقٍ وَتَخْرُجُ « سَكِيلَةَ » مَلْفُوفَةً بِمَنْوِيلٍ ، وَتَنْجِبُهُ
نَعْوُ الْمَطِيخِ وَتَغِيَّبُ فِيهِ فَيَقُومُ « النَّاصِرُ » بِسُرْعَةٍ وَيَدْخُلُ الْمَحْبَا وَيَخْتَبِئُ فِي
مَكَانٍ لَا تَرَاهُ عِنْدَ الدُّخُولِ وَيَنْتَظِرُ وَقَلْبُهُ يَدُقُّ دَقَاتٍ قَوِيَّةٍ وَأَنْفَاسُهُ مَجْبُوسَةٌ .
وَحَسِبَ أَنْ الزَّوْقَ يَطُولُ وَيَطُولُ أَكْثَرُ مِنَ اللَّيَالِي الَّتِي بَقِصَاهَا فِي الْإِظْطَارِ .
وَإِذَا « سَكِيلَةَ » تَسَلَّلَ إِلَى الْمَحْبَا وَتَغْلِقَهُ . فَيَقِفُ لَهَا « النَّاصِرُ » فِي جَنِبِهِ
وَيَضَعُ إصْبَعَهُ عَلَى فَمِهِ وَيُعَيِّرُ إِلَيْهَا فِي انْتِهَاءِ « الطَّاهِرِ » النَّائِمِ ثُمَّ يَهْرُ بِدَعِ عَلَى
رَقَبَتِهِ مِنْهَا إِنَاهَا أَنْ رُوجَهَا لَوْ قَطِنَ بِهَذَا الْأَمْرِ لَقَتَلَهَا .

وَوَقَّتْ « سَكِيلَةَ » سَاهِمَةً لَا تَدْرِي مَا تَفْعَلُ حَتَّى عَاجَلَهَا بِضَمَّةٍ وَقَبْلَةً لَمْ تَقَرَّ
عَلَى مُدَافَعَتِهَا . فَتَهَاوَتْ عَلَى الْأَرْضِ وَالسَّاقَتِ فِي بَحْرِ مِنَ الشَّهْوَةِ لَمْ تَعْرِفْهُ مُنْذُ
زَمَانٍ حَتَّى أَصَابَهَا شَيْءٌ مِنَ الْغَشْيَانِ وَهِيَ حَالَةٌ لَا تَعْرِفُهَا إِلَّا مَرَّةً بَعْدَ الْأَيِّ عِنْدَمَا
تَمْلُكُ بِهَا اللَّذَّةُ إِلَى خَدِّ الْفَنَاءِ فِيهَا . وَذَمِرُ « النَّاصِرِ » مِنْ خَالِ السَّرَاوِ وَنَظَرُ إِلَى يَدَيْهِ
الْمَجْرِمَتَيْنِ ظَالِمًا أَنَّهُ أَخَذَ أَنْفَاسَهَا أَثْنَاءَ طُعْيَانِ اللَّذَّةِ وَحَرَكَتِهَا بِشِدَّةٍ فَفَتَحَتْ عَيْنَيْهَا
وَصَمَّتُهُ إِلَى صَدْرِهَا فِي ارْتِهَاءٍ مَجْثُونٍ .

وَأَصْبَحَتْ « سَكِينَةٌ » مِنْ ذَلِكَ أَلَوْتِ أَسِيرَةً « النَّاصِر » يَتَرَصَّدُهَا فِي اللَّيْلِ
أَمَامَ الْمَسْجِدِ فَتَفْتَحُ لَهُ أَلْبَابَ كَانَتْهَا مَسْجُورَةً وَتُغْنِي وَفَتْهَا الْمَرْصُودَ لِلتَّطْيِيرِ فِي
عَمَلٍ مِنْ طَرَاظٍ آخَرَ .

أَمَّا « عَائِشَةُ » فَإِنَّهَا زَادَتْ حُبًّا لِسَالِمٍ بِفَقْدَانِ حِكَايَاتِهِ ، وَلَمَسَاتِهِ ، وَنَظَرَاتِهِ
الْحُلُوقِ . فَيَتَمَلَّكُهَا الْأَرْقُ وَتَتَمَلَّلُ فِي فِرَاشِهَا السَّاعَاتِ الطُّوَالَ ، فِي سُكُونِ
اللَّيْلِ الْبُهِيمِ . غَيْرَ أَنَّهَا أَصْبَحَتْ تَسْمَعُ فِي اللَّيَالِي الْأَخِيرَةِ حَرَكَةَ وَأَنفَاسًا مُتَقَطِّعَةً
فَحَتَّ الْفَرَاشِ الْوَاغِعِ فَوْقَ الْمَسْجِدِ . فَدَفَعَهَا الْفُضُولُ إِلَى إِزَاحَةِ الْبَسَاطِ مِنْ تَاجِيَةِ
أَهْدَادٍ فَظَهَرَتْ لَهَا شُقُوقٌ يَنْبَغِثُ مِنْهَا نُورٌ خَافِتٌ فَالْكَبْتُ بِإِصْرَارٍ وَإِذَا بِهَا تَلَمَّحُ
« سَكِينَةٌ » وَ « النَّاصِر » غَارِبَيْنِ فِي وَضْعٍ لَمْ تَكُنْ لَتَتَوَقَّعُهُ .

وَحَظَرَ بِبَالٍ « عَائِشَةُ » أَمْرَ لَمْ تَتَرَوْ مِنْهُ ، وَحَسِبَتْ بِرَأَاهِئِهَا أَنَّهُ سَيُسْهَلُ عَلَيْهَا
الزَّوْجَ مِنْ « سَالِمٍ » وَيُعْجَلُ أَيْضًا بِزَوَاجٍ « فَاطِمَةُ » مِنْ « النَّاصِر » . فَهِيَ لَمْ
تَتَرَدَّدْ سَابِقًا فِي الْقِيَامِ بِدَوْرِ الرُّسُولِ بَيْنَ « فَاطِمَةَ » وَ « النَّاصِر » وَإِحْصَارِ تَارِ
الشُّوقِ فِي صَاحِبَيْتِهَا . وَأَبْقَطَتْ « فَاطِمَةُ » وَذَلَّتْهَا عَلَى الشُّوقِ فَرَأَتْ مَا رَوَّعَهَا
وَأُبْكَاهَا وَخَدَّرَ أَغْصَابَهَا . وَسَكَنَتْ تَنْتَظِرَانِ الصَّبَاحَ .

وَمِنْ الْغَدِ ، لَمْ تُعْرِفْ « سَكِينَةُ » لِسَادَا تَقَدَّمَتْ إِلَيْهَا « زَيْنَةُ » فِي الصَّبَاحِ
الْبَاكِرِ وَكَلَّمَتْهَا فِي شَأْنِ زَوَاجٍ « فَاطِمَةُ » مِنْ « النَّاصِر » وَلَمْ تُعْرِفْ لِمَ خَاطَبَهَا
زَوْجُهَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ قَائِلًا :

- السَّهْرُ كَثِيرٌ وَتَحْصُولُ الْبَالُ قَلِيلٌ . وَأَنْتِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ تَهْرَبِينَ مِنَ الْفَرَاشِ ،
وَتَتَعَلَّلِينَ بِإِكْمَالِ قِطْعَةٍ كَذَا أَوْ كَذَا مِنَ اللَّبَاسِ . وَأَنَا لَا أَرَى إِنْجَازًا وَلَا مَالًا . هَلْ
يُغْلِيكَ النَّوْمُ أَمْ مَاذَا ؟

وَلَمْ تُعْرِفْ أَيْضًا ، لِمَ وَقَفَ فِي وَسَطِ الْفَنَاءِ ، مُتَّجِهَا إِلَى الْغُرْفَةِ الثَّانِيَةِ فِيهَا
« النَّاصِر » وَصَاحَ قَائِلًا :

- كَيْفَ ؟ شَابُ مِثْلَ هَذَا الْكَلْبِ ، الْكَرَّاكِي يُفِيقُ بِاللَّيْلِ ، وَيَرْفُدُ بِالنَّهَارِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ بِاسْمِ اللَّهِ ، كُلَّمَا قُمْتُ لِقَضَاءِ الْحَاجَةِ أَجِدُهُ يَرُدُّ فِي الْفَنَاءِ أَوْ فِي السَّطْحِ ... أَخْرَجَ مِنْ دَارِي ... وَأَذْهَبَ حَيْثُ شِئْتُ فِيمَا أَنْ تَحِدَ عَمَلًا أَوْ تَدْخُلَ السُّجُنَ فَتُرَاحَ مِنَ الْكَأُوسِ الَّتِي أَذْخَلْتَهُ عَلَى الدَّارِ . مِنْ الْيَوْمِ فَصَاعِدًا لَا أُرِيدُ أَنْ أَرَى وَجْهَكَ هُنَا .

وَعَزَّتْ « سَكِينَةُ » هَذَا الْإِجْرَاءَ الَّذِي سَيُخَلِّصُهَا هِيَ وَأَبْنَتُهَا مِنْ قَبْضَةِ « النَّاصِرِ » إِلَى الْعَيْنَاةِ الْأَلَايَةِ وَإِلَى بَرَكَةِ « سَيِّدِي عَلِيٍّ السَّحْجُوبِ » رِفْقًا بِهَذِهِ الْعَائِلَةِ وَرِعَايَةً لَهَا .

وَتَنَفَّسَ الْجَمِيعُ الصُّعْدَاءُ إِلَّا « زَيْنَبُ » . وَذَهَبَ « النَّاصِرُ » إِلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ وَاتَّكَرَى دُكَّانًا جَعَلَهُ مَوْدًا لِلرُّزْقِ وَمَكَانًا يَأْوِي إِلَيْهِ بِاللَّيْلِ .

* * *

وَرَجَعَتْ أَلْيَاهُ إِلَى بَحَارِيهَا بِالنَّسْبَةِ إِلَى « عَائِشَةَ » وَلَكِنْ « فَاطِمَةُ » اغْتَلَّتْ ، وَلَزِمَتْ الْفَرَاشَ مِنْ دُونِ أَنْ يَعْرِفَ أَحَدٌ عَنْ سَبَبِ مَرَضِهَا إِلَّا « عَائِشَةُ » .

وَاسْتَأْنَفَ « سَالِمٌ » حِكَايَاتِهِ ، وَجَوَلَانِيهِ إِلَى الْبَحْرِ فِي اللَّيْلِ مَعَ النِّسَاءِ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ « عَائِشَةُ » وَأَصْبَحَتْ تَتَوَارَى مَعَهُ إِمَّا تَحْتَ أَشْجَارِ « الْجُنَّانِ » أَوْ فِي اللَّيْلِ قُرْبَ الْعَمِّ « صَالِحٍ » عِنْدَمَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ مِنَ النَّوْمِ .

وَكَسِبَتْ بَعْدَ الَّذِي شَاهَدَتْهُ ، وَسَمِعَتْهُ شَيْئًا مِنَ الْجَرَائِزِ وَالْفُضُولِ وَامْتَدَّتْ يَدَهَا إِلَى مَعَانِيهِ « سَالِمٌ » وَحَقِيقَتِ اللَّعْبَةِ وَأَعْجَبَتْهَا ، وَلَمْ تَقْرَأْ حِسَابًا لِعَائِيَةِ مَا أَسَاقَتْ إِلَيْهِ .

وَفِي قِيْلُولَةٍ مِنَ الْقِيْلُولَاتِ وَقَعَتْ فِيمَا لَمْ تَتَوَقَّعْهُ وَبَسَكَتْ بِكَأَمٍ مُرًّا ، وَلَا مَتَ « سَالِمٌ » عَلَى تَهْوِيرِهِ ، وَكَتَمَتْ أَمْرَهَا وَخَلَفَتْ أَنْ لَا يَسْمَعَهَا بَعْدَ هَذَا إِلَّا عِنْدَ الزَّوْاجِ .



سَلَامٌ

وَلَكِنْ تَجْرِي الرِّيحُ بِهَا لَا تَسْتَهِي السُّنُّ إِذْ أَرَادَ « سَالِمٌ » أَنْ يَتَلَقَّى الْأَمْرَ
فَكَلَّمَ أُمَّهُ فِي الزَّوْجِ « عَائِشَةُ » فَأَبَتْ رَغْمَ رِضَا « زَيْنَةَ » فَقَرَّرَ الْقَرْبَ بِالتَّطَوُّعِ
فِي الْجَنَّةِ الْفَرَّاسِي . وَقُلْتُ أَحْبَابُهُ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَحَزِنْتُ « عَائِشَةُ » حُزْنًا شَدِيدًا وَوَجَدْتُ
بِجَانِبِ « فَاطِمَةَ » وَهِيَ فِي الْفَرَّاسِ ، الْمُوَاسَاةُ ، وَالصَّبْرُ .

أَمَّا « الطَّاهِرُ » فَهُوَ لَمْ يَتَأَسَّفْ عَلَى ذَهَابِ هَذَيْنِ الصَّغُلُوكَيْنِ كَمَا يَقُولُ .
وَتَنَفَّسَ الصَّعْدَاءُ وَاعْتَقَدَ أَنَّهُ مَاسِكٌ بِمَقَالِيدِ بَيْتِهِ ، وَلَمْ يَعْرِفْ أَنَّ أَلْسَاءَ يَجْرِي تَحْتَهُ
وَهُوَ غَيْرُ مُتَنَظِّلٍ إِلَى مَا يَبْعُ .

وَجَاءَ الْحَرِيفُ وَرَحَلَ الْجَمِيعُ إِلَى الْقَرْيَةِ ، وَاعْتَلَّتْ « سَكِينَةُ » عِلَّةً طَالَتْ بِهَا
وَالزَّمَتْهَا الْفَرَّاسُ ، وَفَرَّكَتْهَا فِي شَيْبِ غَيْبُوبَةٍ فَتَقَلَّبَتْهَا « زَيْنَةُ » إِلَى الْفَرَّاسِ
الْمُقَابِلِ ، وَأَجَلَّتْ أَلْبَتَاتُ إِلَى بَيْتِهَا ، وَحَشَرَتِ الذُّكُورُ فِي شَيْبِ الْغُرْفَةِ وَتَامَتْ هِيَ
بِجَوَارِ « سَكِينَةَ » تَرْعَاهَا وَتُرَضُّهَا .

وَوَجَدَ « الطَّاهِرُ » نَفْسَهُ فِي الْغُرْفَةِ مَعَ « زَيْنَةَ » فَتَنَبَّأَ أَنَّهُ مَتَحَهَا التَّغَاعُدَ
الزُّوجِيَّ الْوُجُوبِيَّ وَالتَّنَبَّأَ بِعَقْدِ جَدِيدٍ . وَعَلَى كُلِّ فَهْرٍ السَّيِّدُ الْمُسْلِقُ فِي
بَيْتِهِ . فَرَجَعَتْ إِلَى فَرَّاسِهِ وَهُوَ يُرَدِّدُ عَلَى مَسْمِعِهَا فِي كُلِّ مَرَّةٍ :

- « سَكِينَةُ » لَا تَشْعُرُ بِشَيْءٍ إِنَّهَا فِي غَيْبُوبَةٍ .

وَيَتَأَلَّ مِنْ « زَيْنَةَ » وَطَرَهُ كَمَا يَشَاءُ . وَقَدْ أَصْبَحَتْ لَا يَمُكُّهَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ إِذْ
هِيَ تَعْتَبِرُ نَفْسَهَا مِنْذُ زَمَانٍ مَتَاعًا ، أَوْ شَيْئًا يَتَصَرَّفُ فِيهِ « الطَّاهِرُ » مِنْ دُونِ
مُشَاوَرَةٍ أَوْ أَخْذِ الرَّأْيِ .

وَفِي الْاِكْتِنَاءِ كَانَ يُسْمَعُ « لِسَكِينَةَ » أُنْبُيْهَا ، وَكَانَتْهَا شَاعِرَةً وَمَا يَقَعُ حَوْلَهَا
وَلِكُلِّهَا لَا تَقْوَى عَلَى الْحَرَكَاتِ وَالْكَلَامِ .

وَبَعْدَ شَهْرَيْنِ أَهْضَمَتْ « سَكِينَةُ » وَبَدَأَتْ تَتَعَالَى . ثُمَّ قَامَتْ وَكَانَتْهَا الْأَنْعَى
الْمُتَجَسِّدَةُ بِرَدَا وَائْتَعَشَتْ بِالْحَرَارَةِ ، وَاسْتَرْجَعَتْ كُلَّ مَقَالِيدِ الدَّارِ . وَلَكِنْ

« الطاهر » أَصْبَحَ بَعْدَ ذَلِكَ يُتَاوَى « زُبَيْدَةَ » : أُمِّي . بَعْدَ أَنْ كَانَ يُتَاوِيهَا : هَاهُنَا .
لَمْ تَحْدُثْ « عَائِشَةَ » لِأُمِّهَا وَلَا « فَاطِمَةَ » بِسَاءَ وَقَعَ لَهَا ، وَكَتَمْتَ سِرَّهَا فِي
صَدْرِهَا وَغَايَةُ أَمَلِهَا أَنْ يَنْسَاهَا النَّاسُ جَمِيعًا ، وَيَتْرُكَهَا « الْخَطَّابُ » بَعِيدَةً عَنْ
غُيُوبِهِمُ الْمُتَتَفَحِّصَةِ وَأَيْدِيهِمُ الْمُتَلَمِّسَةِ وَالسِّنِّتِهِمُ الْوَاصِفَةِ الْمُتَفَرِّقَةِ .
وَلَكِنْ كَيْفَ يُسْكِنُ ذَلِكَ وَالْعَجَائِزُ الزَّائِرَاتُ لَا يَفْتَأْنَ يَطْهَرْنَ مِنْ حِينَ إِلَى آخَرٍ ،
وَالْحَمَامُ لَا تَحْلُو مِنْهُ أَمْ تَبْعَثُ عَنْ زَوْجَةٍ لِابْنِهَا ، وَلَا عَجُوزٌ تُفْتَشُ عَنْ ضَرَوْ زَوْجَةٍ
مَلَّ مِنْهَا بَعْلُهَا .

وَحَدَّثَ بِسُرْعَةٍ مَا لَمْ تَتَوَقَّعْهُ « عَائِشَةُ » إِذْ أَعْلَنَ « الطاهر » أَنَّهُ « أُعْطِيَ
الْكَلِمَةَ » لِغُرَيْبٍ مِنْ أَقْرَبَائِهِ فِي الْبِنَاءِ بِابْنَتِهِ . وَزَعَرَدَتْ « زُبَيْدَةُ » وَأَمْسَكَتْ
« سُكَيْلَةَ » .

وَجَاءَتْ أُمُّ « خَالِدٍ » بِالْخَطْبَةِ ، وَفَرِحَ الْجَمِيعُ إِلَّا « عَائِشَةَ » حَتَّى « سُكَيْلَةَ »
فَإِنَّهَا اعْتَقَدَتْ فِي نَفْسِهَا أَنَّ ذَلِكَ يُخَفِّفُ عَنْ « الطاهر » حَوْلًا وَيَبْعَلُهَا تَنْفَرِدُ شَيْئًا
فَشَيْئًا بِالْبَيْتِ هِيَ وَأَبْنَاؤُهَا ، أَمَّا الْآخَرُونَ فَتَتَمَنَّى لَهُمُ الرِّجِيلَ بِأَيَّةِ صُورَةٍ كَانَتْ .
وَزَارَ « خَالِدٌ » بَيْتَ « الطاهر » وَتَسَاوَلَ طَعَامَ الْغَدَاءِ فِي « قَبْوِ » غُرْفَةِ
« سُكَيْلَةَ » وَخَرَجَتْ لَهُ « زُبَيْدَةُ » شَيْبَةً مُلْتَحِفَةً وَسَلَّمَتْ عَلَيْهِ ، وَاعْتَكَلَتْ
« سُكَيْلَةَ » يَوْمَهَا فِي الْمَحْجَا ، الشَّيْبِ بِمَحْجَا الْمَصِيفِ وَالَّذِي نَقَلَتْ إِلَيْهِ كُلُّ
شَيْءٍ لِأَنَّهُ أَعَزُّ مَا تَسْلُكُهُ .

وَأَعْجَبَ الْجَمِيعُ « بِخَالِدٍ » : شَابٌ فِي الثَّلَاثِينَ مِنَ الْعُمُرِ ، طَوِيلُ الْقَامَةِ ، أَسْمَرُ
الْوَدْنِ ، قَوِيُّ الْإِبْنِيَّةِ ، حَادُّ النُّظَرَاتِ ، طَلِيقُ اللِّسَانِ ، فِي صَوْنِهِ رُجُولَةٌ وَحَزَمٌ .
كَانَ لَا يَسَاءُ بِذَلِكَ الْجُنُودِيَّةِ الرُّسُومَةِ ، الْفَرَنْسِيَّةِ بِرُتَبِهِ وَكِلِمَةٍ ، فَرَادَتُهُ بَهَاءً ، وَجَلَالًا ،
وَكَأَنَّهُ كَانَ يَحْسُ بِإِعْجَابِ النَّاسِ بِهِ ، فَلَا يَتْرُكُ فُرْصَةً لِيَتَحَايَلَ فِي مَشْيَتِهِ
كَالطَّائِوُسِ وَيَقُومُ بِحَرَكَاتٍ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ التَّصَنُّعِ .



حنان

وَكَيْفَ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ وَهُوَ الَّذِي خَاصَ الْحَرْبَ الْعَالَمِيَّةَ الثَّانِيَّةَ ، ثُمَّ عَاشَ فِتْرَةً فِي قَرْسَا ، وَعَاشَرَ مِنَ الْفَرَسِيَّاتِ مَنْ كُنَّ يَرْغَبْنَ فِي الزَّوَاجِ مِنْهُ وَلَكِنَّهُ أَثَرُ الْبِنَاءِ بِابْنَةِ بِلَاوُو .

وَاتَّفَقَ « الطَّاهِر » وَ « خَالِد » عَلَى تَارِيخِ الزَّوَاجِ . وَبَدَأَتْ التَّحْضِيرَاتُ وَالْغِنَاءُ وَالرَّقْصُ فِي كُلِّ وَقْتٍ حَتَّى إِذَا كَانَ « الطَّاهِر » مَوْجُودًا فِي الْبَيْتِ مَا عَدَا أَوْقَاتَ نَوْمِهِ .

وَدَخَلَتْ « عَائِشَةُ » فِي « الْحِجْبَةِ » . وَضَعُوهَا فِي السَّحْبَةِ السَّوْجُودِ فِي غُرْفَةٍ أَمُهَا . وَتَمَثَّلَتْ نَفْسَهَا كَالشَّائِةِ الْمَكْتَفَةِ ، السَّوْجُودِ لِلذَّبْحِ ، لَيْسَ لَهَا إِلَّا أَنْ تُحْدِ رَقَبَتَهَا لِلسَّكِينِ . وَالسَّكِينِ فِي هَذِهِ السَّوْجُودِ حَاقِيهِ .

تَذَكَّرَتْ مَا قَصَّتهُ عَلَيْهَا صَدِيقَتُهَا « زَيْتَب » بَعْدَ زَوَاجِهَا . لَقَدْ شَعَرَتْ نَفْسُ الشُّعُورِ ، وَأَصَابَهَا خَوْفٌ كَثِيرٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ الَّذِي يَتَعَمَّدُهُ الرَّجُلُ لِيُسِيلَ دَمَ الْفَتَاوِ فَكَأَنَّهُ قُرْبَانٌ يُقَدَّمُ عَلَى مَعْبِدٍ فَحَوْلَةَ الرَّجُلِ .

وَإِذَا كَانَ هَذَا شُعُورُ الْفَتَاوِ الْبِكْرِ نَيْلَةً وَقَالِيهَا . فَكَيْفَ يَكُونُ شُعُورُ « عَائِشَةُ » وَهِيَ إِمْرَأَةٌ مُنْذُ زَمَانٍ : إِنَّمَا تَتَحَسَّسُ السَّكِينِ عَلَى رَقَبَتِهَا .

دَخَلَتْ « عَائِشَةُ » الْحِجْبَةَ إِذَنْ بَعْدَ أَنْ جَاءَ إِلَيْهَا أَهْلُ الْعَرِيسِ وَهُمْ يَحْمِلُونَ مَعَهُمْ فِي الْمَرْسِمِ « الْحَقِيَابُط » وَ « الْمَعَاجِر » وَ « الْفُوطَاتِ » وَالْفَاكِهَةِ وَالْخُرْفَانِ وَلَمْ يَنْسَ أَبُوهَا فَبَعَثَ إِلَى دَارِ الْعُرُوسِ مِائَتِي بَيْضَةٍ وَطُيُورَ الدُّجَاجِ فِي عَاشُورَاءَ .

وَفِي « الْحِجْبَةِ » بَدَأَ إِعْدَادُ « عَائِشَةُ » لِلزَّوَاجِ وَتَمَثَّلَتْ نَفْسَهَا إِلَى « الْخَنَائَةِ » تُهَيِّئُهَا فِي هَذَا السَّحْبَةِ ، يَصْنَعُ السَّطْلِمِ الَّذِي لَا يُكِنُّ لَهَا أَنْ تَرَى مِنْهُ أَيَّ رَجُلٍ مِنَ الرِّجَالِ ، وَلَا تَأْكُلُ غَيْرَ « الْمُسْتَعْجَلَةِ » لِيَكْثُرَ لَحْمُهَا وَشَحْمُهَا وَيُصْقَلَ بِدَنِيهَا طَلِيًّا يَنْزِعَ مِنَ الْعَجِينِ لِيُصْنَعَ بَيْضَاءَ .

أَنَّهُمْ فِي كُلِّ هَذَا هُوَ الْأَتَوَى الشَّمْسُ لِيَكُونَ بَشَرَتُهَا بَيْضَاءَ نَاصِعَةً عَلَامَةً

عَلَى النَّمْعَةِ وَبُعْدًا مِنْ رَائِحَةِ أَيِّ سَوَادٍ أَوْ سُمْرَةٍ فَاحِشَةٍ تَكُونُ دَلِيلًا عَلَى هَجَانَةِ الْأَصْلِ .

وَأَسْتَعْرَبَتْ « عَائِشَةَ » كُلَّ هَذِهِ الطُّفُوسِ . وَلَكِنَّهَا اسْتَسْلَمَتْ لَهَا ، وَلَمْ تَنْصَحْ إِلَّا إِلَى أَمْرِ وَاحِدٍ وَهُوَ الْبُكَاءُ : يَجِبُ عَلَى الْغُرُوسِ أَنْ تَبْكِيَ فِي « الْحَبِيبَةِ » بُكَاءً عَالِيًا ، وَأَنْ تُجْهِشَ بِالْبُكَاءِ . وَلَكِنَّهَا لَمْ تُفِيزْ عَلَى ذَلِكَ . هِيَ بَكَتْ طَوِيلًا مُنْذُ زَمَانٍ فِي سِرِّهَا ، وَلَمْ تَبْقَ قَادِرَةً عَلَى إِخْرَاجِ دُمْعَةٍ وَاحِدَةٍ . فَكَانَتْ السَّرَاةُ تَقُولُ لَهَا : - مَا أَقْسَى قَلْبَكَ يَا بُنَيَّتِي . أَلَا تَخَافِينَ مِثْلَ كُلِّ الْبَنَاتِ الْغُرُوجَ مِنْ مَنْزِلِ أَبِيكِ إِلَى مَنْزِلِ غَرِيبٍ غَنَلِكِ .

فَتَقُولُ :

- إِنِّي سَأُخْرِجُ مِنْ جَنِيمٍ إِلَى جَنِيمٍ .

وَتَسْتَعْرِبُ السَّرَاةُ هَذَا الْكَلَامَ وَتَسْكُتُ فِي آخِرِ الْأَمْرِ .

وَسَمِعَتْ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ صَوْتَ الطُّبْلِ أَمَامَ الْمَنْزِلِ فَقِيلَ لَهَا : إِنَّ أَهْلَ رَوْحِهَا « جَسَبُوا » الطَّعَامَ وَجَاءُوا بِجَمَلٍ يَحْمِلُ « الْحَنَاطَةَ » وَ « الرِّيحَانَةَ » وَ « سِلْسِلَةَ الْخِلْفَةِ » وَكَيْسِينَ مِنَ الْقَمْعِ . وَسَمِعَتْ بِأُذُنِهَا هَدِيرَ الْجَمَلِ وَأَفْرَعَهَا صَوْتُهُ وَلَمْ تَعْرِفْ لِمَاذَا ؟

وَيَوْمَ أَنْ جَاءُوا إِلَيْهَا « بِالْحِنَّةِ » سَلَّمَتْ يَدَيْهَا ، وَقَدَمَيْهَا إِلَى السَّرَاةِ وَخَوَّلَهَا أَهْلَهَا فَقَطَّ وَهِيَ « لَيْلَةُ السَّرَقَةِ » ثُمَّ حَلَّتْ لَيْلَةُ « الْحِنَّةِ الصَّغِيرَةِ » وَغَنَّتْ « الْأَشَاطِطُ » مَا شَاءَ لَهَا .

أَمَّا أَلْفَنَةُ الْكَبِيرَةُ فَهِيَ أَكْثَرُ مَرَامِمْ إِذْ تَحْفَ بِهَا الصَّبَايَا وَفِي أَيْدِيهِنَّ مِصْبَاحٌ يَكُونُ عَلَى مُسْتَوَى الرَّأْسِ وَمِنْ الْغَدِ ثَابِتِي « الْأَشَاطِطُ » وَيَبْدَأْنَ فِي الْوَلُوحِيِّ ثُمَّ بَعْدَ يَوْمٍ يُوَلِّي بِالطَّبْقِ وَ « عِلَاقَةُ » الْعُقُصِ وَالسَّنَاجِرِ وَ « الْحَمْدِيدَةُ » فَتَمُدُّ الْغُرُوسُ يَدَهَا وَتَأْخُذُ مِنْهُ مَا أَتَّفَقَ مِنَ السُّكَّرِ وَالزَّبِيبِ وَغَيْرِهِ ثُمَّ تَبْصُقُ سَبْعَ مَرَّاتٍ

وَتَهَيَّأُ نَفْسَهَا إِلَى « السَّجَّارِ » وَتَصْنَعُ كُلَّ هَذَا الْفَنَاءِ وَالزَّغَارِيدُ . وَأَعْجَبَتْهَا مِنْ كُلِّ هَذَا لَيْلَةُ الرَّاحَةِ . وَلَكِنَّهَا كَمَا يَقُولُونَ رَاحَةُ أَلْسِنَةٍ لَا تُنْهَى عَنْهَا هَالِكَةٌ لَا مَحَالَةَ . وَتَرْتِ بِهَذِهِ اللَّيْلَةَ بِسُرْعَةٍ لِأَنَّ مَا أَنْ طَلَعَ الصَّبَاحُ حَتَّى انْطَلَقَتِ الزَّغَارِيدُ وَأَصْوَاتُ « أَلْعَلَّالِيسِ » عَالِيَةً وَأَحْبَرَتْ أَنْ عِنْدَهَا عَشْرَةٌ . وَالْحَالُ أَنْ الْعَادَةَ تَقْتَضِي أَلَّا تُزِيدَ عَلَى الْخَمْسَةِ أَوْ السَّتَةِ وَلَا تَنْقُصُ عَلَى الْأَرْبَعَةِ إِذْ أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِقَبْرِ الْبَكْرِ . وَغَابَتْ عَنِ الْأَنْظَارِ وَلَمْ يَبْقَ فِي السَّاحَةِ إِلَّا الصَّبَايَا يَجْلِسْنَ وَيَتَصَدَّرْنَ أَهْغَلًا . وَتَبْدَأُ الْعِنَايَةَ بِشَعْرِ الْعُرُوسِ وَتَنْفِيسُ الْمَرْأَةَ فِي التَّشْيِيطِ ثُمَّ فِي طُقُوسٍ أُخْرَى مِنْ « حَرْقُوصٍ » وَلِبَاسٍ تَقْلِيدِيٍّ يُسَكِّنُ أَنْ يُعَدَّ حِلًّا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا الْجِهَالُ : فَهَلِوُ « أَلْقَابُجِ » « الطَّوَالِي » وَالْفَرْمَلَةُ وَ « أَلْحَجَلِي » فَوْقَ الرَّأْسِ وَالرَّيْحَانَةُ فِي الرِّقَبَةِ وَ « النَّيْلَةُ » وَالْهَلَّةُ . وَالْفَرَادِي فِي يَدَيْهَا . ثُمَّ تَأْتِي الْجِلْوَةُ وَعَيْنُ مَعْصُومَةٍ وَالْأُخْرَى مَشْهُوَّةٌ . وَيَعْدُ ذَلِكَ لَا تَلْبُثُ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدُ أَقَارِبِهَا وَيَحْمِلُهَا فِي حَضَنِهِ . وَيَضَعُهَا فِي الْكَرْوَسَةِ الَّتِي تَنْجِبُهَا إِلَى دَارِ زَوْجِهَا وَيَتَحَرَّكُ مَوْكِبُ الْعَرِيسِ وَهُوَ فِي اللَّبَاسِ التَّقْلِيدِيِّ : عِيَامَةٌ صَفْرَاءُ وَجِبَّةٌ « وَبَدَاعِي » وَبُرُوسٌ وَخَوْلَةُ النَّاسِ بِالسَّمُوعِ الْمَوْقَدَةِ يُشِيدُونَ أَلْشُوفَةَ : « حَزْبُ سِيْدِي بِنِ عِمْسَى » . وَوَصَلَ « خَالِدٌ » أَمَامَ عُرْفَتِهِ . وَرَجَعَ أَهْلُ الْعُرُوسِ يُعْتَنُونَ فِي الشَّارِعِ وَرَاءَ « الْحَزْبِ » . وَدَخَلَ الْعَرِيسُ وَصَرَفَ « الْمَاشِيطَةَ » بَعْدَ إِعْطَائِهَا أَجْرَهَا . فَوَجَدَ « عَائِشَةَ » شَبِيهَ مُغْمَى عَلَيْهَا . وَطَرَقَ أَصْحَابُهُ أَلْبَابَ بَعْثٍ . يَنْتَظِرُونَ مِنْهُ الْخُرُوجَ لِرَفْعِ السَّنَدِيلِ الْمَطْلُوعِ . وَلَكِنْ « الطَّاهِرُ » كَانَ حَلَّزَ الْجَمِيعِ بِسَرَايَ وَمَسْنَعٍ مِنَ النَّاسِ أَنَّهُ لَنْ يَذْعِنَ لِهَذِهِ الْعَادَةِ الْبِدَائِيَّةِ وَأَنَّهُ سَيَخْرُجُ لِأَصْدِقَاءِهِ مِنْ دُونِ رَفْعِ « السَّنَدِيلِ » .

وَبَعْدَ ذَاقَتْ فُتِحَ أَلْبَابُ وَأَطْلُ « خَالِدٌ » بِأَسَى ثُمَّ ضَاحِكًا لِأَنَّ أَعْبَجَتْهُ « عَائِشَةُ » وَوَجَدَ فِي مَلَابِجِهَا مَا كَانَ يُؤْمَلُهُ مِنْ رِقَّةٍ وَذَكَاةٍ وَهُوَ الضَّابِطُ الْمُسْتَعْوَدُ

معرفة الناس وخاصة النساء .

بانت « عائشة » متعشبة في تلك الليلة بعد أن أعانها « خالد » على نزع تلك الأثقال المعلقة بها من « قميص » و « طفطاً » وأخيمه و « قوفية » وجلب .
وسكنت إليه وسكن إليها . وكان « خالد » يشعر بالعطف نحوها ، وأي شعور يمكن له أن يستيقظ فيه غير هذا الشعور ؟ وهو الذي لم يعرفها ولم يرها قبل ذلك . هو أقصى ما يمكن أن يحس به نحو إنسان غريب عنه . ولكن العطف هو شعور القوي ، تجاه الضعيف ، وأي علاقة أحسن للمرأة في تلك الظروف من علاقة القوي بالضعيف حين يلبس ذلك هذا .

وأطاحت « عائشة » إلى هذا الرجل لأنه لم يعاملها مثلما يعامل الرجل الزوجة في مثل هذه الحالة . وقالت في نفسها :

- الرجل عاش في قرىنا وزالت عنه تلك البدايات السوسومة بالفحولة عندها . فهو في هذا الباب متسامح ... يا رب لو أنه يغفر لي تلك الزلة ويعيل عفتي ... وكان خالد يقول في نفسه :

- مسكينة المرأة (وعائشة ليست عنده حتى ذلك الوقت إلا جنسا فهي نكرة لم تدخل بعد عالم المعرفة) ... وأي برامة في هاتين العيتين ، وأي عالم ستدخله وهي غير مهتأة معرفياً له إلا خرافات العجايز وهمسات الصديقات وكأنه يقول ما قاله أبو نواس في هذه الحال :

وطالبثها شيثاً فقالت بعيرة

أموت إذن منه ، ومعشها فحيري

فمازلت في رفق ونفسي تقول لي

جويرية بكرا وذا جزع البكر

و « عائشة » تقول في نفسها :

- لَوْ يَعْرِفُ الرَّجُلُ مَا عَرَفْتُهُ مَاذَا يَكُونُ وَدُ فَعَلِهِ ؟ ... وَلَكِنَّهُ سَيَعْرِفُهُ عِنْدَمَا يُبَاشِرُنِي ... هَلْ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ مُجْرَدُ حَادِثٍ وَنَوْعٍ مِنَ الْاِغْتِصَابِ أَمْ هُوَ الْاِصْرَارُ ، وَالسَّيْرَةُ السَّيِّئَةُ فِي عَائِلَةٍ تَظْهَرُ فِي نَظَرِ النَّاسِ نَظِيفَةً ، مُحْتَرَمَةً وَلَكِنَّهَا فِي الْوَاقِعِ مُتَحَلِّلَةٌ .

وَكَانَ « خَالِدٌ » فِي مَقَامِ السَّبْعِ الْمُنْقَضِ عَلَى فَرَسِيَّتِهِ ، وَلَكِنَّهُ يُحَاوِلُ أَنْ يُلْطَفَ دَوْرَهُ ، وَيُظْهَرُ نَفْسَهُ ذَلِكَ الْحَمَلُ الْوَدِيعُ فِي جِوْشَنِ أُمِّهِ ، وَلَمْ يَفْهَمْ أَنَّ فَرَسِيَّتَهُ مُتَمَرِّسَةٌ عَلَى الصَّرَاعِ وَأَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهُ وَتَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ لِيَقْبَلَ السُّهَادَاتَةَ فِي آخِرِ الْأَمْرِ .

وَلِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ ، جَاءَتِ الْعَائِلَةُ وَخَرَجَ الْعَرِيسُ وَمَعَهُ الْفَأْكِهَةُ لِزِيَارَةِ أَهْلِ الْعَرُوسِ الَّذِينَ عَلَيْهِمْ بِإِرْسَالِ قَصَصَةِ « الْكُسْكُيِّ » وَتَحْمِ « الْأَسْلَانِ » . وَجَلَسَ « خَالِدٌ » الْعَرِيسُ فِي « مَقْعَدٍ » يَتَقَلَّى التَّهَانِي بِحَفْ بِوِ زِيَرَاهُ . وَعَلِمَ أَجْمِيعُ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ .

وَكَانَ « خَالِدٌ » يُسِيرُ إِلَى أَصْدِقَائِهِ قَائِلًا :
- يَجِبُ أَنْ تَتَخَطَّى هَذِهِ النَّفْسِيَّةَ الْبِدَائِيَّةَ وَلَا تَعْتَبِرُ الْمَرْأَةَ مَتَاعًا وَمَتْنًا خَلَقَهُ اللَّهُ لِإِرْضَاءِ شَهَوَاتِ الرَّجُلِ وَخِدْمَتِهِ خِدْمَةَ الْعَبِيدِ . إِنَّ الْمَرْأَةَ لَهَا كِرَامَتُهَا وَهِيَ إِنْسَانٌ حُرٌّ بِشَلِ الرَّجُلِ يَجِبُ أَنْ تُعَامَلَ مُعَامَلَةَ الْحُرِّ الْكَرِيمِ .

وَلَكِنْ بَعْضُ أَصْدِقَائِهِ كَانَ يَقُولُ لَهُ :
- أَنْتِ غَالِطٌ ... الْمَرْأَةُ مَرَأَةٌ يَجِبُ أَنْ تُعَامَلَ مُعَامَلَةَ الْإِنْسَانِ الْثَاقِبِ فَالْإِنْسَاءُ ثَاقِبَاتٌ عَقْلٌ وَدِينٌ كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . وَالرَّجُلُ الرَّجُلُ فَحُلٌّ ، وَأَنْتِ يَا « خَالِدٌ » تَعَلَّمْتَ الْمَيُوعَةَ مِنَ الْفَرَسِيِّينَ فَأَنْتِ خَارِجٌ عَنَّا .

وَأَبْطَلَ « خَالِدٌ » كُلَّ التَّجَالِيدِ الْآخَرَى فَأَمَرَ رُؤُوسَهُ أَلَّا تَأْخُذَ عَظْمُ فِرَاعِ الْخُرُوفِ وَالْبَيْضَتَيْنِ وَتُسَلِّمَهَا لِمَنْ تَشَاءُ وَتَنَازِلَ عَنْ إِطْعَامِهِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ مِنْ دَارِ الْعَرُوسِ .

وَأَمَرَ أُمُّهُ بِإِشْعَالِ النَّارِ وَالْقِيَامِ بِالطَّبِخِ فَتَطَيَّرَتْ مِنْ ذَلِكَ وَأَمْتَمَّتْ صَاعِرَةً أَمَامَ
الْحَاحِ إِيَّاهَا .

وَلَمَّا رَجَعَ « خَالِد » عِنْدَ الْغَدَاءِ وَاحْتَلَى بِعَائِشَةَ فِي الْفَيْلُولَةِ تَعَلَّكَ بِالتَّعَبِ
وَلَكِنِّهَا كَانَتْ تُغَالِبُ نَفْسَهَا أَمَامَ غُفْبِ الشُّهُوةِ الَّتِي كَادَتْ تَتَغَلَّبُ عَلَيْهَا وَتَتْرُكُهَا
لِعَبَّةٍ فِي يَدِ « خَالِد » . وَبِأَلَيْتِهَا تَعَلَّكَ عَلَى نَفْسِهَا وَهِيَ فِي أَيْدِي « سَالِم » !
لَمْ تَعْرِفْ كَيْفَ تَوَاجَهَ « خَالِد » فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَانْكَفَتْ بِالسُّكُوتِ وَالْحِشْمَةِ
التَّقْلِيدِيَّةِ وَالْبَقَاءِ فِي عُرْفَتِهَا بِذَارِ الْجَمَاعَةِ وَصَدِيقَاتِهَا امْتَرُوجَاتٍ يَتَقَاطَرْنَ عَلَيْهَا
وَيَلْمَحْنَ وَيَنْصَحْنَ وَيُؤْنُّ عَلَيْهَا الْوُجَاهَ .

وَأَحْسَتْ بِنَفْسِهَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنَّهَا سَتَكُونُ الْمَوْجُوءَةَ لَا مَحَالَةَ . لَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ
أَنْ تَكُونَ الْفَتَاةُ مَوْوُودَةً بِالْمَعْنَى الْقَدِيمِ الْحُسِّيِّ ، وَلَكِنَّهُ كَتَبَ عَلَيْهَا أَنْ تَبْقَى
الْمَوْجُوءَةَ . وَلَكِنَّهَا ظَلَّتْ مَوْوُودَةً مَعْنَى لَا حِسًا . فَهِيَ الْمَوْجُوءَةُ الْمَوْوُودَةُ فِي
الْبَيْتِ قَبْرِ الْحَيَاةِ .

أَمَّا « عَائِشَةُ » فَإِنَّهَا تَبَيَّنَتْ أَنَّهَا سَتَكُونُ الْمَوْوُودَةَ حِسًا بَعْدَ أَنْ صَارَتْ مَوْجُوءَةً
سِرًّا وَالْقَوْمُ يُرِيدُونَ مِنْهَا أَنْ تَكُونَ مَوْجُوءَةً عَلَنًا وَرَسْمِيًّا بِرَفْعِ السِّنْدِيلِ الْأَخْمَرِ
الْقَانِي .

وَفِي اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ لَسَعَ بَرِيقُ مِنَ الْأَمَلِ فِي نَفْسِهَا إِذْ كَانَ « خَالِد » مُتَسَرِّعًا
بِفَرْطِ مَا كَبَحَتْ جِمَاحُهُ وَأَذَكَّتِ الشُّهُوةُ فِيهِ بِدُونِ طَائِلٍ فَافْرَغَ جُهْدَهُ وَبَسْرَعَتِهِ ثُمَّ
نَالَهُ الْإِعْيَاءُ وَالتَّعَبُ بَعْدَ أَيَّامٍ مِنَ الْجُرْيِ وَرَاءَ إِعْدَادِ لَوَائِمِ الْعُرْسِ .

وَمَكَئْتُهُ « عَائِشَةُ » مِنْ نَفْسِهَا فِي تِلْكَ الْحَالَةِ فَلَمْ يُقَدِّمْ عَلَى شَيْءٍ ، وَلَمْ يَفْطِنْ بِشَيْءٍ
وَطَلَّتْ أَنَّهَا قَدْ فَخْطَتِ الْعَقَبَةَ وَإِنْ لَمْ يَتَحَطَّهَا هُوَ . وَتَأَلَّتْ فِي نَفْسِهَا :
- سَتَكُونُ وَاحِدَةً بِوَاحِدَةٍ .

وَفِي الْيَوْمِ الثَّانِي ظَهَرَتْ « عَائِشَةُ » أَكْثَرَ مَرَّةً وَرَدَّتِ السَّيْلُ بِالسَّيْلِ إِذْ

لَمَحَتْ إِلَى تَعَبٍ « خَالِد » . وَبَانَ فِي ذَلِكَ أَلْيَوْمِ الْإِكْسَارُ فِي أَعْيُنِ الْأَكْبَرِ وَالْأُمِّ ،
وَبَدَأَ الشُّكُّ يَتَطَرَّقُ فِي مَدَى فُحُولَةِ إِيْنِهْمَا وَلَكِنَّ السُّكُوتَ وَالصَّنْئَتَ كَانَا
مُسَيِّطَرَيْنِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ وَالْإِنْتَظَارَ مُزْدَوِجَ .

وَحَصِيَّتُ « عَائِشَةُ » أَنَّهَا انْتَصَرَتْ إِذْ كَانَ الْأَهْلُ كُلُّهُمْ يَنْتَظِرُونَ سَلَامَةَ خَائِفَهَا
وَإِذَا بِهِمُ الْآنَ يَنْتَظِرُونَ سَلَامَةَ رُجُولَةِ خَالِدِ . يَا لِحُسْنِ حَظِّهَا !

وَجَاءَتِ اللَّيْلَةُ الثَّالِثَةُ لِتَجْلُو كُلَّ شَكٍّ وَانْتِظَارٍ . إِذْ اسْتَجْمَعَ « خَالِدٌ » قُوَاهُ وَزَارَا
عَلَى « عَائِشَةَ » كَمَا يَتَزَوَّجُ فَحُلَّ الْقَبْرِ . وَأَحْسَتْ « عَائِشَةُ » بِأَلَمِ لَمْ يَعْرِفْهُ مِنْ قَبْلُ .
وَأَحْسَ « خَالِدٌ » بِالسُّمُوتِ كَمَا لَمْ يَعْرِفْهُ فِي وَاجِهَاتِ « كَسِينُو » وَلَعَلَّهُ أَحْسَأَ أَكْثَرَ مِمَّا
أَحْسَأَ بِهِ أَبُو ثَوَاسٍ عِنْدَمَا قَالَ :

فَلَمَّا تَوَاصَلْنَا تَوَشَّطْتُ لُجَّةً

غَرِقْتُ بِهَا يَا قَوْمُ مِنْ لُجَجِ الْبَحْرِ

فَصَبَحْتُ « أَغْفِنِي يَا غَلَامُ » فَجَاءَنِي

وَقَدْ زُلِقْتُ رِجْلِي وَجَلْبَجْتُ فِي الْقَفْرِ

فَلَوْلَا صِيَّاجِي بِالْغُلَامِ وَأَنَّهُ

تَذَارَكْنِي بِالْحَبْلِ صِرْتُ إِلَى الْقَفْرِ

وَلَكِنَّ خَالِدَ لَمْ يَصِيحْ بِالْغُلَامِ بَلْ بَكَى بُكَاءَ أَسْوَدَ ظَنٍّ أَنَّهُ فَقَدْ بِهِ الْبَصَرَ وَصَاحَ

« عَائِشَةُ » قَائِلًا :

- لِمَذَا فَعَلْتِ هَذَا ... مَنْ فَعَلَ بِكَ هَذَا ؟

- سَأَلِم .

- مَنْ هُوَ سَأَلِم ؟

- جَاءَتْ بِهِ رُوحَةُ أَبِي مَعَهَا .

- أَيْنَ هُوَ ؟

- هَرَبَ إِلَى الْجَنْدِيَّةِ .

- أَلَا تَشْعُرِينَ بِالْعَارِ الَّذِي لَوُثْتُ بِهِ عَائِلَتَكَ وَعَائِلَتِي ؟
وَأَخَذَتْ « عَائِشَةُ » تَسْتَعْطِفُهُ ، وَتَحَاوِلُ أَنْ تَقْتَرِبَ مِنْهُ ، وَتَقْبَلَهُ ، وَلَكِنَّهُ نَهَضَ
وَأَخَذَ يَسْمُكِي فِي الْغُرْفَةِ طَوْلًا وَعَرْضًا وَيَضْرِبُ بِيَدَيْهِ عَلَى أُخْرَى ، ثُمَّ يَصِيحُ :
- مَا أَلْعَمَلُ ؟
كُلُّ ذَلِكَ . وَ « عَائِشَةُ » تَبْكِي بِصَنْتٍ لِأَنَّهَا اسْتَفْرَعَتْ دُمُوعَهَا فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ
مُنْذُ زَمَانٍ .
وَلَمَّا أَعْيَى الدَّوْرَانُ « خَالِدٌ » وَاسْتَنْفَذَ كُلَّ الْخُلُولِ مَدَّةً عَلَى « بَنكِ » فِي رُكْنٍ
مِنَ الْغُرْفَةِ وَهُوَ بَيْنَ النَّوْمِ وَالنَّيَظَةِ إِلَى الصَّبَاحِ .
وَكَاثَتْ « عَائِشَةُ » تَقُولُ فِي نَفْسِهَا :
- حَسِبْتُ أَنَّهُ أَصْبَحَ مِثْلَ الْأَوْرَاقِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَقْرَأُونَ حِسَابًا
لِهَذِهِ الْقَضِيَّةِ وَلَكِنَّهُ بَقِيَ مِثْلَ غَيْرِهِ مِنْ رِجَالِنَا الَّذِينَ يَتَعَبَّرُونَ الْمَرْأَةَ مَتَاعًا .
وَلَكَدْ كَرِهْتُ مَا كَانَ يَقُولُ لَهَا « سَالِمٌ » وَكَيْفَ هُوَ عَلَيْهَا الْأَمْرَ حَتَّى وَقَعَتْ فِيهَا لَا
يَرْضَاهُ النَّاسُ عِنْدَنَا .
وَتَوَجَّهَ خَالِدٌ فِي الصَّبَاحِ وَهُوَ وَاجِمٌ ، إِلَى « الطَّاهِرِ » وَمَنْ تَوَسَّطَ لَهُ فِي هَذِهِ
الرَّيْجَةِ وَدَخَلُوا فَلَا تَشْتَهُمْ غُرْفَةً وَأَغْلَقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَشَرَعُوا فِي الزَّمْرِ وَالِاسْتِغْرَابِ .
قَالَ « خَالِدٌ » :
- أَلَا تَعْرِفُ مَا فَعَلْتَ إِيْتَتَكَ ؟
- لَا ..
- إِنَّهَا لَيْسَتْ بِكَرْمٍ .
- هَذَا غَيْرُ صَاحِبِهِ ... مَاذَا تَقُولُ أَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تُلَوِّثَ عَائِلَتِي بِالْعَارِ ١١ .
- لَقَدْ أَقْرَأْتُ إِيْتَتَكَ بِذَلِكَ وَ « سَالِمٌ » هُوَ صَاحِبُ الْقِعْلَةِ .
- سَالِمٌ ...

- نعم .

وَلَمْ يَفُوزِ الْوَسِيطُ وَهُوَ قَرِيبٌ جِدًّا مِنْ الْعَائِلَةِ أَنْ يَنْبُسَ بِكَلِمَةٍ وَوَدَّ لَوْ بَلَغَتْهُ
الْأَرْضُ وَصَاحَ « الطَّاهِرُ » :

- يَا نِسَاءَ ، يَا بَنَاتِ الْكَلْبِ .

وَدَخَلَتْ بِسُرْعَةٍ « سُكَيْلَةُ » وَ « رُبَيْدَةُ » وَأَغْلَقَتَا بَابَ الْفُرْقَةِ . وَبَدَأَ « الطَّاهِرُ »
يَسُبُّ وَيَلْعَنُ وَدَخَلَ فِي هَيْعَتِهِ الْمَعْرُوفَةِ وَلَكِنْ « خَالِدٌ » أَمْسَكَ بِهِ وَقَالَ لَهُ :
- هَذَا كُلُّهُ لَا يَخْرِجُنَا مِنَ الْوَرُطَةِ ... وَيَظْهَرُ أَنَّ كُلَّ الْعَائِلَةِ لَيْسَتْ عَلَى عِلْمٍ
وَلِهَذَا فَإِنِّي سَأَسْأَلُكَ عَنِ الْأَمْرِ وَهِيَ أَنْ تَسْكُتُوا ... وَأَنَا سَأَرْجِعُ إِلَى عَمَلِي فِي
ثُونِسَ وَتَبْقَى هِيَ فِي دَارِ أَبِي حَتَّى يَهْدَأَ الْجَوْتُ ثُمَّ أَسْرَحُهَا إِلَيْكُمْ بِسَبَبٍ سَأَعْرِفُ كَيْفَ
أَحْتَلِفُهُ .

وَنَبَضَ وَخَرَجَ غَيْرَ مُسَلِّمٍ وَلَا مُكَلِّمٍ أَحَدًا . وَسَكَتَ « الطَّاهِرُ » وَأَهْلُهُ وَأَخْفَوْا
الْأَمْرَ عَنِ بَقِيَّةِ الْعَائِلَةِ .

وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ رَجَعَ « خَالِدٌ » إِلَى « ثُونِسَ » وَلَمْ يَقْطِعْ أَحَدٌ بِشَيْءٍ لِأَنَّهُ جُنْدِيٌّ
قَدْ دَعَاهُ الْوَجَابُ إِلَى مُغَادَرَةِ زَوْجَتِهِ .

وَبَطَلَ « السَّابِعُ » وَمَا يَصْحَبُهُ مِنْ فُطَايِرَ وَخُبْزٍ وَزَيْتٍ وَسُكَّرٍ وَمَقْرُوضٍ ، وَمَا
تَلْبَسُهُ الْعَرُوسُ فِي الصَّبَاحِ مِنْ « حَرَامٍ » أَحْضَرَ وَرِدَاءٍ حَبَّ رُمَانٍ وَخَبَاطِيصٍ
خَضِرَاءَ وَشَمَلَةٍ فِي نَفْسِ اللُّونِ وَمَا تُكْنَى بِهِ فِي الْعِشِيِّ مِنْ « حَرَامٍ » حَرِيرٍ
وَرَمِي إِلَيْهَا بِالْقَوْدِ .

وَأَوَّلُ مَا حَرَّصَ عَلَيْهِ « خَالِدٌ » عِنْدَ دُخُولِهِ الْفُكْنَةَ هُوَ التَّهَنُّتُ عَنْ « سَالِمٍ »
فَوَجَدَهُ هُنَاكَ فَأَرْسَلَ مَنْ يَأْتِي بِهِ إِلَى مَكْتَبِهِ ، وَكَانَتْ الشَّمْسُ مَائِلَةً إِلَى الْغُرُوبِ .
وَلَمَّا دَخَلَ « سَالِمٌ » سَأَلَهُ « خَالِدٌ » :

- مَاذَا فَعَلْتَ مَعَ « عَائِشَةَ » .

وَطَاطًا « سَالِم » رَأْسُهُ فَأَخَذَ « خَالِد » « كَرَأَفَاش » وَطَفِقَ يَضْرِبُهُ ضَرْبًا مُبْرَحًا حَتَّى اسْقَطَهُ عَلَى الْأَرْضِ وَرَفَسَهُ بِأَفْدَامِهِ وَتَرَكَهُ فِي يَمَانِهِ ، وَخَرَجَ وَرَثَبَ الْأَمْرَ بِحَيْثُ دَفَعَ « سَالِم » إِلَى حَرْبِ الْهَنْدِ الصِّينِيَّةِ .

وَلَمَّا يَأْتِ الصَّبَاحُ حَتَّى أَصَابَ خَالِدٌ شَلْلًا فِي نَصْفِهِ الْأَيْمَنِ ، وَدَخَلَ السُّسْتَنْشَى الْعَسْكَرِيَّ وَلَكِنَّهُ لِمُصْعُوبَةٍ تَطْبِيبِهِ ، أَثَرَ الرُّجُوعِ إِلَى الْقَرْيَةِ وَدَخَلَ فِي الْأَخْضَانِ وَوَضَعَ فِي الْفِرَاشِ وَهُوَ لَا يَقْدِرُ عَلَى النُّطْقِ الْجَيِّدِ .

وَبَقِيَتْ « عَائِشَةُ » تَطْبُبُ « خَالِد » وَأَهْلُهُ يَقُولُونَ أَمَامَهَا بِكُلِّ جَفَرٍ وَتَقَمَّةٍ :
- جَاءَتِ الْعُرُوسَةُ بِالنَّحْسِ عَلَى إِيْنِنَا الَّذِي كَانَ كَالطُّوْدِ . أَمَا أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ قَدْ نَسَوْهَا ، وَ « خَالِد » لَيْسَ لَهُ مِنْ كَلَامٍ إِلَّا أَنْ يَقُولَ بِلِسَانٍ أَلَكْنَ غَيْرَ فَصِيحٍ وَغَيْرِ مَفْهُومٍ :

- اللَّهُ يَهْلِكُكَ ... إِنْغَدِي عَنِّي ... يَا قَه

وَلَمْ تَمُضِ أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ حَتَّى بَدَأَتْ « عَائِشَةُ » فِي الْهَذْيَانِ ، ثُمَّ الْأَعْمَاءُ وَفَحَرِيكَ رَأْسِهَا يَمِينًا وَيَسَارًا بِدُونِ الْقِطَاعِ .

وَرَمَى بِهَا أَهْلُ « خَالِد » فِي بَيْتِ « الطَّاهِر » الَّذِي نَقَلَهَا إِلَى ثُونِس . وَبَقِيَتْ تُعَالِجُ عِنْدَ طَبِيبٍ نَفْسَانِيٍّ حَتَّى أَفَاقَتْ بَعْدَ أَيَّامٍ ذَاهِلَةٍ وَكَانَتْهَا نَسِيَتْ كُلَّ مَا حَلَّ بِهَا حَتَّى أَنَّهَا عِنْدَمَا حَدَّثُوهَا عَنْ وَقَاةِ « خَالِد » لَمْ تَتَأَثَّرْ وَكَانَتْهَا لَمْ تَعْرِفْهُ أَبَدًا .
وَتَقِمَ « الطَّاهِر » عَلَى الْعَائِلَةِ بِأَكْمَلِهَا كِبَارًا وَصِغَارًا ، وَبَعَثَهُمْ إِلَى دَارِ الْأَنْصِيفِ وَاحْتَلَى بِنَفْسِهِ فِي مَنْزِلِهِ وَاتَّخَذَ « بِشْنِيَّتَا » غُلَامًا يَقُومُ عَلَى شُؤْنَيْهِ كُلِّهَا وَكُلَّهَا سَهَاءً « وَيَنِيَس » .

وَأَصْبَحَ لَا يَرَى أَهْلَهُ إِلَّا مَرَّةً فِي الْأُسْبُوعِ ، وَلَا يَتَأَلَوْنَ مِنْ مَرَّتَيْهِ إِلَّا مَا يَحُولُهُمْ أَمَّا أَمْوَالُهُ فَمُضْرُوفَةٌ لِلْغُلَامِ وَالْكَلْبِ ، وَلِشَهَوَاتِهِ ، وَلِعَابِرِي السَّبِيلِ مِنَ الْفُقَرَاءِ وَالْمُعْوِزِينَ .

وَأَسْتَقَرَّتْ «عَائِشَةُ» مَعَ الْعَائِلَةِ فِي دَارِ الْمَصِيفِ وَرَجَعَتْ إِلَى الضُّحْلِكِ كَمَا كَانَتْ فِي عَهْدِ الْغُلَّةِ وَالْفَرَاغِ وَلَكِنْ فِيهِ إِفْرَاطٌ، وَأَعْرَقَتْ فِي اللَّعِبِ مُتَنَاسِبَةً بِدُونِ مُتَنَاسِبَةٍ وَأَسْرَقَتْ فِي الْكَلَامِ. وَفِي الْحِكَايَاتِ الْمُسَهَّلَةِ الْمُسَوِّصِ ثُمَّ تَأْيِيهَا فَتَرَاتِ يَنْحَسِرُ فِيهَا لِسَانُهَا، وَتَبْقَى سَاهِمَةً تَنْظُرُ بِدُونِ وَعْيٍ كَبِيرٍ.

ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ خَالَهَا وَاعْتَدَلَ مِرَاجُهَا، إِلَّا فِي الْقَلِيلِ النَّادِرِ، عِنْدَمَا تُضَيِّقُ نَفْسَهَا فِي حَيَاةِ الْعَزَلَةِ الَّتِي فُرِصَتْ عَلَيْهَا وَعَلَى أَهْلِهَا.

وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ جَاءَهَا «الطَّاهِرُ» وَقَالَ لَهَا :

- هَذَا جَارَتَا «الْمُكَنَّى» يُرِيدُ الزَّوْاجَ مِنْكَ . هَلْ تَقْبَلِينَ .

«وَالْمُكَنَّى» يَسْكُنُ غَيْرَ بَعِيدٍ عَنْ دَارِ الْمَصِيفِ وَهُوَ فَلَاحٌ يُقِيمُ شِتَاءَ وَصَيْفًا فِي مُصْطَفَاةِ الْقَرْيَةِ . قَالَتْ بِدُونِ أَنْ تَفَكَّرَ :

- نَعَمْ .

وَوُفَّتْ إِلَى «الْمُكَنَّى» وَهُوَ شَيْخٌ أَرْمَلٌ فِي السَّبْعِينَ . وَظَهَرَتْ لَيْلَةُ الزُّفَافِ جَمِيلَةً جَمَالًا فَائِقًا . وَدَخَلَتْ دَارًا لَيْسَ فِيهَا إِلَّا غُرْفَةٌ وَمَطْبُخٌ ، وَبَيْتُ رَاحَةٍ ، وَزَّرِيَّةٌ فِيهَا الْجَمَلُ وَالْجِهَارُ وَالِدَجَاجُ وَالْأَرَايِبُ ، وَفِي الطَّرَفِ الْمَلَاصِقِ زَّرِيَّةٌ أُخْرَى وَغُرْفَةٌ وَمَا شَابَهُ الْمَطْبُخِ وَبَيْتُ الرَّاحَةِ . كُلُّ هَذَا يُسَمِّلُ مَسْكَنَ أَخِي الْعَرِيسِ وَيَحُوطُ بِهِدًا أَلْبَنَاءَ الْبَسِيطِ حَدَاتِقُ وَضَيْعَاتٍ صَغِيرَةً وَخَاصَّةً «جِنَان» صَغِيرٌ مَلَاصِقٌ لِلدَّارِ وَبِهِ بَابٌ مِفْتَاحُهُ عِنْدَ «الْمُكَنَّى» مَا لَبِثَ أَنْ سَلَّمَهُ «لِعَائِشَةَ» .

وَأَسْتَقَرَّتْ فِي هَذِهِ الدَّارِ وَلَكِنَّهَا لَا تَقُومُ بِأَيِّ عَمَلٍ مِنْ طَبِخٍ وَنَحْوِ «خُبْزٍ» فِي الْفَرَنِ التَّقْلِيدِيِّ وَأَعْمَالِ فَلَاجِيَّةٍ طَفِيفَةٍ .

لَمْ تَخْلُقْ هُنَاكَ إِلَّا اللَّعِبَ وَالسُّحْرِيَّةَ بَيْنَ حَوَلَمَا . وَحَتَّى بِرُوحِهَا الَّذِي كَانَ يَبَالِغُ فِي دَلَالِهَا . وَوَجَدَتْ فِي أَبْنَاءِ أَخِي رُوحَهَا مَنْ يُعِينُهَا ، وَخَاصَّةً «الْأَزْهَرُ» الشَّابُّ

فِي عُنُقُونَاوِ ، أَلْقَوِي الْبِنِيَّةَ الَّتِي لَا تُحْجِمُ عَلَى الْقِيَامِ بِأَيِّ عَمَلٍ تَأْمُرُهُ بِهِ
« عَائِشَةُ » .

وَصَارَتْ بَيْنَهُمَا أَلْفَةُ تَطَوُّرَتْ إِلَى ثَلَاثِمِ . فَعِنْدَمَا تَكُونُ فِي غُرْفَتِهَا يَأْتِيهَا مِنْ
تَافِدَةٍ صَغِيرَةٍ فِي قَفَا الْعُرْفَةِ حَيْثُ كَانَ الْجَمَلُ مَرْبُوطًا ، فَيَقْبِانِ السَّاعَاتِ الطَّوَالَ
فِي السَّنَاجَاةِ ، وَالْمَذَاعِبَةِ لَا رَقِيبَ لَهَا إِلَّا اللَّهُ وَالْجَمَلُ .

ثُمَّ تَعَوَّدَتْ « عَائِشَةُ » فَتَحَ « بَابِ الْجَنَانِ » وَالذَّهَابِ إِلَى مَكَانٍ تَحْتَ شَجَرَةٍ
الْكَرْزِ (عَوِينَةُ) تَسْتَظِلُّ هُنَاكَ . وَإِذَا بِالْأَزْهَرِ يَتَخَطَّى الْحَوَاجِزَ بَيْنَ حَدِيقَتِهِمْ
وَحَدِيقَةِ عَمِّهِ بِصُورَةٍ تُعْجِبُ « عَائِشَةَ » . إِذْ هُوَ يَقْفِزُ قَفْزَةً عِمْلَاقَةً مِنْ فَوْقِ
« طَابِيَةِ السُّنْبُوبِ » وَمَعَهُ كَلْبُهُ الَّذِي اسْتَطَابَ اللَّعْبَةَ خَاصَّةً عِنْدَمَا يَلَاقِي فِي
الْجَنَانِ كَلْبَةَ الْجَارِ فَتَسْمَعُ زَغَرْدَةً فِي عَوِيلِهِ فِيهَا تَرْجِيبٌ وَشَوْقٌ . وَيَأْتِي الْأَزْهَرُ إِلَى
« عَائِشَةَ » فَتَحْتَضِيهِ وَيَقْبِانِ السَّاعَاتِ يَأْكُلَانِ مِنَ « الْعُرِينَةِ » الْمُسَمَّنَةِ
وَيَنْعَمَانِ فِي الْعُسَيْلَةِ بِاللَّذَّةِ الْفُصُولِ بَيْنَمَا الْمُسْكَنُ فِي « دُكَّانِ » يَلْعَبُ الْوَرَقَ
شَتَّى اللَّعَبِ مِنْ « شَكْبَةِ » وَ « لُوبِي » وَ « رَبِّي » وَ « تَرْسِييَتِي » وَ « لَصُ
خَفِيطُ » وَ « دِيسِيئُو » وَغَيْرُو .

وَدَامَتْ أَمْحَالُ عَلَى هَذِهِ الشَّامِكَةِ سَنَوَاتٍ ، وَلَمْ تَعْرِفْ « عَائِشَةُ » مَا عَرَفَتْهُ
الْأُمَمَاتُ مِنْ حَمَلٍ وَوِلَادَةٍ ، وَتَرْبِيَةِ أَوْلَادٍ . وَزَادَهَا ذَلِكَ إِمْعَانًا فِي اللَّذَّةِ ،
وَالشُّرُودِ ، وَالنَّهَاجِ .

وَلِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ وَخِلَافًا لِعَادَةِ « الْأَزْهَرِ » عِنْدَ وَقُوفِهِ أَمَامَ الْكُوَّةِ الصَّغِيرَةِ
مُتَاجِعًا « عَائِشَةَ » حَلَّتْ عَقْدَةُ لِسَانِهِ بِمَا لَمْ يَعْرِفْ أَنَّهُ تَحَدَّثَ بِهِ مِنْ قَبْلُ وَقَالَ
« لِعَائِشَةَ » :

- يَسْهَدُ اللَّهُ عَلَيَّ أَنِّي لَمْ تَخْأَمِرْ ذَهْنِي يَوْمَ رَأَيْتُكَ أَيَّتَهُ فِكْرُهُ شَهَوَانِيَّةٌ : إِنَّكَ
رُوحَةٌ عَمِّي ، وَلَيْسَ مِنَ الْمَعْقُولِ عِنْدَنَا ، وَلَا مِنَ الدِّينِ فِي شَيْءٍ أَنْ أَتَرَدَّى مَعَكَ

إِلَى هَذِهِ الدَّرَكَاتِ . إِنَّ تَقَالِيدَنَا وَعَادَاتِنَا لَا تُسْبِغُ مِثْلَ هَذَا السُّلُوكِ . وَلَكِنْ بِي يَوْمَ رَأَيْتُكَ ، وَعَرَفْتُ مِنَ النَّاسِ قِصَّتَكَ ، شَعَرْتُ بِالْعَطْفِ تَحْوِكَ ، ثُمَّ بِالْحُزْنِ الْعَمِيقِ ، وَسَهَرْتُ اللَّيَالِيَ وَخَدِي لِاسْتِعْرَاضِ خَالِكَ ، وَأَسْعَى لِإِقَاسِمِكَ هُمُومًا : فَتَاءُ تَرَبُّتٍ فِي ثَوْنٍ وَعَرَفْتُ الْعِزَّ فِي الْقُصُورِ ثُمَّ تَصِلُ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ ، فَتَتَزَوَّجُ رَجُلًا فِي السَّبْعِينَ أُمِّيًا وَهِيَ عَلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ مِنَ الْجَمَالِ وَالرَّقَّةِ وَالْمَدَنِيَّةِ .

وَأَلَيْتُ عَلَى نَفْسِي أَنْ أُعِينَكَ عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ الضَّنَكَةِ الَّتِي رَمَاكَ فِيهَا وَإِلَيْكَ . وَلَمْ أَذِرْ كَيْفَ انْتَقَلْتُ مِنَ الْعَطْفِ إِلَى الْحُبِّ ثُمَّ إِلَى الْفَسَادِ .

إِعْلَمِي يَا حَبِيبَتِي أَنِّي أَلِزِمَ أَشَدَّ أَسَى وَحُزْنًا وَكَأَبَةً مِمَّا كُنْتُ ، رَغَمَ أَنِّي ظَلِمْتُ بِحُبِّكَ وَأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ بِجَسَدِكَ . وَلَكِنْ بِي كُنْتُ أَكُونُ أَسْعَدَ ، وَأَكْثَرَ شُعُورًا بِالْكَرَامَةِ ، وَالْمُرُوءَةِ لَوْ صَدَمْتَنِي وَصَدَمْتَنِي عَنْكَ وَاحْتَقَرْتَنِي ، كُنْتُ أَكُونُ شَقِيًّا لَا مَحَالَةَ لِأَنِّي لَمْ أَظْفِرْ بِغَايَتِي الْقُصْوَى وَلَكِنْ بِي أَكُونُ سَعِيدًا لِأَنْ صَرَخًا مِنْ نَفْسِي - الَّتِي تُرِيدُ أَنْ تَبْقَى وَبِئْسَ لِلتَّقَالِيدِ - يَظُلُّ قَائِمًا . أَمَّا الْآنَ فَسَعَادَتِي تَهْدُمُتُ لِأَنِّي حَسِرْتُكَ مَرَّتَيْنِ : مَرَّةً عِنْدَمَا ظَلِمْتُ بِجَسَدِكَ ، وَمَرَّةً لَمَّا اسْدَتْ أَمَامِي أَبْوَابُ الزَّوْجِ مِنْكَ .

نَعَمْ أَنَا فَلَّاحٌ بَسِيطٌ وَلَكِنْ بِي تَعَلَّمْتُ فِي الْمَدْرَسَةِ ، وَقَرَأْتُ وَتَأَمَّلْتُ هَذَا الِكْوْنَ ، وَهَذِهِ الطَّبِيعَةَ وَعَرَفْتُ مِنْهَا أَنَّ لَهَا نَوَامِيسَ عَلَيْهَا تَقُومُ وَتَبْقَى إِلَى الْأَبَدِ . وَكَذَلِكَ حَيَاتُنَا نَحْنُ الْبَشَرُ يَجِبُ أَنْ تَخْضَعَ لِنَوَامِيسَ إِنْ جِدْنَا عَنْهَا فِلِلْضِياعَ وَالنِّهَافَاتِ . وَكَانَتْ « عَائِشَةُ » سَاهِمَةً وَهِيَ تَسْمَعُ مَا لَمْ تَكُنْ تَتَوَقَّعُهُ مِنَ الشَّابِّ الَّذِي كَانَتْ تَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَجْرِي وَرَاءَ اللَّذَّةِ فَقَطْ وَالسَّاقَتِ إِلَيْهِ مِلًّا لِقِرَاعِ حَيَاتِهَا ، وَالتِّيْقَامَا مِنْ جَسَدِهَا وَمِنْ نَفْسِهَا وَمِنْ الْمُسْتَجْتَمَعِ وَقَالَتْ لَهُ :

- أَنَا لَمْ أَعُدْ إِلَّا جَسَدًا فَقَطْ لَقَدْ قَتَلُوا فِي كُلِّ إِحْسَاسٍ بِالْكَرَامَةِ وَالْمُرُوءَةِ . فَأَنَا لَا أَكْذِبُ إِنْ أَنَا قُلْتُ : إِنِّي غَيْرُ قَادِرَةٍ عَلَى أَنْ أَحْيِكَ . وَهَلْ عَلَّمَنِي هَذَا الْمُسْتَجْتَمَعُ

أَلْحَبُّ ؟ إِنَّهُ لَمْ يُعَلِّمْنِي إِلَّا السَّأَلَةَ وَاللُّؤْمَ وَالْجَرَى وَرَاءَ الشَّهَوَاتِ . لَقَدْ قَضَى وَاللَّهِ
عَلَى كُلِّ أَلْعَانَةٍ بِتَصَرُّفَاتِهِ وَجَعَلَ الْمَنْزِلَ جَعِيًّا يَسْتَعِيرُ بِمَا لَا تَرَاهُ عَيْنٌ وَالسَّاقِ هُوَ
أَيْضًا إِلَى لَذَاتِهِ .

كُنْتُ فِي الْأَوَّلِ عِنْدَمَا مِلْتُ إِلَى « سَالِم » لَا أَعْرِفُ مِنْ جَعِيمِ هَذِهِ الدُّنْيَا شَيْئًا
وَالسَّفَتْ بِدُونِ أَنْ أَشْعُرَ إِلَى الْخَطِيئَةِ لِأَنَّهُ لَمْ يُحَدِّثْنِي أَحَدٌ عَمَّا يُمَكِّنُ أَنْ يَنْتَظِرَنِي إِنْ
زَلْتُ قَدَمِي بَلْ بَقِيَتْ هَذِهِ الْمَسَائِلُ مُحَرَّمَةً لَا نَعْرِفُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَقْصُهُ الْعَجَائِزُ ،
وَيُنْصَحُهُ التَّلْبِيعُ ، وَالْإِشَارَةُ حَتَّى تَقَعَ الْكَارِثَةُ . أَنَا أَذْنُو مِنَ الْهُوَةِ الْمُهْلِكَةِ
شَيْئًا فَشَيْئًا لَا يُسْمِكُنِي أَحَدٌ ، حَتَّى هَذِهِ الشَّدَّةُ الظَّاهِرِيَّةُ فِي تَقَالِيدِنَا لَا تَسْمَعُ مِنْ
الضَّيَاعِ .

وَالْآنَ فَإِنْ مَا مَرَرْتُ بِهِ مِنْ حَالَاتٍ أَثْنَاءَ مَرَضِي ، وَمَا تَلَقَّيْتُهُ مِنَ الْأَدْوِيَةِ جَعَلَ
فِيَّ بَعْضَ كَيْلًا ، كَذُودًا ، وَعَاطِفَتِي مَقْلُودَةً خَافِيَةً . لَيْسَ مِنْ حَقِيقَةٍ عِنْدِي الْآنَ إِلَّا
اللُّذَّةُ وَمَا يَتَّبَعُهَا مِنَ أَلَمٍ . فَأَنْتَ يَا « الْأَزْهَر » حَقِيقَتِي وَوَاقِعِي وَمَا سِوَى ذَلِكَ
فَحَيَالٌ وَهَبَاءٌ .

وَبَكَى « الْأَزْهَر » بِدُمُوعِ حَارِّهِ ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ « عَائِشَةُ » بِعَيْنَيْنِ وَاسِعَتَيْنِ ،
سَاهِمَتَيْنِ ، وَأَغْلَقَتْ الثَّافِذَةَ وَنَامَتْ .

وَكَانَتْ « عَائِشَةُ » عِنْدَمَا تَمَلُّ هَذَا الْعَيْشَ ، تَذْهَبُ إِلَى أُمِّهَا وَتَبْقَى أَبْنَامًا فِي دَارِ
الْمَصِيفِ ، وَثَانِي أُخْتَهَا « زَيْتَب » الْمَتْرُوجَةُ وَلَهَا ابْنَتُهُ عُرْمَا أَرْبَعُ سَنَوَاتٍ
فَتَحْنُو « عَائِشَةَ » عَلَى هَذِهِ الطُّفْلَةِ وَتَلْعَبُ مَعَهَا وَتَذَلِّلُهَا وَتَقُولُ دَائِمًا :
- هَلْ تُرِيدِينَ أَنْ تُصْبِحِي ابْنَتِي ...

وَسَمِعَ أَبْنَامُ وَهِيَ بَيْنَ عُرْفَتَيْهَا وَبَابِ « الْجَنَان » حَتَّى جَاءَتْ لَيْلَةُ خَرِيفِيَّةٍ خَرَجَ
فِيهَا « الْمُكْتَنَزُ » لِتَمْضِيَةِ السَّهَرَةِ فِي لَعِبِ الْوَرَقِ وَذَلَفَتْ « عَائِشَةُ » إِلَى « بَابِ
الْجَنَان » وَكَانَتْ الرِّيحُ تَنْفُخُ نَفْحًا غَيِّفًا وَبَدَأَ الْمَطَرُ يَنْزِلُ رَدَافًا ، وَالْقَمَرُ يُطْلُ مِنْ

وَرَأَى السُّحْبَ مَرَّةً وَيَحْتَجِبُ أُخْرَى .

وَتَمَسَدَتْ « عَائِشَةُ » عَلَى الْأَرْضِ الثَّدْيِيَّةِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ وَالتَّنَطَّرَتْ « الْأَزْهَرُ » فَلَمَحَتْهُ بِأَيْمِي وَهُوَ يَنْهَرُ بِدُونِ ضَجَّةٍ كَلْبًا يُعَاطِلُ كَلْبَةً . فَضَحِكَتْ وَقَامَا إِلَى فِعْلِ الْكِلَابِ .

وَلَمْ تَخْرُجْ مِنْ « بَابِ الْجَنَانِ » فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ إِلَّا وَقَدْ بَدَأَهَا سُعَالٌ غَنِيْفٌ لَمْ تُذِرْ كَيْفَ نَزَلَ عَلَيْهَا فُجَاءَةً بِهَذِهِ الْقُوَّةِ وَالْعُنْفِ .

وَدَخَلَتْ عُرْفَتَهَا وَتَبَيَّهَتْ وَهِيَ فِي اللَّبَاسِ الثَّقِيلِيِّ ، إِلَى أَنْهَا نَسِيَتْ شَمَلَتَهَا فِي « الْجَنَانِ » فَأَرَادَتْ الرُّجُوعَ وَلَكِنَّهَا سَمِعَتْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ صَرَخَةً مَدْوِيَّةً ، آتِيَةً مِنْ وَرَاءِ الْعُرْفَةِ فَجَرَتْ مِفْلَ غَيْرِهَا مِنْ أَهْلِ الدَّارِ وَإِذَا « بِالْأَزْهَرِ » يَتَدَلَّى مِنْ فَمِ الْجَمَلِ وَقَدْ عَضَهُ بِقُوَّةٍ مِنْ يَدَيْهِ وَرَاحَ يَهْرُ هَرًا وَيَنْفُضُهُ نَفْضًا .

فَمَا كَانَ مِنَ الْجَمَاعَةِ إِلَّا أَنْ خَلَصُوهُ مِنْهُ بِضَرْبِ الْجَمَلِ وَالصِّيَاحِ . وَلَكِنْ يَدُ « الْأَزْهَرِ » أَلِيْمَتِي قَدْ دُقَّتْ دَقًّا أَمَا يَدُهُ الْيُسْرَى فَمَا سَكَتْ بِشَمَلَةِ « عَائِشَةَ » .

وَمِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ مَرِضَتْ « عَائِشَةُ » بِالسُّلِّ . وَرَجَعَ « الْأَزْهَرُ » مَبْتُورَ الْيَدِ ثَائِيًا . وَضَعَفَتْ بِنِيَّةِ « عَائِشَةَ » وَلَمْ يَنْفَعَهَا بِقَاوُهَا فِي السُّسْتَنْفَى بَلْ رَجَعَتْ إِلَى الدَّارِ مُسْرِعَةً وَهِيَ تَقُولُ :

- لَمْ يَبْقَ لِي إِلَّا أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ مِنْ حَيَاتِي .

وَكَاثَتْ تَقُولُ وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى ابْنَةِ أُخْتِهَا :

- يَجِبُ أَنْ تَذْهَبِي مَعِي .. لَا تَبْقِي مَعَهُمْ . إِنَّهُمْ أَشْرَارُ لَا يَحِبُّونَ أَلْبَنَتْ فَهِيَ إِمَّا مَوُودَةٌ أَوْ مَوْجُودَةٌ وَتَصِيحُ « زَيْنَبُ » وَتَحْتَطِفُ ابْنَتَهَا مِنْ يَدَيِ « عَائِشَةَ » وَلَكِنْ خَالَتَهَا تَأْخُذُهَا بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى حِينِ غَيْرَةٍ وَفِي غَفْلَةٍ مِنْ أُمِّهَا وَتَمْعُنُ فِي تَغْيِيلِهَا وَاحْتِضَانِهَا .

وَبَعْدَ أَيَّامٍ وَفِي نَفْسِ الْيَوْمِ مَاتَتْ « عَائِشَةُ » وَابْنَةُ أُخْتِهَا ، وَجَاءَ نَبَأُ وَفَاؤِ « سَالِمٍ » فِي حَرْبِ آلِهِ الصَّيْبِيِّ .

هَكَذَا مَرَّتْ بِخَاطِرِ «عَلِي» أَثْنَاءَ مَرَامِسِ جَنَازَةِ «عَائِشَةَ» كُلِّ مَرَّاجِلِ حَيَاتِهَا ، وَتَعَجَّبَ كَيْفَ يُمَكِّنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَسْتَعْرِضَ حَيَاةَ كَامِلَةٍ فِي لَحْظَةِ خَاطِرٍ ، وَأَنْ يَلْقُ لَفَةً وَاجِدَةً أَطْوَارًا مِنَ الْفَرَحِ وَالْحُزَنِ ، وَاللُّهُوِّ وَاللَّامِ ، وَالتَّعَبِ وَالرَّاحَةِ ، وَالْفَرَاغِ وَالشُّغْلِ ، وَالْيَسْرِ وَالْمُسْرِ ، وَيَطْوِي فِي غَيْرِ عَتَمٍ مَا عَاتَاهُ غَيْرُهُ السَّنَوَاتِ الطَّوَالَ ، وَحَمَلَهُ حَبْنًا ثَقِيلًا ، وَنَاءَ بِهِ جَهْدًا وَإِجْهَادًا ، كَالرُّؤْيَا تَمَامًا ، مُكَلِّمًا يَمِيشُهُ الْإِنْسَانُ وَكَأَنَّهُ فِتْرَةٌ مِنَ الْعُمُرِ طَوِيلَةٌ وَهُوَ فِي وَاقِعِ الْيَقْظَةِ لَحْظَةً عَابِرَةً مِنْ نَوْمِ خِلَافَةٍ .

فهرس الألفاظ الواردة بالهج التوسية

- أَبُو : تصغير أبو مع ياء النسبة
الْأَكْبَاحُ : جمع لَوْحَةٍ وَهِيَ خَشَبَةٌ يَسْتَعْمِلُهَا تِلَامِذَةُ
الْكِتَابِ لِكِتَابَةِ الْقُرْآنِ بِالصَّمْغِ وَكُنْحَى
ثُمَّ تُطْلَى بِالطَّفْلِ بَعْدَمَا يَحْفَظُ التَّلْمِيزَ
مَا كَتَبَهُ غَوَّهَا بِالْقَصْبَةِ الْمُبَرَّيَةِ .
- أَهْلٌ بِاسْمِ اللَّهِ : الْجِنُّ
الْإِيَّالَةُ : كَلِمَةٌ تُرْكِيَّةٌ كَانَتْ تُطْلَقُ عَلَى الْبِلَادِ
التُّونِسِيَّةِ بِصِفَتِهَا وَلَايَةِ لِلْخِلَافَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ
بَابُ الْعَرُشِ : يَعْتَقِدُ عَامَّةُ النَّاسِ أَنَّ هَذَا الْبَابَ مَوْجُودٌ
فِي السَّمَاءِ وَهَنَدَمَا يَفْتَحُ لِلْإِنْسَانِ فَطَلْبَاتُهُ
كُلُّهَا مُجَابَّةٌ .
- بَاكِتَتُهُ : التَّمَا الرَّقِيقَةُ الْأَبْيَقَةُ الْمُعَقَّقَةُ مِنْ مَقْبَضَتِهَا
الْبَثْوَشُ : الْحَلَزُونُ
بَدَاعِي : جمع يَدْعِيَّةٌ وَهُوَ مَا يَلْبَسُ فَوْقَ الصَّدْرِ مَتَمَاذِيَا
مَعَ الْجُبَّةِ
يَدْعِيَّةٌ : جَمْعٌ .. انْظُرْ بَدَاعِي

بَرَكَوِطِيَّة : جَمْعُ بَرَكَوِطِيٍّ وَهُوَ بَائِعُ الْخَضِرِ وَالْغُلَالِ وَغَيْرِهَا وَاسْمُهُ بِهَذَا الْإِسْمِ لِأَنَّهُ يَسْتَعْمِلُ لِتَرْوِيعِ بَضَاعَتِهِ الْبَرَوِيطَةَ وَهِيَ عَرَبِيَّةٌ ذَاتُ عَجَلَتَيْنِ تُدْفَعُ بِالْأَيْدِي وَتُصَدِّقُ فِيهِمَا الْغُلَالُ وَالْخَضِرُ بِصُورَةٍ أَتَقَفُ وَيَتَجَوَّلُ بِهَا صَاحِبُهَا فِي الْأَحْيَاءِ وَأَصِفَا بَضَاعَتِهِ بِعِيَارَاتٍ وَتَرْدِيدَاتٍ غَنَائِيَّةٍ .

بَسِيَّة : عِبَارَةٌ عَنْ دَقِيقٍ مِنَ الْقَمْحِ أَوِ الشَّعِيرِ مَخْلُوطٍ بِكَثِيرٍ مِنَ التَّوَابِلِ وَالزَّيْتِ يَتَّخِذُهُ خَاصَّةً أَهْلُ السَّاحِلِ مِنَ الْبِلَادِ التُّونِسِيَّةِ كَأَكْلَةٍ فِي الصَّبَاحِ أَوْ كَزَادٍ عِنْدَ السَّفَرِ وَهُوَ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ بِالسُّوْقِ .

الْبَشَاكِيرُ : جَمْعُ بَشَكِيرٍ وَهُوَ قِطْعَةٌ مِنَ قُمَاشٍ الصَّوْفِ وَغَيْرِهِ يُسْتَعْمَلُ لِتَشْفِيفِ الْبَدَنِ .

الْبَشْفِي : الْآلَةُ الَّتِي يُرَقِّقُ بِهَا التَّكْرُورِي .

بِشْنِيْن : الْغُلَامُ الَّذِي يَتَّخِذُ لِلشَّهْوَةِ .

الْبَكْشُوشُ : الْإِبْتِكَمُ .

الْبَلْدِيَّة : سَكَّانُ الْعَاصِمَةِ .

بَلْتَفَه : حِذَاءٌ يَدُونُ كَعْبٍ وَلَعْلَهُ مِنَ الْفَارِسِيَّةِ بِأَبْجُ الَّذِي أُعْطِيَ الْكَلِمَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ بِأَبُوشُ (Babouche) .

بَلْـوَزَة : لِبَاسٌ مِنَ الْقُمَاشِ مَشْفُوقٌ مِنَ الْأَمَامِ عَلَى طَوْلِ الشَّخْصِ وَهُوَ يُشَبِّهُ الْمِعْطَفَ وَلِبَاسٌ

الْأَطْيَاءُ وَلَكِنَّهُ مِنْ قُمَاشٍ غَلِيظٍ لَأَنَّهُ
يُلْبَسُ فِي أَوْقَاتِ الْعَمَلِ فِي أَكْثَرِ الْأَحْيَانِ .
البَنَكُ : الكُرْسِيُّ الْكَبِيرُ مِنَ الْخَشَبِ يَجْلِسُ عَلَيْهِ
عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ النَّاسِ .

تَبَرُّورِي : نَوْعٌ مِنَ الْقُمَاشِ الْمُنَظَّرِ الَّذِي يُسْتَعْمَلُ لِحَمَائِمِ
التَّحْفُونَةِ : الْمَرَأَةُ الْجَمِيلَةُ الَّتِي تُشَبِّهُ التَّحْفَةَ

التَّخْلِيلَةَ : لِبَاسٌ نِسَاءِ أَهْلِ الرِّيفِ
تَرْمِينُوسُ : كَلِمَةٌ أَجْنَبِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَى نِهَائِيَةِ الْمَطَافِ بِالنِّسْبَةِ
إِلَى الْقَرَامُوكَايَ وَهِيَ آخِرُ الْمَحَطَّةِ

تِيرِسِييَ : نَوْعٌ مِنَ الْعَابِ الْوَرَقِ
ثَمَمِيمُ : تَظَاهَرُ بَعْدَهُ الْقَهْمُ .

التَّكْرُورِي : نَوْعٌ مِنَ الْمُخَدَّرَاتِ يُتَّخَذُ مِنْ وَرَقِ شُجَيْرَةٍ
صَغِيرَةٍ يُجَفَّفُ وَهُوَ الْقُنْبُ الْهِنْدِيُّ الْمَعْرُوفُ
فِي الْمَشْرِقِ بِالْحَشِيشَةِ وَكَانَتْ سُلْطَةُ الْخَنَازِيَةِ
الْفَرَنْسِيَّةِ تَسْمَحُ بِإِعْدَادِهِ فِي الْمَعْمَلِ الْحُكُومِيِّ
وَيُبَاعُ بِتَسْمِيرَةٍ رَسْمِيَّةٍ مِثْلَ السِّفَائِرِ .

التَّلِيلَةُ : طَرَفٌ مِنْ ذَهَبٍ يَدُورُ بِالرَّقَبَةِ وَيَتَكَوَّنُ مِنْ
خَيْطٍ نَظَّمَتْ فِيهَا الْجَوَاهِرُ وَتَدُلُّ فِي آخِرِ
كُلِّ خَيْطٍ قِطْعَةٌ ذَهَبِيَّةٌ مُدَوَّرَةٌ وَمَرْجَانَةٌ

الْجَابِيَّةُ : الْبِرْكَةُ
جُبَّةُ : لِبَاسٌ تُونِسِيٌّ يُشَبِّهُ الْعِبَاءَةَ وَلَكِنَّهُ عَرِيضٌ

الجِلْسُوءَةُ : وَقَفَةُ العُرُوسِ لَيْلَةَ زَفَافِهَا وَهِيَ لَا يَسَةُ
اللباسِ التَّقْلِيدِيَّ وَرَافَعَةُ يَدَيْهَا فِي مُسْتَوَى
أُذُنَيْهَا مَعَ بَسْطِ الكَفَّيْنِ .

الجَلِكِيَزُ : مُرَبَّعَاتُ خَزَفِيَّةٍ مُلَوَّنَةٍ وَمُزَخْرَفَةٍ تُغْلَفُ
بِهَا الجُدُرَانُ وَحَتَّى الأَرْضِيَّاتُ

جَنَّتَانُ : حَدِيْقَةٌ - بُسْتَانُ

حِجْبَتُهُ : الْفَتْرَةُ الَّتِي تَخْتَفِي فِيهَا العُرُوسُ عَنْ أَنْظَارِ
النَّاسِ .

الحَدِيدِيَّةُ : سِوَاكُ عَرِيضٍ مِنْ ذَهَبٍ

حَنَرَامُ : لِبَاسٌ مِنْ صُوفٍ فِي شَكْلِ لِحَافٍ يَلْبَسُهُ
أَهْلُ السَّاحِلِ وَالْجَنُوبِ بِصُورَةٍ خَاصَّةٍ وَهُوَ
غَيْرُ مَخِيطٍ

حَنَرَامُ : قِطْعَةُ قِمَاسٍ مِنْ صُوفٍ تَحْتَجِيبُ بِهِ الْمَرَأَةُ
حُكَّهُ : حَقَّةٌ

حَمْسِيٌّ : هِيَ الْعَمَلِيَّةُ الْآخِرَةُ فِي صُنْعِ الْخُبْزِ وَتُمَثَّلُ
فِي اللَّصَاقِ الْقُرْصَةِ الْمُحْبِجُونَةِ بِجَوَانِبِ الطَّابُونَةِ
الْحَامِيَةِ لِإِنْصَاجِهَا

الْحَنَائِيَا : جَمْعُ حَنِيَّةٍ وَهِيَ الْآثَارُ الَّتِي بَقِيَتْ مِنْ
العَهْدِ الرُّومَانِيِّ وَتَقَعُ بَيْنَ بَارْدُو وَبَابِ سَعْدُونِ

الْحَنَائِنَةُ : الَّتِي تُهَيَّئُ العُرُوسَ زِينَةً وَلِبَاسًا

الْحِنَّةُ الصَّغِيرَةُ : اللَّيْلَةُ الْأُولَى مِنَ الْحِنَّةِ وَتُسْتَدْعَى فِيهَا بَعْضُ الْأَقَارِبِ

الحِئَةُ الكُبْرَى : حفلٌ يُسْتَدْعَى فِيهِ كُلُّ الْأَقَارِبِ وَالْأَحْبَابِ
وَتُخْتَمُ بِهِ كُلُّ حَقَلَاتِ الْحِئَةِ السَّابِقَةِ

الْحَمَوَالِيَتُ : جَمْعُ حَامَوَاتٍ وَهِيَ الدَّكَّانُ

خَمَامَةٌ : خَيْمَارٌ

الْخَجَلِي : نَمْعٌ مِنْ وَسَائِلِ الزَّيْنَةِ مِنْ ذَهَبٍ تَتَدَلَّى
عَلَى الصَّدْرَيْنِ

الْخَدَامَةُ : جَمْعُ خَدَّامٍ وَهِيَ الْعَامِلُ

الْخَطَّابُ : جَمْعُ خَطَّابٍ وَخَطَّابَةٍ وَهِيَ الثِّيَّ أَوْ الَّذِي
يَتَوَسَّطُ فِي الزَّوْجِ

الْخِلَاصُ : الَّذِي يَسْتَخْلَصُ مَمْلُوكَ النَّقْلِ مِنَ الْمَسَافِرِينَ
فِي الْحَافِلَةِ أَوْ التَّرَامُوكِ

الْخِلَالُ : عِبَارَةٌ عَنْ حَدِيدَةٍ مِنْ فِضَّةٍ أَوْ مَفْضُضَةٍ
فِي شَكْلِ دَبُوسٍ مَشْدُودَةٍ إِلَى دَائِرَةٍ مِنْ نَفْسِ
الْمَعْدَنِ تُشَدُّ بِهَا أَطْرَافُ الْمَلَأَةِ فِيهِ مُسْتَوَى
الصَّدْرِ

الْخِيَّاطِي : جَمْعُ خِيَّاطِي : قِطْعَةٌ مِنَ الْخَرِيرِ تُطَرَّزُ
بِخِيْطٍ مِنَ الْفِضَّةِ مَسْجُودَةٍ بِالذَّهَبِ وَتَلْبَسُ
فَوْقَ الْقُوفِيَّةِ

خِيَّاطِي : مِفْرَدُ الْخِيَّاطِ

دَارُ الْجَمَاعَةِ : حَسَبُ الثَّقَالِيدِ فِي الْبِلَادِ الثُّونِيسِيَّةِ يَسْكُنُ
الْمَنْزِلَ الْجَدِّ وَأَبْنَاؤُهُ وَأَحْفَادُهُ وَبِهَذِهِ الصُّورَةِ

يَبْقَى الْجَدَّةُ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي كُلِّ الْأَمْثَلِ
وَيَبْقَى أَبْنَاؤُهُ وَأَحْفَادُهُ مُجْتَمِعِينَ حَوْلَهُ
يُوزَعُ عَلَيْهِمُ الْأَعْمَالُ سَوَاءَ كَانَ فَقِيرًا أَوْ غَنِيًّا

دَارُ الْعَجَالِبِ : مَشْحَفٌ بَارْدٌ

دِقْلَتُهُ : نَوْعٌ مِنَ التَّمْرِ اخْتَصَتْ بِهِ مِنْطَقَةُ الْجَزِيرَةِ
فِي الْجَنُوبِ التُّونِسِيِّ

دِيمِينُو : لُعْبَةٌ مَعْرُوفَةٌ

الرَّيْسِي : نَوْعٌ مِنَ الْأَبَابِ الْوَرَقِ

الرَّكَّاجُ : جُزْءٌ مِنَ الْبَابِ الْكَبِيرِ

رَذَا حَبْرَ زَمَانٍ : قِطْعَةٌ قَمَاشٍ لَوْنُهَا أَحْمَرٌ

الرُّومِي : كَلِمَةٌ تُطْلَقُ فِي تُونِسَ عَلَى كُلِّ أجنبيّ
غَيْرِ عَرَبِيٍّ أَوْ مُسْلِمٍ وَلَعَلَّهَا كَلِمَةٌ قَدِيمَةٌ
تُطْلَقُ عَلَى الرُّومِ عِنْدَ دُخُولِ الْمُسْلِمِينَ وَبَقِيَ
مُسْتَعْمَلَةً لِغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ وَرَاجَتْ عَلَى النَّسْلِ
التُّونِسِيِّينَ بِشِدَّةٍ أَثْنَاءَ فِتْرَةِ الْإِسْتِعْمَارِ الْفَرَنَسِيِّ

الرَّيْحَانَةُ : سِلْسِلَةٌ تُلْبَسُ فِي الْعُنُقِ وَتَهْوِلُ إِلَى مَسْتَوَى الصُّرَّةِ
وَتَكُونُ مِنْ حَلَقَاتٍ ذَهَبِيَّةٍ كَثِيرَةٍ الْحِجْمِ

الرُّزِيَّةُ : جُزْءٌ مِنَ فَنَاءِ الدَّارِ الْكَبِيرَةِ فِيهِ الْفُرَى
تُحْشَرُ فِيهِ الْحَيَوَانَاتُ الْأَهْلِيَّةُ وَالطُّيُورُ الدَّاجِنَةُ

زَمَالَتُهُ : الْعِمَامَةُ الْكَبِيرَةُ الَّتِي تُوضَعُ عَلَى الرَّأْسِ

الزُّوَالِيَّةُ : يَظْهَرُ أَنَّ الْكَلِمَةَ آتِيَّةٌ مِنَ الْفَرَنَسِيَّةِ
Les ouvriers وَهُمْ الْعُمَّالُ وَلَكِنَّهَا أَصْبَحَتْ

تَدُلُّ عَلَى كُلِّ مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُمْ وَلَا لِيَابِقَةٍ
فِي لِيَاسِهِمْ وَقَوْلِهِمْ

السَّابِعُ : هُوَ الْيَوْمُ السَّابِعُ مِنَ الزَّوْجِ

السَّابِقِ : الْبُسْتَانُ

سَيِّئِي : عُلَيُّونَ مُسْتَطِيلُ رَأْسِهِ صَغِيرٌ يُسْتَعْمَلُ
فِي الْغَالِبِ لِلتَّكْرُورِ

سَيِّدَةٌ : فِرَاشٌ مِنْ خَشَبٍ يَكُونُ قَرِيباً مِنَ السَّفِينِ
يَفْتَحُهُ عَلَى لَوْحَةٍ كَبِيرَةٍ لَا تَعْتَمِدُ عَلَى
سَيْفَانٍ بَلْ يَدْخُلُ طَرَفَاهُمَا بِالْجِدَارَيْنِ الْمُتَقَابِلَيْنِ
وَيَبْنَى عَلَيْهِمَا .

سَيِّدِيَّةٌ : لِيَاسٌ يَحُوطُ بِالصَّدْرِ

سَرَادِيكٌ : جَمْعُ سَرْدُوكٍ وَهُوَ الدَّيْكَ

سَرْدُكَةٌ : صَوْتُ الدَّيْكَ عِنْدَمَا يَتَصَيَّحُ

سَرَّاقَةٌ : سَلَمٌ

السُّفَّارِي : حِجَابُ الْمَرْأَةِ التُّونِيسِيَّةِ

سُقَيْفَةٌ : مَدْخَلُ الدَّارِ - الْبَهْوِ

سَلِيلَةُ الْخَلَّةِ : نِصْفُ دَالِيَّةٍ مِنْ ذَهَبٍ تُشَدُّ إِلَى « الْخِلَالِ »
وَتَكُونُ فِيهَا خُمُوسَاتٌ

السَّنَاجِيرُ : نَوْعٌ مِنَ الْمَادَّةِ الَّتِي يَقْبَلُهَا تَسْوَدُّ الْبَدَنُ الْمَلْبِيَّةُ
بِالْحِنَاءِ

سُورِيَّةٌ : قَمِيصٌ

سِي : مُخْتَصَرٌ سَيِّدٌ وَهِيَ كَلِمَةٌ مُتَدَاوِلَةٌ فِي ثَوْنٍ
شُكْبَةٌ : نَوْعٌ مِنَ أَلْعَابِ السُّورَقِ
الشُّمْلَةُ : الْقِطْعَةُ الطَّوِيلَةُ مِنَ الْقِمَاشِ الْقَلِيلِ الْعَرَضِ
وَتُسْتَعْمَلُ لِشَدِّ وَسَطِ الْإِنْسَانِ
شِمْنَكُهُ : أَكْلَةُ شَعْبِيَّةٍ
الشَّيْخَاتُ : جَمْعُ شَيْخَةٍ وَهِيَ مَجْلِسُ الْإِنْسَانِ الَّذِي يَنْسِطُ
فِيهِ الْإِنْسَانُ وَيَسْمَحُ لِنَفْسِهِ بِالْغِيَامِ كُلِّ
الذَّائِلِ .
الشَّيْخَتَةُ : النَّسَارَجِيَّةُ
الشَّيْئَانَةُ : جَمْعُ شَيْئَاتٍ وَهِيَ الَّتِي كَانَ يَنْتَعِبُ فِي
السَّاحَاتِ وَمِهْنَتُهُ مَسْحُ الْأَحْدِيَةِ
صبّ العلمام : هُوَ مَا يَقْدُمُهُ الْعَرِيسُ عِنْدَ الْخُطْبَةِ
صَمَامُهُ : الَّذِي لَا يَفْهَمُ شَيْئًا فَهُوَ كَالْحَجَرِ الْأَصَمِّ
الصُّوَارِدُ : جَمْعُ صُورَدٍ وَهُوَ جُزْءٌ مِنَ الْعِشْرِينَ جُزْءًا
الَّتِي تُكَوِّنُ الْفَرَسَ
الْفَنَسُوةُ : الْوَلَدُ وَهِيَ عَرَبِيَّةٌ فَصِيحَةٌ مِنَ الضَّنَوَائِ الْأَوْلَادِ
الطَّابُوتَةُ : فُرْنٌ صَغِيرٌ مِنْ طَعْلٍ يَسْتَعْمَلُهُ الْقَرْوِيُّونَ
وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ بَيْتٍ صَغِيرٍ جِدًّا شَكْلُهُ
شَيْبُهُ مَخْرُوطٌ لَهُ فُوْهَةٌ مِنْ فَوْقٍ يَمُرُّ
مِنْهَا قُرْصُ الْعَجِينِ لِإِلْتِصَاقِهِ بِالْجُتَانِبِ الْحَامِيَةِ
مِنْ الطَّابُوتَةِ وَلَهُ فُرْجَةٌ وَهِيَ

الأسيفل مِنْهَا يُوضَعُ الحَطَبُ وَمَا إِلَيْهِ لِيَسْتَعْمَلَ
وَتَحْمَى بِهِ جَوَانِبُ الطَّابُوتِ

طَلَابَةُ الْهِنْدِيِّ : هِيَ الشَّجَرَةُ الْكَبِيرَةُ مِنَ الثَّنِينِ الْهِنْدِيِّ وَلَهَا
خَاصِيَّةٌ فِي تَشَابُكِهَا تَجْعَلُهَا صَاحِلَةً لِأَنْ
تَكُونَ سِيَاحًا كَثِيفًا لَا تَنفُذُ مِنْهُ الْعَرْنُ
وَمَتْنِعًا نَظَرًا إِلَى أَنْ أَوْرَاقَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ
غَزِيرَةٌ الْأَشْوَاكِ وَحَادَتُهَا وَأَنَّ ثَمَرَاتِهَا
تَحْمِلُ أَشْوَاكًا رَقِيقَةً تَنفُذُ فِي الْجِلْدِ
بِصُورَةٍ مَكْتَفَةٍ وَتُحَدِّثُ الْمَاءَ فِيهِ مُضَافَةً
كَبِيرَةً

الطَّبْعِيَّةُ : تَكْنِيَةُ الْمِدْقَعِيَّةِ

الطَّرَاحُ : هُوَ مَنْ يَنْقُلُ الْخُبْزَ الْمَصْنُوعَ بِالنَّازِلِ إِلَى
الْقُرْنِ

الطِّيَّابُ : هُوَ الَّذِي اخْتَصَّ فِي الْحَسَامِ الْمُسْمُومِ بِتَنْظِيفِ
الْمُسْتَحِمِّ وَتَمْسِيدِهِ

العَجَّازُ : غِطَاءٌ مِنَ الْقُمَاشِ الْمَطْرُوزِ تَضَعُهُ النِّسَاءُ
فِي الْأَفْرَاحِ عَلَى رُؤُوسِهِنَّ وَيَنْزِلُ إِلَى مَا
تَحْتَ الْأَكْتَافِ

الْمَجَّالِي : إِنْسَاءٌ كَثِيرٌ مِنَ الْفَحَّارِ سُمِّيَ بِهِذَا الْإِسْمُ
لَأَنَّهُ يُعْمَجُّ فِيهِ الدَّقِيقُ

العَضْرُوطُ : الْجِلْفُ - الصَّعْلُوكُ

العقصر : ثمرة نبتية تدخل في زينة العروس مع
الحناء والحرقوص

العلايش : جنح عكوش وهو الخروف

عكوش : ربة الدجاج

عوينة : الكرؤ

المرادي : الأساور من ذهب

المرملة : قماش مخمل يلبس فوق القمجة ومطرز
بخيوط من الفضة والعمس والكنديل (لباس
المرأة)

قطاير : جنح فطيره وهي أكلة شعبية تونسية
من صجين مقلي في الزيت

الفندق : كلمة أصبحت في تونس لا تدل على النزول
بل على المكان الذي ينزل به المسافرين
الذين يتخذون الكريطة وسيلة نقل وهو
اصطبل كبير فيه غرف صغيرة أو غرفة
كبيرة يقيم بها المسافرين وتنتظر إلى
أن المكان يؤوى خليطاً من الناس وليس
فيه المرافق الموجودة عادة في النزول أصبحت
كلمة فندق مستهجنة ودليلاً على الفوضى

الطومات : جنح فوطه وهي قطعة من القماش ملونة
من الحرير وغيره تأنز به المرأة وهي

جزء من اللباس التونسي المسمى فوطه
وبلوزة والبلوزة هي القطعة من الثياب من
تنفس القماش التي تلبسها المرأة على مستوى
الصدر فوق الفوطه

فِشَلَه : ثَكَنَة

فَلَسُون : لباس داخلي الكلمة مأخوذة من الفرنسية

القمايخ الطوالي : جمع قمیحة وهي نوع من المعاءة تلبس
تحت الرداء الحريري وهي من القماش
الابيض تطرز فتحتة بالحرير الاسود وحواشيه
بالحرير الاحمر والاخضر وتصل الى الكعبين
وفي حاشيتها خيوط حمراء وخضراء وصمغراء
من الحرير الاصلي .

الفُوطَة : نوع من الجبن الطري

فُوفِيَه : غطاء الرأس عند نساء الريف وهي مطرزة
ولعلها متأية من كلمة كوفية .

القَوَاسِي : الصخر الكبير جدا

كَاسَه : نوع من القماز يستعمل في الحمام للتنظيف

كَبْطَه : الشراية من الشاشية أو الطربوش

كَدَرُون : لباس خشن يلبسه أهل الساحل في البلاد
التونسية وهو عبارة عن عباءة قصيرة

الكرواريس : جتمع كروسة وهي العربّة التي تبحرهما غيول
 وتُستعمل للنقل في المناطق التي لا يمرّ بها
 قطار ثم أصبحت عند رواج السيارة ،
 وسيلة لنقل في المدن قبل انتشار استعمال
 التاكسي بل إن بعض المدن الكبرى حافظت
 عليها وقصرتنها على السياح

الكرواريسي : الذي يعود الكريطة

كرافاش : من الفرنسيّة Cravache وتعلّتها من
 الفارسيّة كرتاج أي نوع من الشبّاط

الكراكيبي : الذي تعود الدخول إلى السجن (الكراكيه :
 السجن المضيّق)

كروسة : انظر كرواريس

الكريطة : وسيلة للنقل قديمة جداً مكوّنة من عجلتين
 كبيرتين يجرهما بغل في أكثر الأحيان وتعمل
 لنقل البضائع .

الكسكسي : أكلة معروفة في المغرب العربي وتُسمّى
 في المشرق المغربيّة

كنّرة : نوع من البلغة (الخُف)

لص حقيظ : نوع من العباب الورق

ليلة السرقة : الليلة التي نحتّى فيها العروس خفيّة

مَكَادِلَيْتَهُ : مَا يُسَمَّى فِي الْمَشْرِقِ بِيُوسُفَ أَفَنْدِي وَلَيَمُونُ
أَفَنْدِي

الْمَاشِطَاتُ : هُنَّ النِّسَاءُ اللَّوَاتِي يُسَكِّنْنَ الْفِرْقَةَ الْمَوْسِيقِيَّةَ
فَيُخَنِّنْنَ وَيَمْلَأْنَ الْجَوَّ طَرَبًا وَمَرَحًا

مِهْيَمٌ : انْبُوبٌ تَوْضَعُ فِي فَتْحَةٍ مِنْ فَتَحَتِهِ السِّقَاقَةُ
الْمُسَبَّطَةُ : الضَّرْبُ الشَّدِيدُ

الْمُسْتَعْجَلَةُ : أَكَلَةٌ مِنَ الدَّقِيقِ تُعْطَى لِلْعُرُوسِ حَتَّى تَسْمَنَ
بِسُرْعَةٍ

مَسْكُوكَةٌ : فَتْحَةٌ الْبَالُوعَةِ

الْمِسْلَانُ : الْخُرُوفُ الْمُهِتَاءُ عَلَى قِصْعَةِ الْكُسْكُسِيِّ

الْمِطْهَرَةُ : الْخَلْوَةُ فِي الْحَمَّامِ الْمُشْمُومِيِّ لِلَاغْتِسَالِ

الْمَاجِرُ : جَمْعُ مَعْجَرٍ

الْمَعْدُ : الْخَشَبَةُ الَّتِي يُعَدُّ عَلَيْهَا التَّكْرُورِيُّ

مَقْرُورُوش : مِنَ الْحِكَايَاتِ التُّونِيسِيَّةِ الْمَصْنُوعَةِ مِنَ السَّمِيلِ
وَالْقِطْعَةِ مِنْهَا عَلَى شَكْلِ مُعَيَّنٍ مَحْشُوٍ بِالْعَرِ
وَمُعَسَّلٍ وَيَزِينُ وَجْهَهَا الْقِطْعَةُ مِنْهُ بِأَشْكَالٍ
فِيهَا زُخْرُفٌ نَاشِئَةٌ عَنْ ضَعْفِ تَخْفِيفٍ مِنْ
قَالَِبٍ حَفِرَتْ فِيهِ نَفْسُ الْأَشْكَالِ

المقصود: غُرْفَةٌ فِي الْحَمَامِ الْعُثُومِي تَوْضِعُ عَلَى ذِمَّةِ
عَدَدٍ قَلِيلٍ مِنَ الْحُرَقَاءِ الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ
الِإِخْتِلَاطَ بِعَامَّةِ النَّاسِ وَفِيهَا مَرَافِقُ أَوْفَرُ

المقصود: غُرْفَةٌ فِي مَدَنٍ كُلِّ بَيْتٍ تَقْلِيدِي يَتَخَذُهُ
صَاحِبُ الْبَيْتِ لِمُسْتَقْبَالِ أَصْحَابِهِ وَلَا يَسْتَعْمَلُهُ
فِي كُلِّ مُنَاسَبَةٍ سِوَا فِي الْأَفْرَاحِ أَوْ الْأَتْرَافِ
أَوْ الْمَجَالِسِ الْعَادِيَةِ وَلَا يَجْلِسُ فِيهِ الْمُقْعَدُ
إِلَّا الرَّجَالُ

مَلَبَّة: الْمَلَامَةُ وَهِيَ لِبَاسُ النِّسَاءِ الْقُرُوبَاتِ

مِنْدِيل: قِطْعَةٌ صَغِيرَةٌ مِنْ قُمَاسٍ مِنَ الصُّوفِ تَضُمُّهَا
الْمَرَأَةُ الرَّيْفِيَّةُ عَلَى رَأْسِهَا وَتُغَطِّي أَكْثَافَهَا

النُّزُول: مِنْ فِعْلِ نَزَلَ بِالْمَسْكَرِ وَاتَّخَذَ هَا الشَّعْبُ الْتُونِسِي
مِنْ مَعْنَى النَّازِلَةِ الَّتِي تَنْزِلُ عَلَى الْعَائِلَةِ
عِندَمَا يُجَنِّدُ الْفَرَنْسِيُّونَ ابْنَهَا وَيَنْقُلُونَهُ رَأْسًا
إِلَى الْحَرْبِ وَيَكُونُ ذَلِكَ فِي الْمَقْدَمَةِ سِوَا
فِي الْحَرْبِ الْعَالِمَةِ الْأُولَى أَوْ الثَّانِيَةِ فَتُزُولُ
الْإِبْنُ بِالْجُنْدِيَّةِ عِبَارَةً عَنْ مَوْتِهِ وَكَثِيرًا مَا
مَا يُقْبَلُ تَبَا هَذَا النُّزُولُ بِالْعَوِيلِ وَالْبَيْكَةِ
وَالْتَدَبِ

الْمِهْنَةُ: نُبَاحُ الْكَلْبِ

الْمِلَّة: مِلَّةٌ تُلْبَسُ فِي الرِّقَبَةِ وَكَهْلُ إِلَى أَسْفَلِ
الْجِدِّ وَتَكُونُ مِنْ صَفَائِحِ ذَهَبِيَّةٍ فِي صُورَةِ
النَّاسِ بِتَحْلِيلِهَا جَوْهَرًا وَمَرْجَانًا

وَرَقْلِي : مِنْ وَرَقْلَةٍ وَاشْتَهَرَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِحِلَاقِ التَّمْهِيدِ
فِي الْحَمَامَاتِ الْمُؤَمِّيَةِ

الوَرَشِي : تَزِينُ الْأَكْفِ وَالْأَصَابِعِ بِمَادَّةٍ سَوْدَاءَ

الْوَكَالَةُ : عِبَارَةٌ عَنْ بِنَايَةِ بَيْتٍ غُرْفُ عَدِيدَةٍ تُكْتَرَى
لِلْمُسَافِرِينَ أَوْ لِمَنْ لَيْسَ لَهُ مَنْزِلٌ قَدَرِ
بِالْعَاصِمَةِ وَلَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى اكْتِرَاءِ دَارٍ
بِأَكْمَلِهَا :

انتهى طبع هذا الكتاب
بمطبعة الشركة التونسية لفنون الرسم
20 نهج المنجى سليم - تونس
نحت عدد 542 / 82 - الايداع القانوني 4 / 82



« عاكسة » رواية تحكي قصة فتاة عاشت في عيشة من الأحداث القاهرة فتصادفها أمواج مجتمعات متقلب مهزوم ، اصنع فيه الفرادة لكل توازن وراحوا يتعبون هذه الحياة تجرفهم عواصف لا طاقة لهم بها وتحركهم توالع لا قدرة لهم على السيطرة عليها .

و « عاكسة » التي يتعدى إلى أشخاص الرواية أكثر من رباط في تنوعه وتكونه فترجم في مسائلها عن مثلك المرأة في ذلك المجتمع .

وُلِدَ البشير ابن سلامة في 14 أكتوبر 1931 بباردو وازاك تعلمه بالمدرسة الصادقية ثم بدار المعلمين العليا وهو أستاذ في اللغة والآداب العربية ورئيس تحرير مجلة الفكر التونسية ووزير الشؤون الثقافية بالجمهورية التونسية . وله من المؤلفات :

- اللغة العربية ومشاكل الكتابة (1971)
- الشخصية التونسية : مقوماتها وخصائصها (1974)
- النظرية التاريخية في الكفاح التحريري التونسي (1977)
- قضايا (1977)
- لوحات قصصية (تحت الطبع)
- تاريخ إفريقيا الشمالية (جزآن) تأليف شارك أندري جوليان وترجم بالإشتراك مع محمد مزالي
- المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي تأليف شارك أندري جوليان وترجم بالإشتراك مع محمد مزالي .

